شـــؤون عربيـــة

179 – خريف 2019

مجلة قومية، فصلية، تُعنى بدراسة قضايا الأمة العربية، وشؤون العمل العربي المشترك ومؤسساته
وتصدرها الأمانة العامة لجامعة الدول العربية

رئيس التحرير السفير / سعيد رفعت

هيئـة التحـرير

المسئـــول الإداري والمـــالي
عماد الدين حلمي عبد الفتاح

مسئـول الموقع الإلكتـروني
محمـــود إبراهيم العطـــار

المراجعـــة اللغويـــة
طـارق محمـــد أحمـــد

السفير/ سعيد عبدالرحمن أبو علي أمين عام مساعد
السفير/ خليل إبراهيم محمد الذوادي أمين عام مساعد
السفير/ د.قيس خزعل جواد العزاوي أمين عام مساعد
د. ثامر محمود زيـدان العـــاني وزيـر مفـــوض
ســـامية فتحـي أحمـــد بيبرس وزيـر مفـــوض
زيد محمـــد رفيـــق الصبـــان وزيـر مفـــوض
د.حيدر طـــارق عبد الستـــار وزيـر مفـــوض
رائـد علي صـــالح الجبـــوري وزيـر مفـــوض
د.محمـــد بن صـــديق مستشـــار
جمـــال رشـــدي أبو الحسن مستشـــار

الآراء الواردة في المجلة لا تعبِّر بالضرورة عن رأي جامعة الدول العربية، أو الجهة التي يعمل فيها الكاتب

محتويات العدد
179

ملـــف عربي 5

- صفقة قاصرة أم سلام مراوغ **د.رضـــا شحـــاته** 6
- الفلسطينيون في مواجهة صفقة القرن فرصة لاستعادة الوحدة أو لتكريس الانقسام؟ **ماجـــد كيالـــي** 17
- تركيا: علاقات قلقة بالحلفاء وتحركات ملتبسة فى أزمات المنطقة **د.محمـــد نـــور الدين** 28
- تعثر الانتفاضات العربية بين التحيزات العرقية والقبائلية، والتنافس الفئوي على السلطة **د.طـــلال العتريسي** 40

التوتر الأمريكي الإيراني 51

- تأثيراته الخليجية، امتداداته الإقليمية، وانعكاساته الدولية **سيـــد أبو زيـــد** 52
- المعادلة الصعبة بين شروط التفاوض وخطورة إتجاه التصعيد العسكري **د. مصطفى عبدالعزيز** 63

ملـــف دولي 83

- الصراعات على الساحة الدولية: سياسية أم ايديولوجية أم مصالح وتحالفات **غـــازي دحمـــان** 84
- سياسة ترامب تجاه روسيا والصين، وتداعياتها على إعادة الاصطفاف الدولي وتماسك التحالف الغربي **عمـــرو عبد العاطي** 95
- الدور الأوروبي بين مقتضيات التحالف مع أمريكا، ومتطلبات المصالح مع خصومها **د.ســـلام الكواكبي** 106

ملف ثقافـــي وإعلامي **117**

- مسرح الرحباني — **سليـــم ســحـــــاب** 118
- زكى نجيب محمود.. مسيرة حياة وقصة عقل — **صـــــــلاح ســـــالم** 133
- الإعلام التقليدي والفضائي بين العمق والانتشار — **أمينـــــه خيـــــري** 145

دراســـــات **155**

- الميليشيات المسلحة في المنطقة العربية الإشكاليات والمسارات — **د.شـــــرين فهمـــــي** 156
- الأكراد والأمن القومي الإقليمي — **نيبـــــال عـــزالدين** 177
- مع ذوبان الجليد، صراع بارد بين القوي الكبرى فى القطب الشمالي — **حسنـــي عبد الحـــافظ** 199

عروض كتب **219**

- الامم المتحدة والازمات العربية — **عمـــــاد الدين حلمي** 220
- التنمية المستدامة العربية ورؤية للتكامل الإقليمي — **صفـــــاء عبـــدالوهاب** 228

مجلة التنمية
والسياسات الاقتصادية

مجلة محكمة نصف سنوية
تصدر عن المعهد العربي للتخطيط بالكويت
باللغتين العربية والإنجليزية
(ISSN-1561-0411)

تعنى بنشر الأبحاث المتعلقة بقضايا التنمية والسياسات الاقتصادية في الأقطار العربية

من أجل

- زيادة مساحة الرؤية وتوسعة دائرة المعرفة لدى صانعي القرار والباحثين في الأقطار العربية.
- خلق حوار علمي بنَّاء بين الباحثين وصانعي القرار.

ندعوكم إلى

- إرسال أبحاثكم لنشرها في مجلة اقتصادية متخصصة.
- إرسال مساهماتكم من مراجعات الكتب والتقارير عن مؤتمرات تعنى بقضايا التنمية.
- الاشتراك في المجلة لاستلامها في مواعيد منتظمة.

توجه المراسلات إلى

رئيس التحرير – مجلة التنمية والسياسات السكانية
المعهد العربي للتخطيط بالكويت
ص.ب.: 5834 – الصفاة 13059 – الكويت
تليفون: 4844161 – 4843130 (965) – فاكس 4842935 (965)
البريد الإليكتروني: jodep@api.org.kw

1

ملـــــف عـربي

- صفقة قاصرة أم سلام مراوغ — د.رضـــــا شحـــاته
- الفلسطينيون في مواجهة صفقة القرن فرصة لاستعادة الوحدة أو لتكريس الانقسام؟ — ماجـــد كيالـــــي
- تركيا: علاقات قلقة بالحلفاء وتحركات ملتبسة فى أزمات المنطقة — د.محمـــــد نـــور الدين
- الانتفاضات العربية بين التحيز العرقي والقبلي والتنافس على السلطة — د.طـــــلال العتريسي

ملـف عربي

صفقة قاصرة أم سلام مراوغ

د. رضـــا شحـــاته

كاتب سياسي وسفير مصري سابق - مصر

أولاً مدخل:

لست أسعى في هذا المقام إلى سرد تفصيلي لما أطلق عليه خطة أو مبادرة السلام طريق الرخاء تحت عنوان آخر هو خطة لسلام في الشرق الأوسط للرئيس ترامب، وربما لبحث الشق الاقتصادي منها في اجتماع استضافته البحرين 25-26 يونيه 2019.

المسعى الذى أقصده هو محاولة تفسير الجوهر الكامن وراء هذه المبادرة، غاياتها وآلياتها كما أعدها أركان إدارة البيت الأبيض، والثلاثة الكبار (الترويكا)"جاريد كوشنر" مستشار ترامب للشرق الأوسط، وزوج ابنته، و"جاسون جرين بلات" محاميه الخاص والمفاوض الدولي، و"ديفيد فريد مان" سفير الولايات المتحدة في إسرائيل والمدافع عن سياستها الاستيطانية.

ثانياً:

أما ورشة البحرين فكانت "الآلية الاقتصادية لتمرير الرؤية الأمريكية الإسرائيلية لا طرح رؤية سياسة ولا إطار سياسي للتهرب من أي مرجعيات دولية حاكمة للتسوية.

ورشة البحرين قدمت وثيقة من أربعين صفحة تشمل 179 مشروعًا وبرنامجًا اقتصاديا واجتماعيا، واقترحت التمويل بخمسين بليون دولار من (دول خليجية وأوروبية مانحة) تشمل قطاعات تنموية وبنية أساسية وخدمية مليئة بالحوافز والمغريات والاستثمارات دون حديث عن السيطرة أو السيادة أو الاحتلال أو الاستيطان أو المسئول

عن تدهور الأوضاع في الأراضي الفلسطينية المحتلة ورغم ذلك وصف ترامب الخطة بأنها الأكثر طموحا وشمولاً قدمت للشعب الفلسطيني حتى الآن.

ثالثاً:

كان لخبراء الأمن القومي الإسرائيلي تقديرات هامة ذات دلالات سلبية خطيرة مؤثرة على الأمن القومي لإسرائيل إذا طبقت هذه الخطة (بعد تسريب معلومات عن الشق السياسي المتوقع عن تطبيق القانون الإسرائيلي وضم الأراضي، أو فرض السيادة على كل أو أجزاء من الضفة الغربية لتكون هذه النتائج هي المرجعية الوحيدة لأي إطار للسلام بعد فوز "ناتنياهو" في الانتخابات الجديدة 17 سبتمبر وفوز "ترامب" بولاية جديدة في الفترة من (21 – 2025).

ويرى خبراء الأمن القومي الإسرائيلي أن الخطة تستبعد "حل الدولتين" وتستهدف أساسا غاية إستراتيجية أكبر وأشمل من الصراع الإسرائيلي الفلسطيني وهي تشكيل ملامح جديدة للشرق الأوسط . هي الواقع الجديد على الأرض فقط، فلا دولة ولا حق للعودة ولا إزالة للمستوطنات، وفي ذلك أكبر الخطر على الأردن ولبنان ولا تبقى إلا دولة إسرائيل التي سوف تحول الفلسطينيين إلى مواطنين من الدرجة الثانية وتمنحهم المواطنة الإسرائيلية في ظل نظام تفرقة عنصرية (آبارتايد) وهو ما يؤدي إلى هدم السلطة الفلسطينية، وانفجار المقاومة وزعزعة الاستقرار الإقليمي والدولي.

رابعاً:

كثيرون من الخبراء الأمنيين والعسكريين يساورهم جميعا شكوك عميقة في جدية الخطة، وفي فعاليتها واحتمالات نجاحها، ومن هؤلاء الخبراء مسئولون عن السياسات الإقليمية الذين يرون أن الأمريكيين اختاروا الطريق الخطأ، ذلك أن الحل الاقتصادي يحث الفلسطينيين على التخلي عن تطلعاتهم القومية ولا يتوقعون لورشة البحرين أي

نجاح، وينضم إليهم في الرأي خبراء آخرون متخصصون في الشرق الأوسط، بالقول إن أي خطة اقتصادية تستلزم أن يوازيها حل سياسي وتنسيق مع السلطة الفلسطينية أما الخطة المعروضة فلا تحدد الهدف هل هو "حل الدولتين" أم مجرد حكم ذاتي محلي محدود.

خامساً:

هذا الموقف الرافض أو التحذيري لخبراء الأمن القومي والسياسات الإقليمية أو الشرق الأوسط عامة، تدعمه بقوة اتجاهات عدد من جنرالات الجيش الإسرائيلي في رسالة مفتوحة ترى أن ضم المستوطنات والضفة الغربية لإحدى نتائج الخطة تؤثر سلبا على الأمن القومي الإسرائيلي، وتفرض على الجيش إعادة الانتشار في كافة الأراضي الفلسطينية أي استمرار الوجود العسكري والاحتلال إلى ما لانهاية والصدام إلى مالا نهاية أيضا.

وإذ ينظر الخبراء العسكريون إلى الخطة من هذه الزاوية الأمنية، فهم يرون أن فرض إسرائيل على الفلسطينيين الاختيار بين المشروعات الصحية والتعليمية والمشروعات الاستثمارية ومنهم المواطنة (من الدرجة الثانية) مع الإسرائيليين وإما حرمانهم من كل هذه المشروعات (الشق الاقتصادي)، وفي ذلك تحويل إسرائيل إلى نظام التفرقة العنصرية، ونهاية "الحلم الصهيوني أو الرؤية الصهيونية رأى هؤلاء الخبراء، بما يؤثر على الطابع اليهودي والديمقراطي" كذا" ويصرح لإسرائيل الخبراء العسكريون أن هذا التقدير هو من منطلق تجاربهم الطويلة وليس لمجرد التخويف أو الرفض.

سادساً:

وإذا ما نظرنا من منظور آخر إلى آراء لبعض الساسة والقادة الإسرائيليين المؤثرين في صنع القرار، بل والمنتمين لحزب الليكود، نرى ظاهرة التأييد المطلق للخطة بسبب

هذا الانتماء للجناح اليميني المتطرف أو أقصى اليمين حتى داخل الليكود نفسه برئاسة "ناتنياهو" رئيس الوزراء خاصة قبل الانتخابات الجديدة في 17 سبتمبر 2019 ويمكن أن نطلق على هؤلاء اليمينيين المتطرفين المؤيدين للخطة أنهم رؤوس الحربة في الفترة القادمة أو بعبارة أخرى أركان حرب "ناتنياهو" في سعيه لتولي رئاسة الوزارة.

يؤيد هؤلاء الخطة داخل الكنيست وداخل الحكومة، وفي المؤتمرات والاجتماعات العامة ويناورون بتطبيق السياسة التي تنطوي على إسقاط حل الدولتين، وضم الأراضي الفلسطينية . كحق تاريخي ثابت لإسرائيل . ورفض عودة اللاجئين.

ومن أبرز رموز هؤلاء، نائب وزير الخارجية، وعضو الكنيست الإسرائيلي الناشطة الإسرائيلية المهاجرة من جورجيا "تسيبى هوتوفلى". التي دفعها "ناتنياهو" للصفوف الأولى لحماسها الشديد للسيطرة الكاملة على الأراضي المحتلة خاصة المنطقة (حـ) التي تشكل 60% من الضفة الغربية وتقع فيها معظم المستوطنات وإعلانها أنها سوف تعمل على الاعتراف الدولي بالمستوطنات لأنها كما تقول هي أرضنا وأرض إسرائيل.

كانت "هوتوفلى" نائب وزير الخارجية تمثل تيار يهود شرق أوروبا مثل ليبرمان وزير الدفاع والخارجية السابق قد ألقت خطابا (في مؤتمر لصحيفة "جيروزاليم بوست" في نيويورك) تعليقا على كلمة سفير واشنطن في إسرائيل الذي قال فيه حان وقت السيطرة على يهوذا والسامرة فروت هي باستخدام كلمة السيادة.

عضو ليكودي آخر يرفض أي انسحاب من أرض الأجداد هو وزير العلوم والتكنولوجيا في حكومة "ناتنياهو" هو "أوفير أكونيس" من المهاجرين بعد عام 1948 حيث طالب بإنهاء صيغة الأرض مقابل السلام لأنه حين تنسحب إسرائيل يختفي السلام ويندلع الإرهاب والعنف وهو يؤيد الحل الاقتصادي فقط.

سابعاً:

تقديرات المتخصصين في الصراع الإسرائيلي الفلسطيني تكشف بوضوح عن غياب أي توافق حول خطة ترامب ومعارضيها من اتجاهات مدنية وعسكرية وأمنية وبدرجات متفاوتة، من نقد لاذع إلى تحذيرات من المخاطر، وإسرائيل من الداخل يسودها انقسام واستقطاب حاد يبدو وأنه سوف يدفع مبادرة "ترامب" إلى طريق مجهول ربما غير مأمون العواقب مسدود لربط الشق الاقتصادي بالموافقة على الحل السياسي الجائر.

ومن أكبر مراكز البحث في الولايات المتحدة من أكد أن الرضوخ لمطالب إسرائيل من شأنه الحكم بالفشل على ورشة البحرين ثم على الخطة بأكملها.

نعود لإلقاء بعض الضوء على دور اليهود الأمريكيين المؤثرين في وضع القرار وفي البيت الأبيض فقد هاجمت مراكزهم ومنتدياتهم خطة "ترامب" علنا في منشور مفتوح لها لتجاهل الحل السياسي، ودافعت بقوة عن حل الدولتين، مؤكدة أن الأهم بالنسبة للفلسطينيين هو كيان الدولة قبل الأوضاع الاقتصادية وأن الخطة مجرد سراب وهمي وخليط مشوه من مبادرات سابقة .

وركز خبراء آخرون على انتقاد موقف جاريد كوشنر الممثل الخاص للرئيس ترامب في الشرق الأوسط فيما طرحه في مستهل ورشة البحرين لكل من سبقوا إدارة "ترامب" في طرح مبادرات خذلت في رأيه الفلسطينيين يقصد انتقاد القيادة الفلسطينية لفشلها في إقامة الدولة، ودعا إلى التعامل مباشرة مع الشعب الفلسطيني بالخطة الاقتصادية ويؤكد الخبراء فساد هذا المنهج الذي أهمل كل المبادرات السابقة وقرارات مجلس الأمن والأمم المتحدة ومبادئ القانون الدولي، وهو تماما ما دعا إليه بصراحة وجرأة غريبة "جرين بلات" في اجتماع خاص 23 يوليو 2019 مع مجلس الأمن وكرر فيه نفس المعاني داعيا للواقعية والصراحة ونسيان قرارات الأمم المتحدة والقانون الدولي.

إلا أن بعض الخبراء المشهود لهم بالخبرة الطويلة "دينيس روس" وهو يهودي أمريكي متمرس في المفاوضات الإسرائيلية الفلسطينية في أكثر من إدارة قد وصف خطة

"كوشنر" بأنها قد تتيح بعض الفرص أو ومضات الأمل وسط الواقع الأليم للفلسطينيين لكنه دعا الإدارة إلى الاعتراف بالدولة الفلسطينية.

ثامناً:

تحليل مواقف الدول العربية من خلال المشاركة في ورشة البحرين وقبلها وبعدها يبرز موقفين عربيين أساسيين لانفرادهما بعلاقات سلام مع إسرائيل هما مصر والأردن.

1. مصر:

قبل الحديث عن موقف مصر كدولة شاركت بمستوى معين في ورشة البحرين يبادر بالقول أن الرئيس "عبد الفتاح السيسي" استقبل وأجرى مباحثات في الحادي والثلاثين من يوليو 2019 خلال اجتماعه مع "جاريد كوشنر" الممثل الشخصي للرئيس "ترامب" للشرق الأوسط ومهندس خطة السلام هو الطريق إلى الرخاء مع "جرين بلات" المحامي الخاص "لترامب" والمفاوض الدولي، وكذلك "برايان هوك" المستشار السياسي لوزير الخارجية الأميركي بومبيو وأكد الرئيس المصري موقف مصر القائم على أساس حل الدولتين وإقامة دولة فلسطينية وعاصمتها القدس الشرقية، وهو ما نراه متطابقا مع الموقف الفلسطيني وذلك للحفاظ على الاستقرار والأمن في المنطقة المضطربة.

هذا الاجتماع وإن كان يختزل كل أبعاد الموقف المصري لكن المشاركة في ورشة البحرين كانت كاشفة لأبعاد كثيرة وهي عدم الاعتداد بالشق الاقتصادي دون حل سياسي وتأكيد رفض أي توطين للفلسطينيين في البلاد التي لجؤوا إليها بعد حرب 48، 67 مثل مصر ولبنان والأردن وغيرها واستبعاد أي توطين في شبه جزيرة سيناء (رئيس الدولة ووزير الخارجية) في تصريحاتهما وفسر الخبراء موقف مصر بأنه جاء رغم علاقات التعاون العسكري والأمني مع الولايات المتحدة، ولشن حرب ضد الإرهاب شمال سيناء ورفض نقل مسئولية

اللاجئين الفلسطينيين إليها وتأثير الصدام المتقطع بين حماس في غزة وإسرائيل على الأمن والاستقرار في المنطقة وفي مصر.

2. الأردن

من أولى الدول العربية التي تتضرر من تطبيق الخطة خاصة بعد الإعلان بأنها أي الخطة لن تستهدف حل الدولتين ولا عودة اللاجئين مما أثار أعمق المخاوف بوجود خطر جسيم على الكيان الأردني بحجة تحويله إلى "وطن بديل. "

وهكذا يقع الأردن بين مطرقة مثل هذا الحل (الخطة) وبين سندان علاقته باتفاقية السلام مع إسرائيل وعلاقته الوثيقة مع واشنطن أمنيا واقتصاديا وعسكريا فيصبح كل ذلك في مهب الريح بل ويفجر صراعات داخلية تؤثر على الأمن القومي والإقليمي، وقد حرص الأردن على التنسيق مع مصر فقام الملك "عبد الله الثاني" بزيارة القاهرة وإجراء مباحثات مع الرئيس "السيسي" حول هذه الأمور في الأسبوع الأخير من يوليو 2019 .

3. السعودية

الدولة الرائدة في المحيطين العربي والإسلامي فقد شاركت في ورشة البحرين في ظل تأكيد عاهلها خادم الحرمين بأن "السعودية تقبل ما يقبله الفلسطينيون وترفض ما يرفضونه" مثلما أكد ولي العهد الأمير "محمد بن سلمان" بأن موقف السعودية من القضية الفلسطينية لم يتغير مطلقا والموقف هو مبادرة السلام العربية منذ عام 2002 وزيادة مساعداتها المالية ودعمها السياسي، وهي كذلك حريصة على علاقاتها الأمنية والعسكرية الوثيقة بالولايات المتحدة خاصة في الإطار الخليجي لمواجهة التمدد والتهديدات الإيرانية.

4. المغرب

أيضا شاركت في ورشة البحرين مع حرص واضح على علاقاتها مع واشنطن ولها في إسرائيل 600000 مواطن من أصول مغربية مرتبطون بمصالح في المغرب وفوق هذا تولى المغرب رئاسة "لجنة القدس" مما يخلع عليها دورا دينيا سياسيا.

ويلمس المراقب في هذا كله درجات متفاوتة من قدر من التحفظ أو القبول المشروط في المشاركة بالالتزام بالحل السياسي حل الدولتين وبالحقوق الفلسطينية ومراعاة علاقاتها كدول مشاركة أو حليفة أو مرتبطة بمساعدات مع الولايات المتحدة.

5. البحرين

الدولة المضيفة للاجتماع عبر عن موقفها بكل وضوح وزير خارجيتها الشيخ "خالد بن حمد آل خليفة" مؤيدا مبادرة الرئيس "ترامب" وخطة "كوشنر" مع الإشارة إلى ثوابت موقف البحرين من القضية الفلسطينية، بيد أن الصحف ووسائل الإعلام الإسرائيليين نقلت عنه من التصريحات ما استوجب التوضيح والتفسير أكثر من مرة.

6. الاتحاد الأوروبي

كذلك لم يكن يتمشى مع الموقف الأمريكي سواء مبادرة "ترامب" أو خطة "كوشنر" لعدم مبالاة الإدارة بالتشاور مع الاتحاد الأوروبي إلا في اللحظات الأخيرة وباعتباره ممولاً محتملاً لمشروعات الخطة الاقتصادية فحسب التي يصفها بأنها نوع من الوهم وأن المبادرة أقرب إلى نظام "آبارتايد" وتعبر عن إفلاس الإدارة ومحاولة لعزل وتهميش القضية الفلسطينية واتهام القيادة الفلسطينية بالعناد وتحميلها مسئولية الاحتلال وتدهور الأوضاع في الأراضي المحتلة.

تاسعاً:

الموقف الفلسطيني: أصحاب القضية والمعنيون بالدرجة الأولى بالمسائل المطروحة سواء السلطة الفلسطينية بقياداتها، وسواء رجال الأعمال الفلسطينيون أو الخبراء منهم، نلمس شبه إجماع على رفض المبادرة والخطة والمشاركة في ورشة البحرين برغم استثناء قلة قليلة من بعض رجال الأعمال الفلسطينيين المرتبطين بمصالح تجارية واستثمارية خاصة مع الإسرائيليين.

فقد وصف "صائب عريقات" مثلاً وهو الرئيس السابق للمفاوضات بأن المسألة كلها مجرد نكتة واتهم "ترامب وكوشنر" بالانحياز المطلق لإسرائيل وتدمير حل الدولتين.

أما "نبيل شعث" المفاوض المتمرس في "أوسلو" فقد اتهم إسرائيل والاحتلال بإحباط اتفاقيات "أوسلو" اقتصاديا واتهم واشنطن بتبديد أي ثقة في وعود جديدة لتحرير الاقتصاد الفلسطيني.

هذا الاتجاه العام الرافض والهجوم على المبادرة، والخطة والورشة تتهم "ترامب" و"كوشنر" بمحاولة القضاء على الطموحات الفلسطينية وكل الحقوق السياسية والاقتصادية وأن الخطة ليست إلا "إعادة تغليف" الأفكار القديمة الفاشلة، وبطرح المشروعات وإجلاء المستوطنات، ويرى المحللون الفلسطينيون أنه إن كان للخطة فضيلة فهي توحيد جبهة المعارضة في صف واحد للحفاظ على الحقوق والطموحات الفلسطينية.

وفي حديث شامل لرئيس السلطة الفلسطينية "محمود عباس" نشرته وكالات الأنباء والصحف الإسرائيلية أكد أن السلطة وإن كانت بحاجة للمال فهي ترفض أن تتحول إلى عبيد للفريق الأميركي" كوشنر وجرين بلات وديفيد فريد مان" مؤكدا أن مؤتمر البحرين مآله الفشل، وأن الصراع مع إسرائيل صراع سياسي ولن نقبل اختزال القضية السياسية في بعض المشروعات الاقتصادية" .

ونلاحظ في هذا السياق أن رد "ناتنياهو" رئيس الوزراء الإسرائيلي على الموقف الفلسطيني الرافض بقوله إنه سوف يستمع إلى الخطة بشكل محايد ومنصف وعقل مفتوح

وأن إسرائيل لن تتخلى عن وادي الأردن (أي التمسك بسياسة الاحتلال مع مهاجمة الفلسطينيين للخطة مسبقا قبل قراءتها) .

رجال الأعمال الفلسطينيون، (ما عدا القلة القليلة) وقفت وراء قيادتها في رفض مبادرة "ترامب" وخطة "كوشنر" مطالبين بالحرية لا بالمال، وأن إنهاء الصراع لن يتحقق إلا بالمسار الدبلوماسي نحو إقامة الدولة الفلسطينية.

الباحثون والناشطون السياسيون الفلسطينيون قاموا بتشريح المبادرة والخطة ونقدهما نقدا مريرا إذ لا محل فيها لأي حقوق ولا حقوق الإنسان أو تقرير المصير.

والخطة ليست إلا "إعادة تدوير" . كما سبق القول . لأفكار فاشلة، وتتجنب الإشارة لآثار الاحتلال أو التحضير لضم الضفة الغربي، هذه الخطة في تقدير الباحثين الفلسطينيين تحمل الفلسطينيين، وإدارتهم الفاسدة أو حكمهم الفاشل، وفسادهم المالي المسئولة عن معاناتهم، كما أن الخطة لم تجب على تساؤلات ملحة مثل وحدة الأراضي الفلسطينية ومواضع الخط الأخضر الفاصل بين إسرائيل والأراضي الفلسطينية المحتلة وعدم ذكر القدس أو المستوطنات أو الدولة .

عاشراً: الخلاصة والاستنتاجات

هذه المبادرة الأمريكية الجديدة للرئيس "ترامب" لم تكن لتفاجئ المحللين لسياسات الرئيس الأمريكي تجاه إسرائيل والشرق الأوسط، منذ اعترافه بالقدس عاصمة لإسرائيل في ديسمبر 2017 ثم قطع المساعدات عن اللاجئين الفلسطينيين، ثم فرض سيادة إسرائيل على الجولان وضمها لإسرائيل، والاعتراف بهذا الوضع الجديد، ثم نقل السفارة الأمريكية من تل أبيب إلى القدس، ولإغلاق القنصلية الأمريكية في القدس لتلحق بالسفارة وفي سياق شرق أوسطى أوسع كانت أولويات الاستراتيجية الأمريكية تركز على مواجهة التهديد والخطر الإيراني على مصالحها وعلى الأمن الإسرائيلي.

هذه الخطوات تمثل أجراس إنذار لصفقة مخادعة أطلق عليها مجازا "صفقة القرن"، وهي في تقديري أقرب ما تكون إلى "خديعة القرن" أو خطة السلام المراوغ، التي يكاد يجمع على رفضها أو على الأقل انتقادها كثيرون حتى داخل إسرائيل من معارضة ومراكز أبحاث وجامعات وقادة عسكريين متقاعدين، كما رفضتها أو انتقدتها مراكز أبحاث وشخصيات مؤثرة وبارزة بين أوساط اليهود الأمريكيين وواضح لي تماما الانقسام والاستقطاب العميق حتى بين المعروفين بتأييدهم لإسرائيل والليكود، ولم يعد لها من مؤيد سوى أنصار اليمين المتطرف أو أقصى اليمين، ومن ورائهم القوة السياسية الغاشمة للإدارة الأمريكية.

كذلك الرفض أو القبول المشروط المرتبط ببعض التحفظات كان هو الاتجاه السائد في الجانب العربي، وكان يحكم موقف الجانب الرسمي العلاقات الخاصة المتميزة مع الولايات المتحدة والتحالف لمواجهة الخطر الإيراني.

أما المبادرة ذاتها فيبدو لي أنها على أرجح التقديرات قد قضي عليها بالفشل أو التجميد العميق على أقل تقدير، فكيف سوف تتصرف الإدارة الأمريكية في عام يستعد فيه ترامب لولاية جديدة بعد انتخابات رئاسية العام القادم ويستعد فيه رئيس الوزراء الإسرائيلي لمعركة انتخابية في سبتمبر من هذا العام .

الفلسطينيون في مواجهة صفقة القرن
فرصة لاستعادة الوحدة أو لتكريس الانقسام؟

ماجـــد كيالـــــي

باحث فلسطيني - سورية

في الآونة الأخيرة، بخاصة مع مجيء دونالد ترامب إلى رئاسة الولايات المتحدة الأمريكية (2017)، وانكشاف انحيازاته الفجّة لإسرائيل، وسياساتها الاستعمارية والاستيطانية والعنصرية والقمعية، وجد الفلسطينيون أنفسهم، رغم اختلافاتهم، وتنافساتهم، إزاء واقع جديد يتهدّد وجودهم وحقوقهم الوطنية المشروعة كشعب، كما يتهدّد قضيتهم العادلة بالتصفية.

وفي الواقع فإن رؤساء الولايات المتحدة الأمريكية السابقون، ورغم انحيازاتهم المطلقة لإسرائيل وتغطيتهم لسياساتها، انتهجوا سياسات تقليدية ثابتة، ولو نظريًا، بخصوص القضية الفلسطينية، بحيث لم تخرج كثيرًا عن القرارات التي تم تبنيها في الأمم المتحدة. ولنلاحظ أن رؤساء الولايات المتحدة منذ مؤتمر مدريد (1991)، وعقد اتفاق أوسلو (1993)، ومفاوضات كامب ديفيد 2 (2000)، في عهد الرئيس كلينتون، وطرح خطة خريطة الطريق (2002)، ومؤتمر أنا بوليس (2007) إبان عهد الرئيس بوش الابن، والمفاوضات في عهد الرئيس أوباما (2013-2014)، ظلوا محافظين على صورة الولايات المتحدة (الشكلية)، كراع للمفاوضات وكوسيط "محايد"، بين إسرائيل والفلسطينيين، مع تمسّكهم بعملية التسوية، وضمانهم استقرار السلطة الفلسطينية. بيد أن وصول رئيس من طراز دونالد ترامب إلى البيت الأبيض غيّر كل تلك المعادلات، إذ تعمّد قلب كل المعايير المذكورة، رأسًا على عقب، بتخلّيه بكل فجاجة عن تلك الصورة، إن باعترافه بالقدس عاصمة موحدة لإسرائيل (أواخر 2017)، وسعيه تصفية قضية

اللاجئين من بوابة وقف التمويل الأمريكي لمنظمة غوث وتشغيل اللاجئين (أونروا، التابعة للأمم المتحدة أواسط 2018)، ومن بوابة إعادة تعريف اللاجئ الفلسطيني، بإخراج أبناء وأحفاد اللاجئين من ذلك التعريف، ومن خلال نزع شرعية منظمة التحرير الفلسطينية وإغلاق مكتبها في واشنطن (أواخر 2018)، كما عبر وقف تمويل عديد من الأنشطة الاقتصادية والاجتماعية في الأرض المحتلة، والسكوت عن الأنشطة الاستيطانية الإسرائيلية في الضفة الغربية، وعن قانون القومية اليهودية (أواسط 2018)؛ ويأتي في السياق ذاته شرعنة السيادة الإسرائيلية على الجولان السورية المحتلة (مارس 2019).

ما هي صفقة القرن

هكذا، وقبل الحديث عن الموقف الفلسطيني الراهن قد يجدر بنا تقديم فكرة عما يسمى "صفقة القرن"، التي تتهيّأ الولايات المتحدة لطرحها وفرضها في المنطقة، والتي كتب عنها الكثير قبل أن تفصح عنها الإدارة الأمريكية، إذ أن تلك الخطة تتأسّس، على الأرجح، على الفصل والتفكيك، الهادفين إلى تغيير مبنى قضية فلسطين ومعناها، بما يتناسب والمصالح الإسرائيلية، مستغلّة في ذلك الظروف العربية والدولية الراهنة.

وبشكل أكثر تحديدًا، فإن الخطة المذكورة، بغض النظر عن التفصيلات، ترتكز على أربعة محاور، الأول، تفكيك قضية فلسطين وشعبها، بحيث يختصر الشعب الفلسطيني بفلسطينيي غزة والضفة، باعتبارهم مجرد سكان، وليسوا شعبًا أو جزءًا منه، بل مجرد سكان يعيشون في معازل، بلا حقوق اجتماعية وسياسية وتاريخية. والثاني، فك الارتباط العربي بقضية فلسطين، وفصل علاقة إسرائيل بالأنظمة عن حقوق الفلسطينيين، كما عن وجودها في الأراضي التي احتلتها (1967)، أي مجرد تطبيع مقابل تطبيع. والثالث، إبقاء الوضع الفلسطيني عند حدود الحكم الذاتي، ما يكرس وضع إسرائيل في ظل واقع من الاحتلال المريح والمربح. والرابع، تكريس إسرائيل كفاعل

وكشريك متميّز في قلب العالم العربي، حتى لو كانت بالنسبة إلى الفلسطينيين بمثابة دولة استعمارية – عنصرية ("أبارثايد").

وبالطبع ثمة تفصيلات كثيرة للخطة، سياسية وأمنية واقتصادية، وهندسية، ضمنها رصد عشرات مليارات الدولارات للتنمية، للفلسطينيين ودول المنطقة، وإقامة ميناء في غزة، ومنطقة صناعية في سيناء على حدود غزة، وجسر يربط بين الضفة وغزة، وتطبيع العلاقات بين الأنظمة العربية وإسرائيل، وطبعا يأتي ضمن ذلك إبقاء السلطة الفلسطينية عند حدود الحكم الذاتي، فقط، أي سلطة على البشر وليس على الأرض والموارد، وفي حدود الهيمنة الإسرائيلية على مصير الفلسطينيين.

الواقع الفلسطيني الراهن

على الصعيد الفلسطيني يفترض أن نلاحظ أن المعطيات الداخلية والخارجية المحيطة تفيد بضعف الواقع الفلسطيني الراهن، فعلى الصعيد الداخلي تواجه السلطة محاولات القطع مع خيارها المتمثل بإقامة دولة فلسطينية مستقلة في الضفة والقطاع، وتاليا لذلك إضعاف مكانتها، وإفقادها صدقيتها إزاء شعبها. أيضا، هي تواجه محاولات تجفيف مواردها المالية، بوقف التمويل الأميركي، وبإيقاف حوالات العوائد الضريبية ("المقاصة") التي تجبيها السلطة الإسرائيلية، وبتطوير دور الإدارة المدنية الإسرائيلية للضفة، على حساب السلطة، مع وجود حوالي 130 ألف عامل يشتغلون في إسرائيل، ووجود حوالي ربع مليون موظف فلسطيني يفترض أنهم يتلقون رواتبهم من السلطة، التي تعتمد أيضا على الموارد التي تتأتى من الولايات المتحدة ومن تحويل إسرائيل أموال "المقاصة"، إلى درجة يرى معها المحلل الإسرائيلي جاكي خوجي أن "إسرائيل تمسك بالاقتصاد الفلسطيني من رقبته وتسيطر عمليا على ميزانية السلطة."

ولعل ذلك الوضع يذكّر بذات الحال التي مرّت بها القيادة الفلسطينية، وهي قيادة المنظمة والسلطة و"فتح"، قبيل عقد اتفاق أوسلو عام 1993، لجهة تجفيف مواردها

المالية، ولجهة تجاوزها أو التلويح بوجود بدائل لها، الأمر الذي استدرجها آنذاك، إلى حبائل التوقيع على اتفاق أوسلو، وإقامة السلطة، وهي مجرد سلطة حكم ذاتي، أي أقلّ من دولة، ما يفيد بأن السلطة والمجتمع الفلسطينيين يعيشان تحت هيمنة الاحتلال، وبالاعتماد عليه من حيث الموارد والبنى التحتية ومراكز العبور والمعاملات الإدارية.

على أية حال، وقبل التفكير في الخطوات اللازمة أو الممكنة لمواجهة الخطة المذكورة، من المفيد مراجعة الثغرات أو الأخطاء التي وقعت فيها الحركة الوطنية الفلسطينية، وأوصلتها إلى هذه اللحظة، وأهمها ما يلي:

أولاً: تخلّيها، باكرا (1974)، عن الرواية الجماعية، بقبولها التعاطي وكأن الصراع بدأ في 1967 مع احتلال الضفة وغزة، وليس في 1948 مع النكبة وإقامة إسرائيل وتشريد معظم شعب فلسطين، وهو ما حصل في مضمون اتفاق أوسلو (1993)، ظنّا أو توهّما منها أنها في ذلك تكسب الشرعية الدولية، لكنها في تلك الخطوة خسرت القضية والشرعية والصدقية الكفاحية، عند شعبها وفي العالم، بل فقد شهدنا بأن إسرائيل ازدادت غيّا، بمصارعتها حق الفلسطينيين في الضفة الغربية وفي حقوق السيادة وتقرير المصير، في واقع سلطة تحت الاحتلال، وفي واقع احتلال مريح ومربح بالنسبة لإسرائيل، والمشكلة أن ذلك المسار بات له أكثر من نصف قرن، بحيث بات يصعب الانفكاك منه.

ثانيا: تعاطيها مع واقع تفكّك الشعب الفلسطيني، باستبعادها فلسطينيي 1948 من معادلاتها السياسية وإطاراتها التنظيمية، الأمر الذي وصل اليوم إلى حد استبعاد تجمعات أخرى، أي اللاجئين في الأردن وسوريا ولبنان من المعادلات الوطنية الفلسطينية، بحصر مفهوم الشعب بفلسطينيي الضفة وغزة المحتلتين (1967)، وبانتقال مركز الثقل في العمل الوطني إلى الداخل، وبتهميش منظمة التحرير الفلسطينية الكيان السياسي المعنوي للشعب الفلسطيني في كافة أماكن تواجده، والمعبر عن قضيته.

ثالثا: تركيزها على الصراع مع إسرائيل، وبخاصة في ما يتعلق بحصره في مجال الكفاح المسلح، بغض النظر عن إمكاناته، وإهمالها البعد المتعلق ببناء الكيانات الجماعية السياسية والاقتصادية والاجتماعية وتنمية الموارد البشرية، وانتهاج أشكال الكفاح الشعبية المتاحة والممكنة، والمحصلة أن القيادة الوطنية الفلسطينية وجدت نفسها بعد أكثر من نصف قرن لم تنجح في الكفاح المسلح، الذي أخذته شكلا رئيسا لها، ولا في المفاوضة، كما لم تستطع في غضون تلك المسيرة من بناء كيانات سياسية واجتماعية واقتصادية للشعب الفلسطيني في كافة أماكن تواجده، وهذا لشعب يحتاج أكثر من أي شيء لإطارات كيانية تعوض افتقاده للكيان الجغرافي، وتعوض تمزق أو توزع بناه الاجتماعية على عدة دول.

رابعا: الاعتمادية في الموارد على الخارج، إذ أن الحركة الوطنية الفلسطينية، بما فيها المنظمة والسلطة والفصائل، ومنذ أكثر من نصف قرن، بنت أوضاعها وضخّمت أجهزتها، تبعا لتدفّق تلك الموارد، ما جعلها رهينة لها، أي للدول المانحة، أرادت ذلك أم لم ترد. والحال فكيف للقيادة الفلسطينية أن تواجه "صفقة القرن"، والولايات المتحدة وإسرائيل، بوضعها هذا؟ أو بعد أن أثقلت نفسها، بتلك التبعية، وبتلك الوظائف، علما أن الولايات المتحدة تقدم مساعدات تبلغ 10 بالمئة من موازنة السلطة (التي تقدر ب 4 بلايين دولار سنويا)، ومثل ذلك تقدمه عن طريق وكالة الغوث (بمجموع قدره 800 بليون دولار)، في حين تأتي نصف الموازنة من اتفاقات "المقاصة" الضريبية مع إسرائيل، التي توقفت هي الأخرى، بسبب رفض السلطة أي انتقاص منها، أو رفضها الشروط الإسرائيلية المتعلقة بها.

خامسا: حال الانقسام الفلسطيني، بحكم الخلاف بين حركتي "فتح" و"حماس"، وهو أمر بات له 12 عاما، ولا يبدو أن ثمة حلّ له، في ظلّ تحول كل من الحركتين المذكورتين إلى سلطة، في المنطقة التي تسيطر عليها، حيث حماس في غزة وفتح في الضفة. وفي الواقع فإن تخوف القيادة الفلسطينية من صفقة القرن يكمن أساسا من خشيتها من إبقاء السلطة عند حدود الحكم الذاتي، ومن إمكان تعزيز هذه

الصفقة سلطة حماس في غزة، بل وتكريس انفصال قطاع غزة عن الضفة الغربية، وبالتالي تكريس واقع انقسام الكيان الفلسطيني.

سادسا: واضح أن المعطيات العربية والدولية لا تشتغل تماما لصالح القيادة الفلسطينية، وهذا ما بات في إدراكها، في مواجهتها المذكورة مع إدارة ترامب، على خلفية الصفقة المزعومة، إذ أن العالم العربي بات غاية في التفكك، ومنقسما إلى محاور، وأهم من كل ذلك أنه منشغل في مواجهة التحدي الناجم عن تغول النفوذ الإيراني في المشرق العربي، ولعل في كل ذلك ما يفسر سعي ترامب لاستغلال هذه الفرصة وتغيير معنى ومبنى القضية الفلسطينية، والصراع العربي . الإسرائيلي، وهذا هو معنى تسريبات الصفقة، التي تتحدث عن حدود مفتوحة، وعن سلام اقتصادي، وسلام يتأسس على التعاون المتبادل والتنمية وتحسين مستوى حياة سكان المنطقة، وضمنهم الفلسطينيين، في مقابل تعزيز الجهد الأمريكي بشأن تحجيم النفوذ الإيراني في المشرق والخليج العربيين، وهو الأمر الذي باتت تشتغل عليه الإدارة الأمريكية.

أفق جديد وتعقيدات جديدة

مع كل تلك المعطيات التي تفيد بصعوبة الوضع الفلسطيني، وحراجة موقف القيادة الفلسطينية، وهي قيادة المنظمة والسلطة و" فتح"، فإن تلك القيادة أصرت على رفض أي تعاط مع ما يسمى "صفقة القرن"، منذ البداية، بل إنها تعهّدت بمقاومة تلك الصفقة، وإفشالها، بالتعاون مع الأطراف العرب، الذين دعتهم لتشكيل نوع من شبكة أمان سياسية ومالية للسلطة لتدعيم موقفها المذكور، وتعزيز مكانتها في تحديها السياسة الأمريكية بشكل علني وبطريقة ساخنة، كرد على الإجراءات التي باتت تنتهجها إدارة ترامب.

ومعلوم أن القيادة الفلسطينية جمّدت علاقاتها بشكل كامل، تقريبا، مع إدارة ترامب، التي تسبّبت سياستها بتوجيه عدة ضربات موجعة وخطيرة للقضية الفلسطينية، والتي تتمثل، كما ذكرنا، باعترافها بالقدس عاصمة موحدة لإسرائيل، ومحاولاتها تصفية قضية

اللاجئين، ووقفها تمويل مشاريع اقتصادية للسلطة، ناهيك عن إطاحتها بفكرة الدولة الفلسطينية المستقلة، وإغلاقها مكتب منظمة التحرير الفلسطينية في واشنطن، التي كانت وقعت معها اتفاق أوسلو في البيت الأبيض (1993).

لكن السؤال الأساس هنا، هو: هل يمكن لتلك القيادة مواجهة "صفقة القرن"، أي مواجهة السياسات الأمريكية والإسرائيلية وفقا للظروف أو المعطيات الذاتية والمحيطة التي ذكرناها؟ وإذا كان ذلك مطلوبا فكيف يمكن أن يحصل ذلك وبماذا أي بأية أدوات أو سياسات أو خيارات؟ وطبعا فهذه أسئلة كبيرة وصعبة، لكن الأمر يتطلب حثّ التفكير، وتفحّص الواقع إن لم يكن للعمل لإسقاط تلك الخطة حقا، فعلى الأقل لتفويت استهدافاتها أو التقليل من مخاطرها. وبديهي أننا نتحدث هنا ليس عن إنشاءات عاطفية أو شعاراتية، وإنما عن خطوات عملية.

وفي الحقيقة فإن الفلسطينيين في هذه المرحلة يجدون أنفسهم في قلب إجماع وطني جديد يتمثل برفض كل كياناتهم (المنظمة والسلطة والفصائل) لصفقة القرن، أي أن ثمة أرضية سياسية مثلى لإنهاء الانقسام واستعادة الوحدة، وتحدي الإملاءات الأمريكية . والإسرائيلية، وهو أمر تؤكده مواقف قيادة المنظمة والسلطة وفتح، كما تؤكده مواقف حركة حماس، وهي السلطة في غزة .

وفي الغضون فقد شهدنا بأن القيادة الفلسطينية اتخذت قرارات مهمة أعلنها الرئيس محمود عباس، تقضي بمواجهة صفقة القرن، والتحلل من اتفاق أوسلو، بما في ذلك إنهاء علاقات التنسيق الأمني مع إسرائيل، وفك الارتباط بالاقتصاد الإسرائيلي (وفقا لملحق أوسلو الاقتصادي)، ومراجعة أو سحب الاعتراف الفلسطيني بإسرائيل، فضلا عن موقفها السابق برفض استلام حصتها من أموال "المقاصة"، كردة فعل على اقتطاع إسرائيل لمبالغ كبيرة منها، لحرمان ذوي الشهداء والجرحى الفلسطينيين من مخصصاتهم، وهي القضية التي أثرت على موارد السلطة، وعلى قدرتها على الإيفاء بالتزاماتها إزاء موظفيها.

بيد أن توفّر الأرضية السياسية لإنهاء الانقسام، والتحدّيات المشتركة في مواجهة الترتيبات الأمريكية . الإسرائيلية، وفقا للتسريبات المتعلقة بصفقة القرن، لم تستطع خلق الإرادة السياسية اللازمة للخروج من إسار الانقسام والاختلاف الفلسطينيين، الحاصل أساسا بين الحركتين الكبيرتين، أي بين فتح وحماس، أو بين سلطتي الضفة وغزة، ويمكن إحالة ذلك لسبب أساسي يتمثل بتحول الحركة الوطنية الفلسطينية إلى سلطة تحت الاحتلال، أو قبل زوال الاحتلال، سيما أنها سلطة على السكان وليس على الأرض، سلطة لجزء من شعب، في جزء من أرض مع جزء من الحقوق. والمشكلة أن هذه السلطة، سواء في الضفة أو غزة لم تنجح في بناء كيان سياسي يعبر عن الشعب الفلسطيني، كما كانت منظمة التحرير، أو يكفل تنمية إمكانياته وكياناته وموارده، لانشغالها أساسا في تعزيز وضعها أو ترسيخ مكانتها كسلطة، ويكفي هنا الحديث عن أن موارد الأجهزة الأمنية في الضفة تشكل ثلث ميزانية السلطة، وهي تساوي موازنة التعليم والثقافة، مع 40 من العاملين في السلطة، أما في غزة فنحن نعرف قصة الـ 40 ألف الذين تصرّ حماس على إدخالهم إلى كشوفات رواتب السلطة، كشرط لإتمام عملية الوحدة، بين شروط أخرى لها .

الفكرة هنا هو أن التصرف كسلطة يختلف عن التصرف وفقا لحاجات وأولويات التحرر الوطني، إذ لا يمكن لأية سلطة أن تتخلى عن مكانتها أو عن عناصر القوة التي تمتلكها، وهذا ما يفسر أن حماس تطالب بتكريس قواها الأمنية وشرعنتها، وتطالب بتغطية رواتبها، رغم معارضتها اتفاق أوسلو، ورغم معرفتها أن تلك الموارد تأتي من الدول المانحة، أي من أمريكا وأوروبا وكندا وأستراليا ودول الخليج العربي لدعم الانخراط الفلسطيني في عملية التسوية، وليس لدعم المقاومة. كما يفسر ذلك تغول الأجهزة الأمنية في الضفة التي بات همها حماية مكانة السلطة، وتعزيز نفوذها، أكثر من حماية الشعب الفلسطيني من الاعتداءات أو الاقتحامات الإسرائيلية للمدن الفلسطينية. وكل ذلك في واقع باتت فيه السلطة تتعايش مع الاحتلال غصبا عنها، وفي واقع باتت فيه السلطة للاحتلال، أي لإسرائيل، على ما صرح الرئيس محمود عباس أكثر من مرة، وهو الأمر

الذي خلق ما بات يعرف بالاحتلال المربح والمريح لإسرائيل، إذ السلطة تسيطر على شعبها، إلى درجة بات يمكننا فيها الاستنتاج بأن الفلسطينيين في الضفة والقطاع كانوا أكثر قوة ووحدة وتحررا وعنفوانا في مواجهتهم لإسرائيل قبل إقامة السلطة، عنهم بعد قيامها.

اللافت، أيضا، أنه بدل أن تشكل مواجهة السياسات الأمريكية والإسرائيلية فرصة أو دافعا لاستعادة الوحدة بين الفلسطينيين إذا بها تصبح مناسبة لتعميق الاختلاف والانقسام، إذ كل طرف يتهم الآخر بأنه يتساوق مع صفقة القرن، وأنه يشتغل على تأبيد الانقسام، كي يحصد المكاسب منها، سيما مع المشاريع المطروحة لتنمية غزة، وإنشاء منطقة صناعية في سيناء، وميناء في البحر، وهكذا، وهي المشاريع التي أثارت مخاوف السلطة في الضفة من إمكان استدراج حماس للتساوق مع ما يطرح، لترسيخ وجودها، في حين أن حماس ليست بحاجة لمبررات لإثارة الشبهات بشأن السلطة، التي كانت وقعت على اتفاق أوسلو، والتزمت التنسيق الأمني والتبعية الاقتصادية إزاء إسرائيل، ناهيك عن اعتراضها على المقاومة، وهكذا.

مواجهة التحدي

في هذا الإطار، وفي الظروف الصعبة التي ذكرناها، يمكن اقتراح خيارات سياسية تتمثل في الآتي:

أولاً: لابد بداية من إعادة الاعتبار لفكرة أو لقيم حركة التحرر الوطني، بدلا من إعطاء الأولوية للسلطة، أي التركيز على أولوية استعادة الحقوق الوطنية للشعب الفلسطيني، وأولوية مواجهة مختلف التحديات التي يفرضها الوجود الإسرائيلي على الفلسطينيين، فهذا هو الأساس القيمي والسياسي والأخلاقي لإنهاء الانقسام واستعادة الوحدة واستعادة الإجماعات الوطنية الفلسطينية.

ثانيا: مقابل تفكيك القضية والشعب، ينبغي التمسّك بوحدة الشعب والقضية والرواية، وبناء الرؤى السياسية والخيارات والإطارات بناء على هذا المفهوم، وذلك ما ينبغي تعزيز الاشتغال عليه، وضمن ذلك إعادة بناء منظمة التحرير الفلسطينية كي تصبح ممثلاً لكل الفلسطينيين، في أماكن وجودهم، مع مراعاة خصوصية كل تجمع، على أسس وطنية وكفاحية وديموقراطية وعلى قاعدة الانتخابات، حيث أمكن ذلك، للخروج من إسار التنافسات الفصائلية المضرة، وأيضا لتعزيز مكانة الشعب في تقرير مصيره، بعيدا عن حسابات هذا الفصيل أو ذاك.

ثالثا: مقابل محاولة إسرائيل مصارعة الفلسطينيين حتى على جزء من الأرض (في الضفة مثلاً)، في جزء من الحقوق، يفترض بالحركة الوطنية الفلسطينية صوغ رؤى وطنية تتأسس على استعادة التطابق بين شعب فلسطين وقضية فلسطين وأرضها، والتصارع مع إسرائيل على كل الحقوق، الفردية والوطنية، واعتبار أن أي حل لأي قضية أو لأي جزء من الشعب ليس بديلاً عن حل شامل يتأسس على الحقيقة والعدالة (ولو النسبية)، وعلى قيم الحرية والمواطنة والمساواة وتقرير المصير لكل الفلسطينيين.

رابعا: تأكيد أن العملية الوطنية الفلسطينية لها وجهان، الأول، مقاومة سياسات إسرائيل الاستعمارية والاستيطانية والعنصرية. والثاني، يتمثل بتمكين شعب فلسطين من بناء مؤسساته السياسية والاقتصادية والاجتماعية، وترسيخ وتطوير إجماعاته الوطنية، وتنمية موارده البشرية، وتعزيز صموده في الداخل، وتعزيز مكانته في كافة أماكن وجوده.

خامسا: اعتماد الأشكال النضالية التي تساهم في تعزيز صمود الفلسطينيين في الداخل، في فلسطين التاريخية (48 – الضفة – غزة)، وفي الأساس منها المقاومة الشعبية، ومختلف الأشكال المشروعة التي يقرها المجتمع الدولي لمقاومة الاحتلال. ويجدر لفت الانتباه هنا إلى أن إسرائيل تتمتع بحماية دولية، ناهيك بتفوقها العسكري، وأنه ليس مسموحا للفلسطينيين، بخاصة في هذه الظروف

العربية والدولية غير المواتية، استثمار تضحياتهم ونضالاتهم. وتأسيسا على ذلك فإن الأجدى للفلسطينيين استثمار طاقاتهم، في هذه الظروف، في تعزيز وجودهم، لا التسهيل لإسرائيل زعزعة وجودهم، بشن الاعتداءات عليهم بين فترة وأخرى، أو اجتياح مناطقهم، كما حصل في اجتياح لبنان (1982) واجتياح الضفة في عمليتي السور الواقي والطريق الحازم (2002 – 2003)، والحروب الثلاث على غزة، مع ملاحظة عدم التسرع والمبالغة في تحميل فلسطينيي غزة أكثر مما يحتملون، إذ يجب إدراك أن إسرائيل تتوخّى خنق غزة، على المدى الطويل، ولنتخيل بقاء المعادلة التي تعيشها غزة تحت الحصار والقصف والاعتداءات، لعشرة أعوام أخرى.

خاتمة

قصارى القول، نحن اليوم إزاء خطّة لا تغيّر من الواقع السياسي في المنطقة، لكنها في المقابل تدّعي تقديم وعود اقتصادية كبيرة، وضمن ذلك للفلسطينيين، في وضع بات فيه النظام العربي أقلّ قدرة على التأثير في أحواله، بالقياس إلى الفاعلين الخارجيين، خاصة الولايات المتحدة. لذا فالفكرة هنا أنه إذا كان الفلسطينيون لا يستطيعون شيئا كبيرا في الظروف العربية والدولية الحالية، القاهرة والمختلّة والمعقدة، ولا سيما في ظروف انهيار المشرق العربي، إلا أنهم مع ذلك يستطيعون تقليل الأكلاف والمخاطر التي يمكن أن تنجم عما يسمى خطة "صفقة القرن"، بيد أن ذلك يتوقف على حسن إدراكهم لهذا الواقع، وطريقة تدبرهم لإعادة بناء أوضاعهم، وإنهاء حال الانقسام والاختلاف في أحوالهم، فهذا أقل ما يمكن أو ما يجب عمله؛ في انتظار ظروف مواتية أكثر لتطوير كفاحهم واستعادة حقوقهم.

تركيا: علاقات قلقة مع الحلفاء
وتحركات ملتبسة في أزمات المنطقة

د. محمـــد نورالـــدين

مدير مركز الدراسات الإستراتيجية - بيروت

ربما تكون تركيا الدولة المسلمة الوحيدة منذ نهايات السلطنة العثمانية وحتى اليوم، التي مرت بتحولات اجتماعية وفكرية وسياسية متناقضة الواحدة مع الأخرى إلى درجة التصادم العنيف في ما بينها في غالب الأحيان.

وينسحب هذا التوصيف على السياسات الداخلية كما الخارجية، ولعل الواحد منها متصلا بالآخر وينعكس تلقائيا عليه.

فمن تحولات الهوية من إسلامية–عثمانية، ثم علمانية – قومية، ثم محاولات محاكاة النموذج الأوروبي، إلى تقلبات في السياسات الخارجية من معاداة أوروبا، فالاندماج بها مع حلف شمال الأطلسي ومسار الانضمام إليها، ثم التمرد على الغرب بشقيه الأمني والحضاري في بعض المنعطفات.

لقد مر التموضع الاستراتيجي لتركيا في محيطيها الإقليمي والدولي بتقلبات متعددة. ورغم العديد من المحطات الحادة في المئة سنة الأخيرة فإن التساؤلات عما سيكون عليه التموضع التركي، علت في السنوات الأخيرة مع الخلاف التركي– الأميركي حول القضية الكردية والتنسيق التركي مع روسيا وإيران بشأن سوريا، وبلغت ذروة التساؤلات في الأشهر الأخيرة مع إبرام تركيا صفقة صواريخ أس 400 مع روسيا بل وصول الدفعات الأولى منها فعليا إلى تركيا.

لا شك أن سمة القلق كانت إحدى أبرز صفات التاريخ التركي في صراع قوى التقليد مع قوى التجديد. ومع الخارج تعددت بؤر التوتر والحروب مع معظم دول وقوى الجوار الجغرافي لتركيا، من روسيا إلى اليونان وقبرص والعراق وسوريا، فضلا الخلافات المتقطعة مع الولايات المتحدة وغالبية دول الاتحاد الأوروبي.

لقد فرضت الجغرافيا السياسية لتركيا بين الغرب والشرق وبين أوروبا وآسيا وبين روسيا والجنوب الإسلامي تحديات جمّة أمامها بحيث لم يكن من السهولة أمام نخبها المتعاقبة على السلطة إظهار سياسات مستقرة وثابتة لا مع من يفترض أن يكونوا "حلفاء" أو مع من يفترض أن يكونوا "أعداء" أو مصدر تهديد معلن أو كامن.

التغيير الذي حصل في العام 2002 مع وصول حزب العدالة والتنمية إلى السلطة كان عاملا مهما في أخذ السياسات التركية في الداخل والخارج إلى مساحات غير مسبوقة.

على الرغم من الصراعات الداخلية، كانت العلمانية والنزعة القومية هي السقف الذي لا يجرؤ أحد من القوى السياسية على تخطيه. وقد أظهرت الأحزاب ذات النزعة الإسلامية انسجاما والتزاما بهذه السقوف أثناء مشاركتها في الحكومات خلال السبعينيات والتسعينيات وفي تجارب البلديات.

لكن مع حزب العدالة والتنمية ذي التوجه الإسلامي، كانت أولى محاولات تغيير بنية النظام بطريقة أو بأخرى عبر تقليص البعد العلماني من الدولة وتوسيع مساحة الأبعاد الإسلامية على مختلف الأصعدة.

أما في الخارج، فإن النزعة القومية الجامعة بين مختلف الأحزاب التركية، فقد اتسمت سياسات حزب العدالة والتنمية بإظهار توجه نحو استعادة النزعة العثمانية في ما عرف بـ "العثمانية الجديدة". وقد عمل عليها الحزب بصورة جدية وفعلية. وهذه كانت إحدى أهم أسباب توتر العلاقات بين تركيا ودول المنطقة العربية وإيران ودول أخرى.

كذلك فإن الرافد الإيديولوجي للإخوان المسلمين من المحددات الرئيسية للسياسات التركية الجديدة، وقد أطاح حتى بالحد الأدنى من العلاقات التركية الجيدة مع معظم دول المنطقة. فتوترت العلاقات مع إيران الشيعية وانفجرت الخلافات داخل الكتلة الإسلامية السنية نفسها. وكان الصراع التركي مع مصر ومع السعودية والإمارات في أكثر من ساحة نموذجا لهذا الخلاف.

أما مع سوريا فقد اجتمعت الخاصيتان العثمانية والإخوانية في تفجير الصراع التركي معها حيث تطلعت أنقرة لتحقيق حلم تاريخي وهو استعادة شمال سوريا الذي كان ضمن حدود الميثاق الملي التركي لعام 1920، فكان احتلال المنطقة من جرابلس إلى عفرين فإدلب والتهديد بالهجوم على منطقة شمال شرق الفرات حيث "قوات حماية الشعب الكردية" أو إيجاد موطئ قدم فيها من خلال العمل على إقامة "منطقة آمنة" بالتعاون مع الولايات المتحدة الأميركية."

عرفت السياسة الخارجية التركية مؤخرا حركة نشطة جدا تعكس تطلعات حزب العدالة والتنمية لتوسيع الحضور التركي في أكثر من دولة وتؤكد أن هذا المشروع رغم تعرضه لنكسات كثيرة في سوريا ومصر وتونس والخليج وليبيا، لا يزال يجاهد لتعويم نفسه بطريقة أو بأخرى.

وفي هذا الإطار يعمل حزب العدالة والتنمية على استغلال واستثمار كل الفرص الممكنة غربا وشرقا من أجل تحقيق "إنجازات" يراكم عليها ليكون لاعبا مؤثرا في المنطقة.

1- **صواريخ أس** 400

وصف الرئيس التركي رجب طيب أردوغان صفقة صواريخ أس 400 مع روسيا بأنها الأهم في تاريخ تركيا الحديث.

الصفقة التركية – الروسية حول الصواريخ، والتي بدأت المفاوضات حولها منذ ثلاث سنوات، كانت متوازنة على قاعدة "ربح – ربح". رهان روسي على إبعاد تركيا عن حلف شمال الأطلسي من جهة، وأمل تركي في استعادة زخم دور، وأطماع، في الساحة السورية تحديدا فضلا عن ابتزاز أنقرة الولايات المتحدة. ورغم التهديدات الأميركية فقد مضت الصفقة بل برّرها الرئيس الأميركي دونالد ترامب بنفسه من أوساكا في اليابان في مطلع حزيران/يونيو 2019، بالقول إن الرئيس الأميركي السابق باراك أوباما هو المسؤول عن الصفقة كونه لم يبع تركيا منظومة صواريخ باتريوت، متراجعا، ترامب، عن كلامه بتهديد تركيا بعقوبات اقتصادية في حال مضت في الصفقة.

وحّدت صفقة الصواريخ الروسية الرأي العام التركي وقد دافع عنها زعيم حزب الشعب الجمهوري المعارض كمال كيليتشدار أوغلو، فيما وصفتها الصحافة التركية بأنها "خطوة على طريق الاستقلال والمستقبل" و"رسالة مهمة إلى الغرب في ذكرى المحاولة الانقلابية في 15 تموز/آب 2016" و"هزيمة" للولايات المتحدة والاتحاد الأوروبي.

لكن هذا لم يحجب تساؤلات حول المزيد من ارتهان تركيا لروسيا في السياسة الخارجية والدعوة حتى من أوساط داخل حزب العدالة والتنمية لاتباع سياسات أكثر توازنا بين الغرب والشرق. أما عن المواقع التي ستنشر فيها الصواريخ فقد رجّح الخبراء الأمنيون أن تكون في أضنه وأزمير أي بمواجهة التهديدات في شرق المتوسط ومن اليونان كما من التحالف الضمني بين دول في شرق المتوسط في مجال الطاقة استبعدت عنه تركيا. وهو ما أثار "قلق" حلف شمال الأطلسي الذي، مع ذلك، من المستبعد قيامه بخطوات سلبية ضد تركيا نظرا لحاجته الماسة لدورها في الحلف، فيما ربط رئيس دائرة الاستخبارات السابق في الجيش التركي الجنرال إسماعيل حقي بكين بين استقدام الصواريخ واحتمال تعرض تركيا لهجوم يوناني – إسرائيلي. كذلك رأى أنه "إذا كانت إيران اليوم ليست عدوة فمن يضمن غدا ما سيكون عليه موقفها من تركيا. كذلك فإن الصواريخ يمكن أن تأتي من جهة أرمينيا. وتركيا كانت تفتقد لمنظومات دفاع متطورة.

فالطائرات الإسرائيلية يمكن أن تقلع من تل أبيب ومن دون انتهاك الحدود التركية يمكن أن تطلق صواريخها من على بعد 150–160 كيلومترا حيث لا يمكن لسلاح الجو التركي أن يعترض تلك الطائرات."

واستبعد بكين أي احتمال لصدام تركي – أميركي فكلاهما ليست عنده هذه النية لذلك. وقال إن شراء أس 400 لا يستهدف الحرب مع أي دولة بل الدفاع عن المصالح القومية لتركيا وأن تكون تركيا جاهزة لصد أي اعتداء مفاجئ. وقال إن هذه الصواريخ ستزيد من قوة تركيا ولها أهمية استراتيجية بشرط أن تكون جاهزة للاستخدام بعد نشرها.

تثير صفقة أس 400 بالتأكيد قلق واشنطن وتزعجها وهي بادرت إلى إلغاء تدريب الطيارين الأتراك على قيادة طائرات أف 35 على أراضيها. لكن ردود الفعل بقيت في إطار المعقول ولا تؤشر إلى إمكانية حدوث قطيعة بين الطرفين حيث كانت العلاقات تتقدم في ملف آخر هو المنطقة الآمنة في سوريا.

2- المنطقة الآمنة وتطبيع العلاقات مع واشنطن

دخلت سوريا مع دعم الولايات المتحدة لقوات الحماية الكردية في شمال شرق الفرات مرحلة جديدة لجهة نجاح واشنطن في إيجاد منطقة نفوذ لها في سوريا للمرة الأولى في التاريخ السوري الحديث. لكن ذلك اصطدم مع مخاوف تركية من أن يفضي ذلك إلى حالة انفصالية في الشمال السوري تنعكس تلقائيا على وحدة الأراضي التركية نفسها. وهذا كان في أساس بدء الخلاف مع الولايات المتحدة في عهد باراك أوباما ولم يتغير الوضع مع وصول دونالد ترامب إلى البيت الأبيض.

لكن الضغوط التركية المتزايدة وذهاب أنقرة إلى مزيد من التقارب مع روسيا جعل واشنطن تتراجع خطوة في العلاقة مع تركيا من خلال الاتفاق على إقامة "منطقة آمنة" في شمال سوريا بالتشارك مع الجيش التركي، وذلك بتوقيع اتفاقية في السابع من

آب/أغسطس 2019 في أنقرة بعدما كانت واشنطن تعارض بالمطلق منطقة آمنة تشارك فيها تركيا.

في البيانات المنفردة عن وزارة الدفاع التركية والسفارة الأميركية في أنقرة حول اتفاق المنطقة الآمنة عبارات عامة. مثل تبديد المخاوف التركية وتفهم هواجسها، وتسيير دوريات مشتركة تركية–أميركية، وإعادة اللاجئين السوريين ، طبعا جزء منهم، إلى المنطقة الآمنة. وإقامة مقر مشترك لتسيير الدوريات. لم يعلن البيان عن مقر القيادة المشتركة مع ترجيح أن يكون في أنقرة. كما لم تفصح البيانات عن عرض وعمق المنطقة الآمنة. فطول الحدود من جرابلس إلى الحدود العراقية هو 480 كيلومترا. وليس محتملا أن تكون المنطقة على امتداد هذه المسافة بل في مناطق معينة منها، الأرجح أن تكون في كوباني وتل الأبيض ورأس العين. كما لم تشر البيانات إلى عمق المنطقة. فقد كانت تركيا تطالب بعمق 30–40 كيلومترا فيما تقترح الولايات المتحدة 15 كيلومترا. تغييب هذه النقطة عن الاتفاق ربما لترك تحديد العمق وفقا لطبيعة كل منطقة على الحدود على أن تتراوح بين هذين الحدّين.

كذلك من الطبيعي أن يشمل الاتفاق، دون إعلان ذلك، نقطة في غاية الأهمية وهي نزع أو نقل سلاح قوات الحماية الكردية من المنطقة الآمنة وانسحاب المقاتلين الأكراد منها إلى مناطق العمق في شرق الفرات مع بقاء عناصر منهم داخل المدن لحساسية التواصل مع السكان المحليين.

اتفاقية المنطقة الآمنة مهمة جدا في هذه اللحظة من المناوشات الإقليمية والثنائية بين أنقرة وواشنطن وما لم تطرأ مفاجآت تطيح بالاتفاقية فهي:

1- تحقيق لحلم تركي عمره من عمر الأزمة في سوريا. وإذا كانت تركيا ترى سابقا في المنطقة الآمنة وسيلة للضغط على النظام السوري وإسقاطه فإن هدفها اليوم تعزيز دورها في سوريا كلاعب ميداني وسياسي وإضعاف الجانب الكردي والتقدم خطوة نحو الهيمنة على الشريط الحدودي داخل سوريا الذي كان ضمن

حدود الميثاق الملي لعام 1920.وبالتالي تمدد الحضور التركي المباشر من إدلب فعفرين وجرابلس إلى منطقة شمال شرق الفرات.

2- الاتفاقية خطوة متقدمة على طريق تطبيع العلاقات التركية- الأميركية. فللمرة الأولى تتفق الدولتان على خطوة طالما كانت موضع خلاف بينهما، كما أن توقيتها مهم لرأب الصدع ولا سيما بعد صفقة صواريخ أس 400 . ويُظهر الاتفاق أن واشنطن قدمت تنازلا مهما لتركيا بالقبول بدور لها في المنطقة الآمنة، على أمل إعادتها إلى الحضن الأميركي من جديد في إطار الصراع الأميركي مع روسيا وإيران.

3- تقوي الاتفاقية موقع تركيا في الأزمة السورية وتضع بيدها ورقة ضغط مهمة على "حلفائها" الروس والإيرانيين ويوسع هامش المناورة أمامها. وبالتالي ستزيد من تعنت تركيا لتطبيق اتفاقيات سوتشي بشأن إدلب. كما ستُدخل الاتفاقية مسارات الوضع في سوريا في متاهات جديدة.

4- تظهر الاتفاقية أن الولايات المتحدة باتت عاجزة عن التمسك بموقفها في حماية "حلفائها" قوات الحماية الكردية وبات همها الأول هو منع تعرض قوات الحماية الكردية للأذى وإبقاء جسمها العسكري سليما من دون معرفة وجهة استخدام هذه العناصر لاحقا: هل لحماية المناطق المتبقية التي يتواجدون فيها خارج المنطقة الآمنة أم لمهام أخرى؟.

5- وهنا يُطرح السؤال الأساسي عن موقف قوات الحماية الكردية من الاتفاقية. فقد عبّرت القيادات الكردية عن رفضها مشاركة تركيا في الدوريات داخل المنطقة المقترحة وطالبت بقوات دولية أو أوروبية. فهل ستوافق اليوم على الاتفاقية أم تعلن رفضها لها؟. وفي حال تطبيق الاتفاقية ستكون انتصارا كبيرا لتركيا على الأكراد من دون إراقة نقطة دم تركية واحدة. وسيّان هنا بين أن تقوم تركيا بعملية عسكرية أو تدخل المنطقة سلما تحت ستار الدوريات المشتركة مع

انسحاب المقاتلين الأكراد منها. لذا فالموقف الكردي سيكون محرجا جدا في حال قبول الاتفاقية وسيجد صعوبة في تبرير الموافقة عليها أمام جمهوره.

6- وفي اتصال بالموقف الكردي ستكون الاتفاقية حال تطبيقها ضربة قوية لمشروع الإدارة الذاتية في منطقة "روج آفا"(شمال شرق سوريا) من كل النواحي الجغرافية والاجتماعية والسياسية والتي من أجلها كانت تفشل المحادثات بين الأكراد والدولة السورية. فالكلام في الاتفاقية عن عودة اللاجئين السوريين إلى المنطقة الآمنة هو استهداف مباشر لديموغرافية المنطقة من جانب تركيا لصالح فئات من أصول تركمانية أو عربية موالية لتركيا على حساب الوجود الكردي ذي الغالبية في بعض مناطق المنطقة الآمنة.

7- والتساؤل هنا عما إذا كان الأكراد سيعيدون النظر بموقفهم من التعاون مع أميركا وبالتالي يعاودون التواصل مع دمشق وهذا على ما يبدو مستبعد؟ أم سيرضخون للإملاءات الأميركية والتهديد بتركيا ليبقوا إلى جانب واشنطن وبالتالي القبول باتفاقية المنطقة الآمنة مع تحسين شروطها كرديا؟.

8- تبقى دمشق الغائب الأكبر عن معظم الاتفاقيات المتعلقة بسيادتها من اتفاقيات سوتشي وأستانا إلى اتفاق المنطقة الآمنة اليوم. وبطبيعة الحال رفضت دمشق اتفاق أنقرة جملة وتفصيلا وهو ما سيدفعها إلى الضغط أكثر على روسيا لاستعادة إدلب بداية. كما يكشف الاتفاق تضليل أنقرة بأنها مستعدة لتطبيق اتفاق أضنة 1998 لضمان أمن حدودها مع سوريا ويؤكد أن إسقاط النظام السوري ،كما الدولة السورية، لا يزال من الأهداف الرئيسية لسلطة حزب العدالة والتنمية وستدخل الاتفاقية العلاقات التركية – السورية في مزيد من انعدام الثقة والعداوة.

3- "المخلب" التركي

لا تنفصل منطقة شمال العراق عن شمال سوريا لجهة توجه الأنظار والأطماع التركية إليها حيث تعتبرهما أنقرة مجالا حيويا واحدا لتطلعاتها السياسية وتحركاتها العسكرية.

في إطار مواجهة المخاطر الأمنية بدأت القوات التركية في أواخر مايو/أيار 2019 عملية عسكرية واسعة النطاق في شمال العراق في المنطقة الممتدة من الشرق من جبال قنديل إلى حدود منطقة سنجار. وحدد وزير الدفاع خلوصي آقار هدف العملية بأنها تهدف إلى السيطرة على تلك المنطقة وبعمق أكثر من 25 كيلومترا.

ما هو مختلف هذه المرة في العملية عن سابقاتها منذ الثمانينيات أن الجيش التركي كان يقوم بعمليات عسكرية أعمق بكثير من المخطط لها هذه المرة، ولكنه سرعان ما كان يعود أدراجه إلى الداخل التركي بعد إتمام العملية.

أما في عملية "المخلب 1 " و "المخلب 2" فقد أعلنت أنقرة رسميا أنها تريد البقاء في المنطقة وإقامة ثلاث قواعد عسكرية ثابتة فيها. أي أن القوات التركية لن تنسحب هذه المرة ولا أحد يعلم كم ستبقى.

وهذا بالطبع يذكر بالعمليات التركية السابقة في سوريا منذ العام 2016 حيث الأولى كانت "درع الفرات" التي حصلت في صيف تلك السنة ومن ثم عملية "غصن الزيتون" مطلع العام 2018 والتي احتلت القوات التركية في إثرهما المنطقة الحدودية داخل سوريا من جرابلس وأعزاز وصولا إلى عفرين وبعمق يصل إلى مدينة الباب وأبواب حلب، ولا تزال حتى الآن. وتركيا تحتل مباشرة بهيئة نقاط مراقبة محافظة إدلب وتدير تحركات المسلحين أو معظمهم هناك ويقدرون بعشرات الآلاف وليس لهم من أي منفذ سوى الحدود البرية مع تركيا.

العملية العسكرية التركية في شمال العراق اتخذت اسم "المخلب". ومع أن أنقرة أعلنت رسميا عنها وعن النية في إقامة قواعد عسكرية ثابتة ودائمة لها هناك غير أن حكومة بغداد أو أي مسؤول عراقي رفيع المستوى لم يخرج بأي تصريح يوضح موقف الحكومة من العملية وما إذا كانت بالتنسيق مع بغداد أم أنها محطة أخرى من انتهاك تركيا للسيادة العراقية من دون أي رد فعل عراقي يرقى إلى مستوى التحديات. والجميع يتذكر تلك الملاسنة الشهيرة والإهانة التي وجهها الرئيس التركي رجب طيب أردوغان ،وكان لا يزال رئيسا للحكومة، إلى رئيس الوزراء العراقي السابق حيدر العبادي بخصوص تواجد القوات التركية في منطقة بعشيقة ونقاط عسكرية أخرى في شمال العراق. ورغم الفورة العراقية إلا أنها بقيت في حدود الاحتجاج اللفظي ولا تزال القوات التركية في بعشيقة ومناطق أخرى في العراق يقدرها البعض بأكثر من عشرين نقطة ومركزا عسكريا.

اليوم يتكرر السيناريو نفسه مع عملية "المخلب" وهي عملية تهدف إلى نهش أجزاء من جسم حزب العمال الكردستاني لكنها عمليا تنهش أكثر من جسم السيادة العراقية. ولا يقتصر السكوت على العملية على بغداد بل كذلك على إدارة إقليم كردستان.

النقطة الأخرى من العملية هي عما إذا كانت مقدمة لعملية أخرى تستهدف التوسع إلى شرق المنطقة أي مهاجمة جبال قنديل نفسها حيث قيادة حزب العمال الكردستاني، أو غربا إلى منطقة سنجار حيث تمركز الحزب منذ غزوة "داعش" لها وصدّه لها.

رغم كل الأهداف المعلنة والواضحة لكن لا يمكن أن نضع العملية خارج الرغبة التركية المزمنة في احتلال الشريط الحدودي داخل العراق وسوريا في سياق استعادة خريطة حدود "الميثاق الملي" لعام 1920 الذي كان يشمل شمال سوريا والعراق مستفيدة من الوقت الضائع في المنطقة، أي من تفاهماتها مع روسيا في ما يتعلق بسوريا ومن ضعف وتفكك القرار المركزي لبغداد وتواطؤ إدارة إقليم كردستان مع أنقرة ضد حزب العمال الكردستاني.

4- ما الذي تفعله تركيا في ليبيا؟

بعد عقود من الحياد وعدم التدخل في الشؤون الداخلية للدول العربية والتعامل من منطلق الند للند والدولة للدولة، تحولت تركيا مع سلطة حزب العدالة والتنمية إلى طرف في النزاعات الداخلية للدول الأخرى. وقد بررت تدخلها الفاضح في سوريا منذ العام 2011 على أنها دولة مجاورة وتؤثر الأحداث فيها على أمنها القومي واستقرارها الداخلي، فأقامت معسكرات استقبال اللاجئين السوريين من قبل أن تطلق رصاصة واحدة. وفي كل زيارات رجب طيب أردوغان وأحمد داود أوغلو إلى دمشق كان إشراك عناصر من الإخوان المسلمين في الحكومة السورية مطلبا تركيا ثابتا.

ومن بعدها كان السلوك التركي غير خاف على أحد في تسليح المعارضة وتدريبها وإرسال شاحنات الأسلحة يوميا إلى الأراضي السورية وصولا إلى احتلال المنطقة من جرابلس إلى إدلب.

وإذا كانت تركيا تبرر تدخلها في سوريا كما في العراق بالجوار الجغرافي، فإن المشهد في مصر وليبيا شكل فضيحة كاملة للدور التركي في المنطقة العربية. وإذا كانت مصر قد طوت صفحة التدخل التركي في شؤونها الداخلية بثورة 30 يونيو، فإن التدخل التركي في ليبيا كان واضحا وسافرا وعسكريا منذ اللحظة الأولى للحراك ضد العقيد معمر القذافي. أرسلت تركيا قوات وسفنا وطائرات ومساعدات لطرف دون غيره وهي البعيدة عن حدودها آلاف الكيلومترات ولا علاقة لها بها لا أمنيا ولا إثنيا ولا جغرافيا. لذلك كان مثيرا أن تعلن تركيا بعد تقدم قوات خليفة حفتر لمحاصرة مدينة طرابلس في مطلع صيف 2019 أنها سترد في حال قررت قوات حفتر التعرض لأي من طائراتها وسفنها بدلا من أن تترك ليبيا لأبنائها الذين هم يقررون ما يفعلون بها.

***

لا تقتصر تطلعات تركيا على مناطق دون غيرها. لكن ما بين سياسات تركيا الخارجية في الحقبات التي سبقت حقبة حزب العدالة والتنمية وما بعدها، هو بالضبط

الفارق ما بين سياسات الدول وسياسات الأحزاب. وتركيا في عهد حزب العدالة والتنمية لم تكن لكل أبنائها بل لفئة حزبية إيديولوجية محددة أوقعتها في رهانات خاطئة وأدخلتها في مشكلات مع الجميع، أصدقاء وحلفاء وأعداء ومنافسين، وعرّضت للمخاطر كل الساحات حيثما حاولت أن تتواجد. وما لم تعد تركيا إلى سياسة التعاطي مع الآخرين من منطلق دولة مقابل دولة وبعيدا عن الإيديولوجيات الحزبية، فستبقى مصدر تهديد وعدم استقرار في المنطقة.

الانتفاضات العربية
بين التحيز العرقي والقبلي والتنافس على السلطة

د. طلال عتريســي

أستاذ علم الاجتماع، الجامعة اللبنانية - بيروت

عندما اندلعت الاحتجاجات الشعبية العربية وانتقلت من بلد إلى آخر، اختلف الناس والمحللون في تسميتها، بين ثورة، وربيع، وانقلاب، وانتفاضة، وصحوة ...وذهب البعض إلى التشاؤم بإطلاق "خريف" و"شتاء" على تلك الاحتجاجات عندما يذكر اسمها.

لم يكن مثل هذا الاختلاف حول التسمية مصادفة أو غير ذي أهمية، لأن هذه الاحتجاجات كانت بلا قيادة، وكانت بلا برامج سياسية واضحة سوى" الشعب يريد إسقاط النظام"، أو يريد "تنحي الرئيس"، أو "حريات وديمقراطية"... وكانت المشاركة في هذه الاحتجاجات من مختلف أطياف المجتمع، بحيث لم يتمكن أي طرف أو أي جهة حزبية، أو سياسية، من الادعاء بأنها هي من صنعت هذا التحول ، أو بأنها هي من أسقط الرئيس. ولهذا السبب عندما انتقلت هذه القوى إلى مرحلة بناء السلطة الجديدة وقعت في الاختلاف حول حجم ما ستحصل عليه من مواقع ونفوذ، ووقعت في الاختلاف حول هوية النظام الجديد، وحول مصادر التشريع في هذا النظام، وحول علاقاته الإقليمية والدولية. وذلك كله يعود إلى غياب القوة الكبيرة والمؤثرة التي قادت هذا التغيير وانتقلت به إلى المرحلة الجديدة .

ساهمت طريقة التغيير التي حصلت فيها عملية الانتقال إلى الوضع الجديد في هذا الالتباس في توصيف تلك الاحتجاجات وما جرى بعدها. فلم يكن واضحا على سبيل المثال إلى أي حد لعبت القوى العسكرية دورًا في تنحية الرئيس بعدما بلغت الاحتجاجات

في الشارع حدا غير مسبوق في كل من تونس ومصر. في حين كان الأمر أكثر وضوحا في السودان،" فبعد منتصف ليل الحادي عشر من نيسان/ أبريل نسقت قيادة القوى الأربعة: القوات المسلحة، والأمن والمخابرات، والدعم السريع، وقوات الشرطة مواقفها وقررت تنحية الرئيس السوداني عن السلطة وإبلاغه بأن السلطة انتقلت لمجلس عسكري انتقالي"[1]. وكذلك لم يكن محسوما نجاح الاحتجاجات في ليبيا لولا التدخل الخارجي العسكري الذي أطاح بالرئيس الليبي معمر القذافي بعد تعمد قتله بالقصف المباشر من إحدى طائرات الأطلسي. ولم يكن مؤكدا اندلاع "الثورة" في سوريا لولا التدخل الخارجي نفسه الذي جعل من سوريا ساحة مفتوحة لجذب "التطرف الإسلامي" من شتى أنحاء العالم، و بؤرة صراع إقليمي ودولي، غابت معه الأبعاد الداخلية للأزمة السورية.

هكذا ترافقت الاحتجاجات أثناء حصولها، مع حالة من الالتباس حملتها قوى التغيير معها إلى المرحلة التي أعقبت "سقوط الرئيس ."

وها هو السودان يكاد يكرر اليوم تجربة تلك الاحتجاجات، وما نجم عنها من مشكلات واضطرابات سياسية وأمنية واجتماعية. فالخلاف بين المجلس العسكري وبين "قوى الحرية والتغيير" المدنية،، يؤكد هذا الالتباس الذي أشرنا إليه في مرحلة ما بعد "سقوط الرئيس". فالقوى المدنية السودانية هي مجموعة من المنظمات والأحزاب والنقابات والمهنيين، أصرت أن تكون هي صاحبة السلطة، قبل أن تنتقل إلى الموافقة على الشراكة مع القيادات العسكرية التي تعتبر نفسها هي من أطاح بالبشير وليس الحراك المدني. وبعد مرور بضعة أشهر على تنحية البشير، استمر الخلاف قائما بين "قوى الحرية والتغيير" التي تتكون من 17 حزبا معارضا وبين المجلس العسكري، حول المدة الزمنية

(1) أسامة الأشقر، الثورة السودانية الخلفيات والتداعيات، مركز الزيتونة للدراسات والاستشارات، بيروت، نيسان/أبريل 2019 ص 6

للفترة الانتقالية، وحول الإعلان الدستوري، والميثاق السياسي للمرحلة المقبلة، وحول نسبة مشاركة كل طرف في الهيئات الانتقالية، وكيفية اختيار رئيس الوزراء، وحول طبيعة الجمهورية هل تكون رئاسية أم لا[2]. وعندما توصل الطرفان إلى اتفاق "أعلنت أحزاب وتنظيمات في "قوى الحرية والتغيير" رفضها للاتفاق السياسي الموقع بين المجلس العسكري وبعض أطراف التحالف المعارض .

يعكس ما سبق من مواقف متناقضة تجاه الاتفاق مع المجلس العسكري ما أشرنا إليه من غياب التفاهم بين القوى المختلفة في الحركة الاحتجاجية حول المرحلة الانتقالية التي ستمتد نحو 40 شهرا. ما يثير المخاوف من وقوع السودان في ما شهدته دول أخرى من عدم استقرار، ومن انقسامات سياسية ومجتمعية، خاصة بين قوى الاحتجاج نفسها. ومن غير المعلوم، في ظل هذا التنافس المحموم على السلطة، كيف سيتم الانتقال الهادئ والآمن إلى مرحلة بناء السلطة الجديدة التي لم يحصل التوافق بين الأطراف السودانية على دستورها، وعلى أنظمتها وقوانينها الاقتصادية والاجتماعية، خاصة بعد إعلان المجلس العسكري إحباط "محاولة انقلابية" خامسة في البلاد، وأن مدبّر تلك المحاولة هو صاحب أعلى رتبة عسكرية في الجيش[3]. وعلى الرغم من "الإعلان الدستوري" الذي تم التوقيع عليه في 2019/8/4 ، ثم إعلان "الوثيقة الدستورية" في 2019/8/17 لا تزال المخاوف قائمة من كيفية إدارة مشكلات البلاد المعقدة في هذه المرحلة الانتقالية بين القوى المدنية والعسكرية.

وما يجري في تونس، وهي التجربة الأولى في تلك الاحتجاجات، من خلاف حول طبيعة النظام السياسي، وحول الدستور، وحول نفوذ "النهضة" وحزب "نداء تونس" والأحزاب الأخرى القومية، والليبرالية، والمدنية والنقابية، يفسر بدوره لماذا لم تصل تونس

(2) جريدة الأخبار، بيروت/2019/7/15

(3) جريدة الأخبار، بيروت 2019/7/26

إلى بر الأمان والوضوح السياسي والاجتماعي بعد مضي أكثر من ثمان سنوات على انتقالها إلى مرحلة بناء السلطة الجديدة .

لقد بلغ عدد الأحزاب التي تم الترخيص لها بعد الثورة في تونس أكثر من مئة حزب من الاتجاهات السياسية كافة الإسلامية وغير الإسلامية. منها على سبيل المثال: حركة الإصلاح والعدالة الاجتماعية، حركة البعث بتونس، حركة الجمهورية الثانية، حركة شباب تونس الأحرار، حركة الشعب، حركة النهضة، حركة الوحدة الشعبية، حركة الوحدويين الأحرار، الحركة الوحدوية الديمقراطية، الحركة الوطنية للعدالة والتنمية، الحرية من أجل العدالة والتنمية، الحرية والتنمية، حزب الأحرار التونسي، الحزب الاشتراكي اليساري، حزب تونس الخضراء، وعشرات الأحزاب الأخرى... حتى أن السلطات التونسية منحت ترخيصا" قانونيا" لتأسيس أول حزب سلفي يحمل اسم "حزب جبهة الإصلاح" ليرتفع بذلك عدد الأحزاب في تونس بعد التغيير إلى أكثر من 118 حزبا"[4].

وعلى الرغم من التفاوت في شعبية هذه الأحزاب وفي قدرتها على الاستمرار وعلى الفوز بمقاعد نيابية أو وزارية، إلا أن هذا التعدد الحزبي يعكس حجم الاختناق الذي كان يعيشه المجتمع التونسي من جهة، ويعكس من جهة ثانية، حجم الخلافات والصراعات السياسية التي ستشهدها تونس بعد سنوات على سقوط نظام بن علي. و كانت حركة النهضة تعتقد بأنها ستكون هي صاحبة اليد العليا في الحكم بعد فوز الإخوان بالرئاسة في مصر، قبل أن تغير استراتيجيتها وتقبل بالمشاركة مع قوى سياسية أخرى غير إسلامية في إدارة البلاد. لكن حتى هذه الشراكة لم تؤد إلى حل مشكلات تونس الاقتصادية والاجتماعية والأمنية.

لقد تراجع الاستقرار المجتمعي في معظم دول "الربيع العربي"، وقد اختلفت نسبة هذا التراجع بين بلد وآخر، تبعا" لطبيعة المواجهة والصراع بين الأطراف المختلفة في

(4) جريدة الأخبار، بيروت 2012/5/12

هذه الدول. كما تراجعت إلى حد كبير عوامل الوحدة الوطنية ومقومات المواطنة لتحل محلها مشاعر وولاءات المذهب والطائفة والمنطقة والقبيلة والعشيرة. وإذا كان لهذه الانتماءات بعد" طبيعي" في المجتمعات العربية، إلا أن هذه الانتماءات تحولت بعد" الربيع العربي" إلى مخاطر جديّة على وحدة المجتمعات والكيانات العربية. هكذا تحولت العشائر، والقبائل، والمذاهب في كل من ليبيا وسوريا والعراق إلى مشاريع للتنافس وللتصادم في ما بينها من جهة، وإلى أهداف للقوى الإقليمية التي تريد التدخل والتأثير في الصراع الدائر والمعقد في هذه البلدان من جهة ثانية.

كانت العشائر والقبائل والأقليات العرقية بعاداتها وثقافتها وتقاليدها جزءًا طبيعيا من النسيج الاجتماعي العربي عموما"، وفي بلاد الشام خصوصا" . وتمتد صلات وقرابات بعض العشائر بين سوريا والعراق ، كما نجد عشائر أخرى تتشارك في الوقت نفسه المذهبين السني والشيعي . إلا أن التفكك الذي أصاب مجتمعات ما بعد "سقوط الرئيس" وزيادة فرص التدخل الخارجي، فاقم من الصراع على السلطة بين المكونات العرقية والحزبية والعشائرية ، ومن محاولات الاستقواء بالقوى الخارجية في الوقت نفسه .

كانت السياسات التنموية لمعظم السلطات والحكومات قبل الاحتجاجات الشعبية سياسات غير متوازنة، بحيث كانت العاصمة هي التي تحصل عادة على الاهتمام والخدمات كافة، في حين كان نصيب الأرياف والمدن الأخرى الإهمال أو التهميش. وكانت هذه السلطات متشددة في التضييق على الحريات السياسية والإعلامية... وبما أن المجتمعات العربية هي مجتمعات متنوعة دينيا وقبائليا ومذهبيا وعشائريا، فقد تحول التهميش في كثير من الأحيان إلى تهميش عشائري، أو عرقي، أو مذهبي كما كان الحال في ليبيا، أو في العراق على سبيل المثال .

ولا تزال الأديان والمذاهب والأعراق تمثل عناصر أساسية في تكوين الهوية، وهي انتماءات في كثير من الأحيان تكون عابرة للحدود ومخترقة لفضاءات الدول الجغرافية والسياسية مشكلة مع حركة انتقال البشر والأفكار "فضاءات عابرة للجنسية". وهي

انتماءات رأينا كيف وظفت في الحشد للحرب الأهلية السورية، وفي العراق، وقبل ذلك في أفغانستان والشيشان وفي البوسنة والهرسك، وفي مواقع كثيرة من المنطقة العربية والإسلامية. وهي في الواقع فضاءات باتت شاملة للعالم بأسره، ولا يمكن حصرها في منطقتنا العربية دون غيرها.."[5].

عندما سقط النظام العراقي بالتدخل الخارجي بعدما عجزت القوى الداخلية عن تحقيق هذا التغيير، اعتبرت القوى العشائرية والمذهبية وحتى الدينية أن الفرصة باتت سانحة لتحقيق المطالب والحضور القوي والمتوازن الذي افتقدته طوال عقود مع النظام السابق. بحيث سيكون هذا الحضور العشائري والقبلي والمذهبي، والتنافس بين هذه المكونات في المجتمع العراقي السمة الأبرز لما سيواجهه العراق بعد الإطاحة بالنظام السابق . وسيتحول العراق بعد عام 2003 إلى حلبة من التنافس والصراع بين الهويات المذهبية (السنة والشيعة) والقومية (الأكراد) على المصالح والنفوذ وحجم التمثيل في المواقع والمؤسسات السياسية والوزارية والنيابية المختلفة. وصولاً إلى تغيير اسم الدولة العراقية إلى "جمهورية العراق" فقط من دون أي إضافة (عربية أو اشتراكية...) وباتت اللغة الكردية لغة رسمية معتمدة في البلاد إلى جانب اللغة العربية. وباتت كردستان مشروعا انفصاليا يهدد وحدة العراق، وكذلك فعلت "داعش" بعد احتلالها الموصل وإعلان دولة الخلافة المزعومة.

لقد سقط النظام المركزي الذي خنق التعدد المذهبي والعرقي، وتحول العراق إلى ساحة داخلية مفتوحة للصراع بين هذه الهويات، وإلى ساحة خارجية للتدخل تارة لدعم هذه الهويات، وطورا لمنع استعادة العراق دوره الإستراتيجي المركزي في المنطقة.

(5) باقر النجار، الهوية وصراعات الإقليم في الخليج العربي، مجلة المستقبل العربي، عدد484 السنة 42، 2019 ص 125

في ظل هذا المناخ الإقليمي من استعادة الهويات المختلفة بعد حركة الاحتجاجات وبعد سقوط النظام، تحرك أمازيغ تونس لتشكيل حزب سياسي تحت اسم "آكال"، ليكون الحاضنة السياسية للأمازيغية، التي ظهرت كحركة ثقافية ناشطة بعيد الثورة التونسية .

وعلى الرغم من أن عددهم يقدر بنحو 500 ألف، يبحث أمازيغ تونس اليوم الانتقال من الانتماء الثقافي إلى الانضواء في حزب سياسي، بعدما رأى هؤلاء عدم الاكتفاء بالعمل الثقافي، وتنظيم المهرجانات والعمل على صيانة وحماية الآثار الأمازيغية".

وبرأي أحد قيادات هذه الحركة أن "إهمال السلطات التونسية لفئة أصيلة من الشعب التونسي دفعتنا إلى خوض التجربة السياسية، محركها وتصوراتها مبنية على العمق الأمازيغي، وستعمل على تغيير الدستور والقوانين التي كرست التفرقة بين التونسيين على أساس اللغة والدين، وهمشت جزءا مهما من الشعب ومواطنين لهم حقوق وواجبات في هذا البلد"[6].

ومن المعلوم أن الأمازيغ لا يتواجدون في تونس فقط، بل لهم امتدادهم في كل من المغرب والجزائر، كما أن هذه الحركة تحظى منذ سنوات باهتمام ثقافي ولغوي، وسياسي خارجي من دول مثل فرنسا، ما يمكن أن يهيئ الظروف في ظل أوضاع مضطربة وانتقالية في المغرب العربي، للمطالبة بالاستقلال، أسوة بتلك النزعات القومية والمذهبية التي تشتعل في أكثر من منطقة وفي أكثر من بلد عربي. وما يمكن أن يؤدي إليه ذلك من احتمالات تقسيم قد تتعرض لها بلاد المغرب العربي.

ليس الوضع في ليبيا أفضل حالاً. فالانقسام الذي تشهده البلاد حاليا بين مناطق وقبائل، والصراع الدموي المستمر منذ سنوات على السلطة بعد سقوط القذافي، بين

(6) جريدة العربي الجديد5/أيار 2019

عسكريين ومدنيين بخلفيات قبائلية ومناطقية، وبدعم خارجي لكلا الفريقين (قوات اللواء حفتر، وقوات حكومة السراج)، يكشف ذلك التفكك الذي تركته الانتفاضات والثورات على المجتمع الذي لم يكن جاهزا أو مهيئا لهذا التغيير الذي لعبت فيه القوى الخارجية دورا رئيسا. وها هي ليبيا اليوم تعيش أسوأ حالات "ما بعد الإطاحة بالرئيس"، في حين يستمر تدفق النفط وتستمر الشركات الأجنبية الفرنسية والإيطالية بنقله وتصديره والاستفادة منه[7].

باتت ليبيا بعد "الثورة" مهددة بالتقسيم، إلى ثلاثة أقاليم، طرابلس في الغرب، وبرقة في الشرق، وفزان في الجنوب، في ظل انهيار الدولة، وتوزع السلطة، والأوضاع الهشة، والتدخلات الخارجية. وتلعب النزعات القبلية والمناطقية أدوارًا انقسامية عنيفة، بسبب تركيبتها الإثنية والاجتماعية، في هذا الصراع على السلطة بعد الفراغ الذي حصل إثر سقوط النظام .

لقد بدأ الانقسام القبلي مباشرة بعد «الثورة» في ليبيا، إثر اجتماع طرابلس الحاشد لممثلي القبائل المساندة للدولة والنظام، الذي ردت عليه مجموعات أخرى مساندة لـ «الثورة»، بسلسلة من الاجتماعات واللقاءات القبلية، صدرت عنها بيانات سياسية مضادة .

وظهرت بعد «الثورة» مطالب مناطقية اقتصادية وثقافية، اتخذ أغلبها الهوية القبلية. وظهرت بعد انحلال مؤسسات الجيش الوطني، ميليشيات مسلحة في المدن والقرى عرفت بانتماءاتها القبلية والعشائرية. وانتشرت ظاهرة الثأر السياسي والعنف العسكري الذي تحول إلى عملية شبيهة باستعادة للثأر القبلي القديم، بين بعض المناطق والمجموعات.

(7) القبس الدولي31 ديسمبر 2016

وعلى غرار تونس ها هي الأقليات من الطوارق وغيرهم من البربر وقبيلة توبو في ليبيا تشدد على حقها بأوسع مشاركة في اتخاذ القرارات، وتهدد أحيانا باستخدام القوة، إذا استمر حرمانها من حقها. وتسعى حركة احتجاجية في شرق ليبيا إلى فصل إقليمها عن بقية ليبيا، وهي تتحدى الحكومة عن طريق محاصرة عدد من موانئ النفط[8].

وتعكس الخريطة السياسية وتقاطعاتها القبلية التي يتكون منها المشهد السياسي الليبي، حجم الصراع الدموي المعقد على السلطة الذي حوّل ليبيا إلى ساحة حرب مفتوحة بين الأطراف الداخلية، ومنعها، إلى مدى غير معلوم، من بناء دولة أو سلطة ما بعد سقوط النظام[9].

ساهم في هذه التناقضات السياسية والقبلية في ليبيا الصراعات بين الدول الغربية على النفط الليبي، خاصة من إيطاليا وفرنسا، التي تعتبر مقدرات ليبيا وثرواتها جزءًا أساسيًا من مصالحها السياسية والاقتصادية . "وقد أفرزت التوجهات الجديدة لكل من فرنسا وإيطاليا تجاه ليبيا ما بعد القذافي تنافسا حقيقيا بين البلدين للسيطرة على ثروات البلاد تحت ذرائع مختلفة، وقد بدا ذلك واضحا من خلال استخدام الأساليب السياسية والعسكرية كافة. هذا التنافس أدى إلى تغذية التناقضات وإشاعة الفوضى والتفرقة بين مكونات المجتمع الليبي، وجعل ليبيا ساحة صراع لقوى إقليمية ودولية ، وهو ما أضفى المزيد من التعقيد والتشابك على مجمل المشهد الصراعي في البلاد ..."[10].

قدمت سوريا نموذجا آخر لطبيعة الصراعات المتعددة بين الأطراف المشاركة في "الثورة" المفترضة على النظام. كانت التجربة السورية نموذجا غريبا وغير مسبوق، مقارنة

---

(8) DW دوتشية فيله 2013/10/17

(9) موقع لبنان 24 (2019/5/24)

(10) محمد عبد الحفيظ الشيخ ، التنافس الفرنسي–الإيطالي وتداعياته على ليبيا، مجلة المستقبل العربي، عدد484، السنة 42، حزيران/يونيو/2019 ص 145

مع ما حصل في دول عربية أخرى، لجهة أعداد الجماعات والقوى والتنظيمات المسلحة غير السورية التي شاركت في تلك "الثورة"، والتي سفكت دماء بعضها، وتقاتلت في ما بينها من أجل السيطرة على هذه المدينة السورية أو تلك، أو من أجل مبايعة الخليفة و"الدولة الإسلامية". وتلقى هؤلاء الدعم بالمال والسلاح من قوى إقليمية ودولية لكنهم انشغلوا بصراعاتهم الدموية، ولم يتمكنوا من إسقاط النظام. كما فشلت المعارضة السياسية التي انضوت في هيئات مختلفة، في أن تكون البديل المقنع عن النظام بسبب تبعيتها لقوى إقليمية ودولية، وبسبب تشتتها وتنافسها على النفوذ بين قوى إسلامية وغير إسلامية.

أدى صراع المجموعات المسلحة في ما بينها وتكفير بعضها البعض والتنافس على السلطة وموارد النفط والثروة والتجارة إلى فشل هذه المجموعات في تقديم النموذج التغييري الذي تدعيه بديلاً عن النظام السوري. كما ساهمت الجرائم التي ارتكبتها هذه المجموعات وعلى رأسها داعش والنصرة وأحرار الشام، وعشرات المجموعات الأخرى، بذريعة التكفير، وعدم مبايعة "دولة الخلافة" في تهديد الاستقرار المجتمعي بعدما تعرض السوريون بسبب انتماءاتهم الدينية والمذهبية لمذابح جماعية، وللتهجير، ولمصادرة ممتلكاتهم وأموالهم.

في ظل هذه الفوضى، تحول العامل الكردي في سوريا إلى تهديد جديد لوحدة سوريا. وقد ساهمت الولايات المتحدة في دعم هذا التهديد بعدما وقفت علانية إلى جانب الأكراد ومنعت طردهم من المناطق التي سيطروا عليها. كما تحوّل هذا العامل إلى أحد أهم معوقات الحل السياسي في سوريا ، وإلى أحد أهم مبررات التدخل العسكري التركي، وإلى بقاء القوات الأميركية والأجنبية على الأراضي السورية[11].

(11) ما هي الجماعات التي تقاتل إلى جانب تركيا في عفرين؟ BBC عربي 2018/1/25

وها هي سوريا اليوم، وعلى الرغم من التقدم الكبير الذي أحرزه النظام في استعادة الجزء الأكبر من أراضيه التي كانت تحت سيطرة داعش والجماعات الأخرى، لا تزال غير قادرة على الانتقال إلى الحل السياسي. وسيكون على سوريا، بالإضافة إلى مشروع إعادة الإعمار الذي يحتاج إلى جهود وأموال طائلة، أن تواجه مشروع إعادة اللحمة المجتمعية التي ساهمت المجموعات المسلحة في تصدعها بسبب سياسات التكفير والتهجير التي مارستها ضد أتباع المذاهب والأديان على اختلافها.

ثمة مأزق في عمليات التغيير التي حصلت في البلدان العربية. لقد بدأت حركة الاحتجاجات من دون قيادة، ومن دون برامج، ومن دون رؤية واضحة لكيفية التعامل مع الاختلافات الدينية والعرقية والمذهبية، ومن دون وضوح في كيفية التعامل مع الجيش الذي يحكم هذه البلاد منذ نصف قرن إلى اليوم. لذا لم يكن مفاجئا أن نشهد صراعا على السلطة بعد سقوط الرئيس، وأن تطول المرحلة الانتقالية، من دون الوصول إلى بر الأمان السياسي والاقتصادي.

تعيش مجتمعات ما بعد "الربيع" حالة من القلق، ومن اللايقين. وقد هددت الفوضى والتدخلات الخارجية وحدة المجتمعات ووحدة الأرض. وقد أتاحت هذه الفوضى للجماعات العرقية والقبلية أن ترفع الصوت، للمناداة بالانفصال والاستقلال.

لا شك أن وضع ما بعد الثورات يختلف من بلد عربي إلى آخر، من حيث الفوضى أو الفشل أو التنافس والصراع على السلطة . لكننا وبكل تأكيد لا نستطيع أن نشير إلى أي بلد ونقول انظروا إلى النموذج الناجح الذي أتت به ثورات الربيع العربي، أو انظروا إلى بركات وخيرات التدخل الخارجي التي عمت البلاد التي حصل فيها مثل هذا التدخل. ثمة أزمة في مشروع التغيير في العالم العربي. كانت هذه الأزمة تختصر في السابق بانسداد أفق التغير، أما اليوم فإنها أزمة ما بعد التغيير المفتوحة على الاحتمالات كافة.

2

التوتر الأمريكي الإيراني

التوتر الأمريكي الإيراني

- تأثيراته الخليجية، امتداداته الإقليمية، وانعكاساته الدولية
- المعادلة الصعبة بين شروط التفاوض وخطورة إتجاه التصعيد العسكري

سيـــــــد أبو زيـــــــد
د. مصطفى عبدالعـــــزيز

التوتر الأمريكي الإيراني

سيـــــد أبو زيـــد

سفير مصري سابق - القاهرة

تمهيد:

توتر مزمن ومتراكم بين البلدين منذ أن قامت دولة الخميني في إيران عام 1979 رافعة شعار تصدير ما أسمته بالثورة الإسلامية، ذلك النظام الجمهوري شكلا في ظل ولاية الفقيه موضوعا الذي يسيطر بصورة فعلية على مفاصل الدولة وتوجهاتها في الداخل والخارج، وتزايد التدخلات الإيرانية في الشئون الداخلية للدول العربية، وبخاصة تأليب معتنقي المذهب الشيعي على حكوماتهم وجعلهم بكل الوسائل تابعين لإيران عقائديا وسياسيا، وتوسعها في التفجيرات وتدبير المؤامرات ضد النظم المجاورة.

ولم يكن ممكنا التغاضي عن هذا التحول الهائل في تلك المنطقة الحيوية والتي تمس ما تعتبره الولايات المتحدة وحلفاؤها صميم أمنها القومي، فيما يلي:

- ضمان استمرار تدفق البترول (والغاز حاليا) .ويقدر ما يمر من مضيق هرمز من بترول بحوالي خمس بترول العالم، وتملك إيران ذاتها رابع احتياطي البترول العالمي، ولقد هددت إيران أكثر من مرة خاصة إبان حربها مع العراق بتلغيم وإغلاق هذا الممر الهام، وتخصص الولايات المتحدة الأسطول الخامس من قاعدته في البحرين لمتابعة الوضع في الخليج.
- حرية الملاحة في الممرات البحرية وتحرك الناقلات شرقا أو غربا في المنطقة، وتجنب أية مخاطر يمكن أن تغلق طرق وصولها إلى مرافئها في أوروبا أو آسيا.

- الحفاظ على أمن إسرائيل والوقوف ضد أية تهديدات لها من قريب أو بعيد، والتي التزمت بها كل الإدارات الأمريكية المتعاقبة، في الوقت الذي تعلن فيه إيران رفضها للوجود الإسرائيلي ذاته والتزامها بأرض فلسطين التاريخية.

ولعل أزمة الرهائن الأمريكيين في طهران هي أول ما اعترض العلاقات بين البلدين، عندما اقتحمت مجموعة من الطلاب السفارة الأمريكية دعما للثورة الإسلامية واحتجزوا 52 أمريكيا لمدة 444 يوما من 4 نوفمبر 1979 حتى 20 يناير 1981 والتي انتهت بقطع العلاقات الدبلوماسية بين البلدين. وحاولت الولايات المتحدة إنقاذهم بعملية (مخلب النسر) العسكرية الفاشلة في أبريل 1980 خسرت فيها طائرتين أمريكيتين وقتل ثمانية جنود. وانتهت الأزمة بالتوقيع على اتفاقية الجزائر في يناير 1981، وأفرج عن الرهائن في اليوم التالي، ولم يمنع هذا من بداية فرض عقوبات اقتصادية أمريكية على إيران.

وجدير بالإشارة تلك الحرب الضروس التي نشبت بين العراق وإيران على مدى ثمان سنوات 80-1988 سقط خلالها مئات الآلاف من القتلى والجرحى وأنفقت عليها مئات المليارات من الدولارات التي أغرقت العراق في الديون وأنهكته اقتصاديا، ولكنه تباهى بانتصاره بعد أن صرح مرشد الثورة الخميني بأنه تجرع السم عند موافقته على وقف إطلاق النار، كانت الولايات المتحدة في صميم الحرب دعما وتخطيطا وتشجيعا. ولم يدرك أحد من مخططي الحرب أن إيران الفارسية دولة عميقة يمكن أن تستمر بعد الصدمة الأولى، كما يمكن لها أن تتحمل أي قدر من الخسائر، وأن النظام فيها قادر على الصمود ويسيطر على كل مفاصل الدولة.

ومن الطبيعي أن مشاعر العداء الواضحة بين البلدين منذ البداية الناجمة عن تنافر الأضداد تتيح استمرار حدوث أزمات لا تنقطع بينهما، أبرزها تدمير لغم إيراني لفرقاطة أمريكية في خليج هرمز، أعقبها في أبريل 1988 إغراق 3 سفن ومنصتي مراقبة إيرانية، وفي يوليو من نفس العام أسقطت سفينة حربية أمريكية طائرة إيرانية مما أدى إلى

مقتل 290 راكبا، وفي ديسمبر 2011 أعلنت القوات الإيرانية أنها نجحت في إسقاط طائرة استطلاع أمريكية بدون طيار، ورفضت إعادة حطامها وادعت أنهم استفادوا من إنتاجها بالهندسة العكسية. وفي يناير 2016 وقبل أيام من نفاذ الاتفاق النووي أسرت البحرية الإيرانية 10 بحارة أمريكيين في قوارب دخلت المياه الإقليمية الإيرانية، وتم إطلاق سراحهم في اليوم التالي بعد التحقق من أنه خطأ غير مقصود من البحرية الأمريكية.

الاتفاقية النووية:

وجاء انسحاب الولايات المتحدة من الاتفاق النووي (خطة العمل المشتركة الشاملة) في مايو 2018 لكي تضاعف هذا التوتر، هذا الاتفاق الذي شارك في التفاوض حوله مجموعة الدول الدائمة الخمس بمجلس الأمن بالإضافة إلى ألمانيا، وكان الاتحاد الأوروبي على مقربة منه، والذي تطلب مفاوضات شاقة لعدة سنوات حتى إبرامه في 2 أبريل 2015، وصدر بشأنه قرار مجلس الأمن رقم 2231 في 20 يوليو 2015، وقامت إدارة أوباما بدور رئيسي للوصول إليه، واعتبرته إنجازا واتفاقا تاريخيا. نصت أهم بنوده على تخفيض عدد أجهزة الطرد المركزي ونسبة تخصيب اليورانيوم لمدة عشر سنوات لحرمان إيران من إنتاج اليورانيوم عالي التخصيب، مع قيام الوكالة الدولية للطاقة الذرية بالرقابة على البرنامج النووي الإيراني ومفاعلاتها، مقابل رفع العقوبات المفروضة على إيران لمدة عشر سنوات، واسترداد إيران لأموالها المجمدة في المصارف الأمريكية والتي تقدر بنحو ما بين 120 إلى 150 مليار دولار .

ومن بين الأسباب التي سيقت لتبرير هذا الانسحاب ما يلي:

- الرغبة الأمريكية في إعادة التفاوض حول الاتفاق من جديد لتحسين شروطه وإحكامه لتلافي ما شابه من عيوب، في الوقت الذي ترفض إيران التفاوض

تحت التهديد وضغوط العقوبات التي أعادت الولايات المتحدة فرضها من جانب واحد.

- الضغط الإسرائيلي المتواصل على الإدارة الأمريكية وتقديم أدلة على عدم حسن النوايا الإيرانية بخصوص البرنامج النووي.
- التزام ترامب بأمن حلفائه الخليجيين الذين يرون أن إيران استثمرت الاتفاق لمواصلة التوسع والتمدد الاستراتيجي في الإقليم، ومحاولة تشديد هيمنتها على سياسات الدول ذات المكون الشيعي مثل سوريا والعراق واليمن ولبنان.
- رفض إيران تلبية مطالب الرئيس الأمريكي حول مخاوفه من برنامج التجارب الصاروخية الباليستية.
- فشل جهود الوسطاء الأوروبيين في التوصل إلى صيغة تفاهم ترضي الطرفين الإيراني والأمريكي.

ويغلب الظن عند بعض المراقبين أن قرار الرئيس ترمب بالانسحاب من الاتفاق لا يزيد عن اتخاذ القرار المخالف للمواقف التي اتخذتها الإدارة الديموقراطية السابقة وتخطئتها، دون دراسة العواقب التي يمكن أن تنجم عن ذلك، وما يجب اتخاذه بشأنها إذا ما حدثت، وأن هذا من بين الأسباب التي دفعت بعض معاونيه إلى الاستقالة من مناصبهم، وبروز وجوه جديدة من الصقور على مسرح الأحداث، وبخاصة جون بولتون مستشار الأمن القومي وهو من المحافظين الجدد الذي تولى منصبه في أبريل 2018.

وصحب توقيع ترامب قرار الانسحاب بطريقته الدرامية تصاعدا إعلاميا وإشارات تنبئ بأن صداما مروعا بين الولايات المتحدة وإيران قد أصبح على الطريق، وأخذت بعض العواصم تدق طبول الحرب بقوة وخاصة إسرائيل وبعض دول الخليج التي تعتقد أن الحل الأمثل هو توجيه ضربة عسكرية لإيران تقضي على آمالها في امتلاك السلاح النووي وتدخلاتها الخارجية التي جعلت أحد مسئولي الحرس الثوري الإيراني يتباهى بهيمنتهم على أربعة عواصم عربية. وتحدثت صحيفة النيويورك تايمز عن اجتماع في

البيت الأبيض في أعقاب إقدام إيران في يونيو الماضي على إسقاط الطائرة الأمريكية بدون طيار، حضره قادة الأمن القومي ورجال الكونجرس لمتابعة الضربة العسكرية الوشيكة على إيران .والتي ألغيت في اللحظات الأخيرة.

حرب الناقلات:

لم تكن حرب الناقلات سوى عارض جانبي شديد الخطورة كأحد نتائج التوتر الحاد في المنطقة الناجم عن المواجهات الدموية في اليمن والانسحاب الأمريكي من الاتفاق النووي.

فحرية الملاحة أمر ضروري لاستقرار الاقتصاد العالمي، وثبت أن أسلوب احتجاز الناقلات أو تهديدها إنما هو سلاح ذو حدين لا يصيب بأضراره الأطراف المعنية المباشرة، إنما يلحق الضرر بالأسرة الدولية ذاتها. بدأت في المرحلة الراهنة بحادثة استهداف الناقلات الأربع (نرويجية /سعودية / إماراتية) في ميناء الفجيرة الإماراتي في مايو الماضي، وسارعت الولايات المتحدة بتوجيه أصابع الاتهام لإيران بارتكابه، دون أن يثبت هذا بصورة قاطعة، وتشير بعض الدوائر إلى أن جهات أخرى يهمها إشعال الوضع في المنطقة كانت من ورائه. وفي شهر يونيو تعرضت ناقلتا نفط نرويجية ويابانية للهجوم بالقرب من مضيق هرمز أثناء عبورهما لخليج عمان، وفي يوليو احتجزت البحرية البريطانية الناقلة الإيرانية " جريس 1" في مضيق جبل طارق بدعوى الاشتباه في أنها تنقل نفطا إيرانيا إلى سوريا، وكشفت إسبانيا عن طلب أمريكي وراء عملية الاحتجاز، قام الحرس الثوري الإيراني في أعقابه باحتجاز الناقلة البريطانية " ستينا ابيرو "بدعوى ارتكابها مخالفات ملاحية واصطدامها بمركب صيد.

ووضح مؤخرا أن التوجه العام لدى جميع الأطراف هو التهدئة وإيقاف تصعيد هذه المواجهة حول الناقلات التي تضر بالجميع .فقد أصدرت المحكمة في جبل طارق حكما مشروطا بالإفراج عن السفينة بتقديم إيران تعهدا بعدم توجه الناقلة إلى مرفئ تخضع

للعقوبات الأوروبية والمقصود به سوريا، بما اعتبرته إيران انتصارا لها نافية أنها قدمت أية تعهدات .وتوجهت الناقلة إلى اليونان. ويتوقع أن تفرج إيران من جانبها عن الناقلة البريطانية.

تأثيرات هذا التوتر خليجيا:

دول الخليج هي الطرف الأكثر تضررا من جراء انسحاب الولايات المتحدة من الاتفاق النووي، فهي ليست في حاجة إلى مزيد من الضغوط الناجمة عن هذه الخطوة، وبخاصة إعلان ترامب أن تتحمل دول الخليج تكاليف حمايتها ونفقات التحالف التي تحاول تشكيله لحماية سلامة الناقلات في مضيق هرمز متحججا بأن بلاده اكتفت ذاتيا من النفط وأنه لا مصلحة لها في تحمل أي نفقات حراسة أو حماية في الخليج. متجاهلا أن الوجود الأمريكي في الخليج جاء لأسباب استراتيجية أخرى لا يمكن له أن يتخلى عنها، على رأسها دعم وحماية إسرائيل، وكذلك الأهداف ذات الصلة بوضعها كدولة كبرى يهمها الحفاظ على حرية الملاحة في الممرات الدولية ووجودها ذاته في هذه البقعة الهامة.

إن مجلس التعاون الخليجي قد تم إنشاؤه أساسا عام 1981 لمواجهة مخاطر الثورة الإيرانية، والتي تزايدت بالفعل لتمدد إيران وتغولها في عدد من الدول العربية، إلا أنه قد أصبح من الواضح أن المجلس لم يعد كتلة واحدة، وإنما يتمايز داخله أكثر من توجه، من بينها عمان والكويت التي تدعو إلى الحوار وتبدي استعدادها للوساطة، والسعودية والإمارات والبحرين والتي كانت ترى أن إيران لن ترعوي إلا بوضعها تحت أكبر قدر من الضغوط ومن بينها العقوبات والحرب، وإن بدت لهجة الدول الثلاث في التغير في الآونة الأخيرة مشيرة إلى أن الإعلام كان سببا في وصفها بالتشدد، وتبقى قطر مغردة خارج السرب تلعب على كل الحبال.

وأعلنت السعودية في 20 يوليو موافقتها على استقبال قوات أمريكية على أراضيها للمرة الأولى منذ 16 عاما، فهي تركن إلى شبكة الأمان الأمريكية، لمواجهة التهديدات الإيرانية المتزايدة ضد دول الخليج , والواقع أن دول الخليج الأخرى لا تخلو من القواعد الأمريكية.

ويثير الانتباه خلال شهر يوليو الماضي زيارة وفد خفر السواحل الإماراتي لإيران، وزيارة وزير الخارجية الإيراني للكويت التي تنم عن رغبة في تهدئة هذا الاحتقان .

امتداداته الإقليمية:

لم تكن إسرائيل سعيدة في الأساس بالاتفاق النووي، فهو كان يؤجل أو يعرقل امتلاك إيران للسلاح النووي، ولكنه لا يمنع توصلها للمعرفة والقدرات التي تؤهلها لذلك. وإسرائيل هي أكثر الأطراف تحمسا لشن حرب على إيران، متناسية امتلاكها بالفعل لمئات الرؤوس الذرية ووسائل إيصالها، وأن الدول العربية كانت قد علقت موافقتها على المد اللانهائي لمعاهدة منع الانتشار النووي في مؤتمر المراجعة للمعاهدة عام 1995 إلا بعد أن تعهدت الأطراف الأخرى بعقد مؤتمر يخصص لاستصدار قرار حول إخلاء منطقة الشرق الأوسط من هذا السلاح، وعبثا تحاول الدول العربية التوصل لموعد لانعقاده وقد أصبح مؤتمر المراجعة 2020 على الأبواب. والمعروف أن الولايات المتحدة وحلفاءها يقومون بالدور الرئيسي في العرقلة والتسويف.

وجدير بالملاحظة هنا أن إيران ومجموعة الدول الأطراف في الاتفاقية النووية لم تعنَ بالتشاور مع الدول العربية أثناء المفاوضات التي جرت مع إيران، لمراعاة تأثيره على الأمن القومي العربي. ولم يتضمن الاتفاق أية إشارة إلى إنشاء منطقة خالية من الأسلحة النووية في الشرق الأوسط.

وقعت تركيا وإيران خطة لتعزيز المشاورات والتعاون بينهما في يونيو 2019

تزامنت مع التوتر الحالي بين الولايات المتحدة وتركيا على خلفية حصول الأخيرة على المنظومة الدفاعية الروسية " اس 400"، وإلغاء مشاركة تركيا في إنتاج الطائرة الأمريكية المتطورة " اف 35"، فضلا عن اختلافهما حول مدى التدخل التركي في شمال سوريا.

ويرى البعض أن التقارب التركي الإيراني قد وضح منذ زيارة أردوجان لطهران عام 2014 وتصريحه بأنه يعتبر تركيا بيته الثاني، الذي تجاوز به حدود المجاملة. وجاءت بوجه خاص بعد السقوط المدوي لحلفائه من جماعة الإخوان في مصر.

والمعتقد أن القوتين الأكبر في المنطقة يريان ضرورة التنسيق بينهما تجنبا للتداخل بين سعي كل منهما لبناء إمبراطوريته الخاصة. إلا أنه يجدر أن نضع في اعتبارنا أن تركيا في نهاية الأمر عضو بحلف الأطلنطي وجزء من التحالف الغربي الذي يصعب ابتعادها عن مخططاته.

انعكاساته الدولية:

كان من الواضح تمسك الدول الخمس بالاتفاقية وعدم رضاها عن الانسحاب الأمريكي منها، وبخاصة روسيا والصين اللذين أكدا أن أية خلافات بشأنها يجب أن تحل عبر التفاوض والحوار، وضرورة توقف الولايات المتحدة عن ممارساتها في توجيه الاتهامات وفرض العقوبات. وتفتقد هذه الدول الحماس للتجاوب مع المسعى الأمريكي لإنشاء تحالف دولي لتأمين الملاحة في مضيق هرمز باستثناء بريطانيا القريبة من الولايات المتحدة في أغلب خطواتها.

وأعلنت روسيا يوم 23 يوليو الماضي عن مبادرة من خمس نقاط عن الأمن الجماعي في الخليج، تكشف الرغبة الروسية في أن تلعب دورا أكبر في المنطقة، تتضمن تأكيد دول المنطقة والأطراف الخارجية التزاماتها الدولية وبخاصة التخلي عن استخدام القوة في حل المسائل الخلافية واحترام سيادة دول المنطقة وسلامة أراضيها

والالتزام بمبدأ التفاوض لتسوية الخلافات، والالتزام المتبادل بالشفافية في المجال العسكري، وتوقيع اتفاقية للتحكم في انتشار السلاح التقليدي، وتحويل الخليج إلى منطقة خالية من أسلحة الدمار الشامل، وإبرام اتفاقية لمكافحة الإرهاب الدولي والاتجار غير المشروع في الأسلحة. ولم تحظ هذه المبادرة بتأييد ملموس حتى الآن. وتصفها بعض الدوائر الخليجية بأنها غير واقعية حيث يصعب تحققها في المرحلة الحالية.

أيدت الصين المبادرة الروسية، وطالبت جميع الأطراف بضبط النفس، وطالبت واشنطن بالتوقف عن الضغط على إيران، ووصفت إجراءاتها بالأحادية وتتنافى مع القانون الدولي، وتعتبر أي عمل عسكري ضد إيران عملا غير مشروع سيكون له نتائج وخيمة، وصرح وزير الخارجية الصيني أن بلاده تدعم إيران في دفاعها عن حقوقها ومصالحها، وهو ما عبر عنه بالقطع الرئيس الصيني لنظيره الأمريكي خلال لقائهما في قمة شنغهاى يونيو الماضي. وغني عن القول الإشارة إلى العلاقات الوثيقة والمتطورة بين الصين وإيران في مجال النفط وتأمين الاستثمارات الصينية الضخمة، والمكانة التي تشغلها إيران في مشروع الحزام والطريق.

أبدت كل من فرنسا واليابان على أعلى المستويات استعداد كل منها للوساطة بين الولايات المتحدة وإيران، والتي رفضها ترامب بغلظة.

تقويم الموقف:

وينحو تقديرنا للوضع في الوقت الحاضر إلى استبعاد نشوب حرب شاملة مع إيران. لا يمنع هذا من وقوع مناوشات جزئية هنا وهناك، والمرجح أن يكون الرد الإيراني في أغلبه محدودا وموجها في الأغلب إلى دول الخليج تجنبا للمزيد من التصعيد مع الجانب الأمريكي. وتتلخص محددات الموقف الأمريكي فيما يلي:

- تجنب ترمب استخدام وسيلة الحرب بوجه عام في علاقاته الدولية مفضلا التهديد بالسيف دون استعماله، وتصعيد أخطار المواجهة إلى حافة الهاوية

والوقوف عندها للدعوة إلى التفاوض. فهو لا يحبذ بأي حال أن يكون سببا في خسائر أمريكية بشرية أو مادية ، خاصة وأن انتخابات التجديد لفترة ثانية على الأبواب .

- أنه يعوزه القبول الدولي لأي خطوة في هذا الاتجاه، بل لم يشاركه بقية أطراف الاتفاق والاتحاد الأوروبي موقفه بالانسحاب منه. ويشغلها بالفعل العقوبات الاقتصادية التي فرضتها الولايات المتحدة على إيران، وتتماشى معها حفاظا على علاقاتها مع الولايات المتحدة، مع محاولة إيجاد سبل بديلة لتجنبها .
- أن إيران مدججة بالسلاح واستطاعت تطوير إمكانياتها العسكرية المدعومة بقدرات مالية جاء بعضها نتيجة للاتفاق ذاته. ويوضع في الاعتبار أيضا أذرعها الممتدة في المنطقة العربية وبخاصة حزب الله في لبنان وميليشيات الحرس الثوري في سوريا والحشد الشعبي في العراق. وقيل إنها يمكن أن تمطر إسرائيل بعدة آلاف من الصواريخ في الدقيقة الأولى من الحرب .كما أن لدى إيران اكتفاء ذاتي في مجال تكنولوجيا الصواريخ ساعدتها على إنتاج عدة عائلات منها في البر والبحر (شهاب / زلزال/ الفاتح / ذو الفقار / النازعات ...).
- توقع ارتفاع أسعار البترول بنشوب الحرب، وهو أمر شديد الخطورة على الاقتصاديات الغربية وغيرها في ظل الأزمة الاقتصادية الدولية. وتقدر الخسائر التي يمكن أن تنجم عن المواجهة العسكرية ب 5 تريليون دولار.

ويستبعد المراقبون قيام إسرائيل وحدها بالأمر دون الدعم الأمريكي الكامل لهذه الخطوة، والمعتقد أن الرئيس الأمريكي يفضل في هذه المرحلة تشديد ضغوطه الاقتصادية وحربه النفسية على إيران لإرغامها على التفاوض من جديد لتحسين شروط الاتفاق بما يمكن أن تعتبره الإدارة الحالية انتصارا لها. غير أن إيران قد أوضحت في ردودها أنها لن تتفاوض تحت الضغوط التي تتنافى مع قواعد القانون الدولي، وأنها ضغوط أحادية

وليست صادرة عن المنظمة الدولية كالسابق، فضلا عن إيران قد اعتادت أن تتعايش مع مثل هذه العقوبات وبرعت في إيجاد السبل البديلة والكفيلة بتخفيف أضرارها.

الأوضاع الحالية هي الأنسب للسياسات الأمريكية، باستمرار تشديد الضغوط على إيران، لتقليص تمددها في المنطقة، واستغلال إيران كفزاعة لابتزاز دول الخليج، آملة أن ترغم إيران مع الوقت للقبول بالتفاوض. ومن جانب آخر تلوح إيران بالتدرج في العودة إلى أنشطتها النووية لدفع الأطراف الأخرى إلى اتخاذ مواقف أكثر إيجابية مناهضة للموقف الأمريكي. وسياسة عض الأصبع التي يمارسها الطرفان إما أن تنتهي برضوخ أحد الأطراف أو أن تنتهي إلى فوضى تتضرر كل المنطقة من عواقبها.

تقوم كل من سلطنة عمان والكويت بجهود للتهدئة، وتشير بعض الدوائر أن مصر يمكن لها أن تلعب دورا، بحكم حرصها على أمن الخليج وإخلاء المنطقة من أسلحة الدمار الشامل ووضع إيران في حجمها الطبيعي ووقف تدخلها في الشئون الداخلية للآخرين.

الأزمة الأمريكية الإيرانية:
المعادلة الصعبة بين شروط التفاوض
واحتمالات العسكرة

د. مصطفى عبد العزيز مرسي

مساعد سابق لوزير الخارجية المصري - القاهرة

منذ أن بدأت الأزمة الأمريكية الإيرانية في مايو 2018 والتي فجرها الرئيس الأمريكي ترامب بإعلان انسحاب بلاده من الاتفاق النووي مع إيران، لم تنقطع التصريحات المتباينة بين طرفي الأزمة، والتي غلب فيها المزاوجة بين تهديدات الولايات المتحدة باستخدام القوة، وإبداء الرغبة في التفاوض. وصعوبة الوضع الراهن ناجمة عن جملة الشروط التي وضعتها واشنطن كإطار للتفاوض، والتي تجعل التوصل إلى تسوية مقبولة إيرانيا، مسألة متعذرة إن لم تكن مستحيلة، لا سيما وقد تزامن ذلك مع حشد بحري عسكري أمريكي في منطقة الخليج.

وهنا نتساءل ما هو الشكل المحتمل أن تأخذه هذه الأزمة، هل ستبقى عند لون الخطر البرتقالي وإدارة متغيراتها المعقدة، أم ستتطور للون الأحمر الذي ينذر بالمواجهة الساخنة. وهل ستشهد منطقتنا حربا خامسة؟ أم أن هناك كوابح كافية لدى أطرافها ستحول دون ذلك، وتدفعها لتسوية ما؟ تبدو صعوبة الإجابة على هذه التساؤلات لأننا أمام أزمة لم تصل بعد لآخر حلقاتها، بل ما زالت تتفاعل وفي حالة سيولة ومفتوحة على كل الاحتمالات وحتى لا يكون تناولنا لهذه المعضلة قولاً مرسلاً، فإننا سنسعى لاكتشاف بعض أبعادها واستشراف احتمالات تطورها.

أولاً: فرص العقوبات وتأثيرها على الموقف الإيراني.

إن فرض العقوبات على إيران ليس بالأمر الجديد، فقد قامت عدة إدارات أمريكية بذلك من قبل، ولكنها طبقت على إيران في عهد إدارة ترامب بصورتها الشاملة، فلم يكتف بالانسحاب من الاتفاق النووي، بل أعلن عن تبني سلسلة جديدة من العقوبات ضد إيران.

شملت مجالات متعددة، منها ما يمس القطاع المالي والتجاري وكل الأنشطة المتعلقة بقطاع النفط، بهدف إحداث شلل في النشاط الاقتصادي الإيراني الداخلي، ونقل المعركة مع النظام الإيراني إلى الداخل الإيراني، بالسعي لإحداث قلاقل وإضرابات وموجة من الاحتجاجات الداخلية. ولذا تخطط واشنطن لإطالة أمد هذه العقوبات، التي تقترب من حالة الحصار، لا سيما مع سعيها لإلزام الدول الأخرى بتطبيقها.

وفي الواقع تسعى واشنطن – على هذا النحو – إلى إخضاع العدو (إيران) دون قتال، بكسر معنوياته وقدراته على المقاومة، من خلال إضعافه اقتصاديا، عملاً بمقولة صن تزوأوسون، القائد العسكري والفيلسوف الصيني الواردة بكتاب (The Art of War).

فواشنطن تسعى لأن تؤدي هذه العقوبات الشاملة إلى تقليص موارد الدولة الإيرانية لتصبح عاجزة من مواجهة نفقات المتطلبات الأساسية ذات العلاقة بالشعب الإيراني، فضلاً عن قطع الموارد المالية التي تقدمها طهران للتنظيمات والجماعات

التابعة لها خارج الحدود الإيرانية، مما يعني تقليص دور إيران الإقليمي بحيث يسهل – في تقدير البعض – توجيه ضربة عسكرية لها إذا اقتضى الأمر ذلك[1].

ويشير أحد المصادر إلى مدى تأثير العقوبات على الدور الإقليمي الإيراني وتحجيمها لهذا الدور من ذلك–:

- أن إيران شرعت في تقليص وجودها في سوريا واليمن، دون اتخاذ قرار بالانسحاب الكامل منها.
- إغلاق مكاتب مفتوحة في أكثر من 30 مدينة إيرانية لضم "متطوعين" من أجل الجهاد في سوريا كما توقفت جهود إرسال مرتزقة أفغان وباكستانيين إلى هناك.
- تخفيض الأموال الموجهة إلى عناصر تعمل بالوكالة لحساب إيران أبرزها جماعة "حزب الله" اللبنانية وجماعة "الجهاد الإسلامي" الفلسطينية بنسبة نحو 10% مع احتمالات إقرار المزيد من التخفيض مستقبلاً.
- الرضوخ لقرار الحكومة العراقية بتفكيك قوات "الحشد الشعبي" العراقية، ذات الصلة الوثيقة بإيران والعمل على ضمها للجيش العراقي[2].

وبالمقابل تشير مصادر أخرى إلى أنه "إذا قارنا بين الوضع الدولي عند توقيع الاتفاق النووي قبل أربع سنوات سيتضح بسهولة أن إيران في وضع أفضل بكثير الآن. فلم يعد بمقدور الولايات المتحدة استصدار قرار من مجلس الأمن بعقوبات

---

(1)د. طلال عتريس، "العقوبات الأمريكية على إيران.. وتداعياتها"، مجلة شئون عربية، الأمانة العامة لجامعة الدول العربية، العدد رقم 175 – خريف 2018، ص 26.

(2) هذه المعلومات وردت في مقال أمير طاهري المعنون: سبع خرافات حول عقوبات ترامب ضد إيران"، الشرق الأوسط بتاريخ 2019/7/5 ولم نستطع تأكيدها من مصادر أخرى.

دولية ملزمة للجميع ضد إيران لأن الفيتو الروسي والصيني جاهزان للدفاع عن إيران، بل إن روسيا تسوق البترول والغاز الإيراني أمام أعين العالم، والصين أقامت أكبر خزان للنفط الإيراني على أراضيها، والتجارة مع إيران تتم عبر قنوات خفية أو مكشوفة بالدولار أو بالعملات المحلية. وجيران إيران من باكستان إلى تركيا والعراق وحتى الهند لا يلتزمون بتنفيذ العقوبات الأمريكية. ولم تحقق سوى القليل من أهدافها ولهذا لا تجد إيران أنها مضطرة لتقديم تنازلات مستفيدة من الاستياء الواسع من إفراط الولايات المتحدة في استخدام سلاح العقوبات ضد معظم دول العالم مرة واحدة[3].

إلا أن مصدرا ثالثا يشير إلى أن صادرات إيران النفطية كانت قد بلغت 2.45 مليون برميل يوميا، وبعد تطبيق العقوبات الأمريكية على القطاع النفطي الإيراني، تراجعت في مارس 2019 إلى 1.3 مليون برميل يوميا فقط[4]. والنفط كما هو معروف يعد مصدرا رئيسيا من مصادر الدخل القومي الإيراني، وهذا هو الجانب الأخطر للمقاطعة.

وتقييم أثر وفاعلية أي عقوبات يتطلب عادة وقتا قبل الوقوف على النتائج التي حققها عمليا، فإن العقوبات الشاملة الحالية قد يكون لها من القوة ما يكفي لأن تترك تأثيرا مباشرا وسريعا في الاقتصاد الإيراني وتتسبب في مشاكل اقتصادية ومالية إيرانية مؤثرة، وقد لا تتمكن من الصمود أمامها لفترة طويلة.

(3) د. مصطفى السعيد، "معركة إيران تخيم على الانتخابات الأمريكية"، الأهرام، القاهرة، 2019/7/28.

(4) ورد في مقال حسين سليمان المعنون: "العقوبات الأمريكية الجديدة وخيارات إيران لمواجهتها" ‘مختارات إيرانية، مؤسسة الأهرام، العدد رقم 209 بتاريخ مايو/ يونيه 2019، ص 24.

بينما يرى البعض أن العقوبات المفروضة على إيران مفيدة لها لأنها تدفع باتجاه ترشيد الإنفاق وزيادة الاعتماد على القدرات الوطنية لتلبية الاحتياجات المحلية، وهو ما سيؤدي إلى تقوية هذه القدرات في النهاية وتقليص الاعتماد على الخارج[5].

وأيا كانت هذه التقييمات، فإن مرور الوقت وحده يكشف عن مدى تأثير هذه العقوبات على الوضع الداخلي في إيران ومدى قدرتها على الصمود في وجهها. ولكن قد يتم إدخال آليات إضافية تحرق مراحل الصراع وتضعه على أعتاب حرب حقيقية، كتصفير صادرات إيران النفطية لفترة طويلة، وهو ما قد يقود الوضع إلى مواجهة ساخنة، بغض النظر عن النيات والحسابات النظرية. ومن هنا يجيء تحذير الرئيس الإيراني روحاني "بأن الخطوط البحرية في المياه الدولية لن تكون آمنة كما كانت في السابق في حالة تم تخفيض صادرات البترول الإيرانية إلى حدود الصفر" (الأهرام 2019/8/22) .

ثانياً: الشروط المسبقة للتفاوض مع إيران.

أعلن الرئيس ترامب عن رغبته في إعادة التفاوض مع طهران للتوصل إلى اتفاق جديد يتضمن بنودا جديدة تتعلق ببرنامجي إيران النووي والصاروخي فضلاً عن دورها الإقليمي، وحدد وزير الخارجية الأمريكي مايك بومبيو الشروط التالية للتفاوض:

1. الكشف عن كل التفاصيل المرتبطة ببرنامج طهران النووي والسماح لوكالة الطاقة الذرية بالتفتيش المتواصل عليه.
2. التوقف عن تخصيب اليورانيوم، وغلق المفاعل الذي يعمل بالماء الثقيل.

(5) علي حسن باكير، "الحرب الاقتصادية: التأثيرات المحتملة للعقوبات الجديدة على إيران" مجلة السياسة الدولية العدد 118 أبريل 2012، ص 136 – 138.

3. منح الوكالة الدولية نفاذا شاملاً لكل المحطات النووية الإيرانية.
4. وضع حد لانتشار الصواريخ البالستية والصواريخ التي يمكن أن تحمل رؤوسا نووية.
5. إطلاق سراح الأمريكيين وكل المواطنين الحاملين لجنسيات من دول حليفة لواشنطن المحتجزين في إيران.
6. وضع حد لدعم المجموعات الإرهابية في الشرق الأوسط.
7. وضع حد لدعم حركة طالبان والقاعدة والجماعات الإرهابية الأخرى.
8. وضع حد لدعم فيلق القدس في الحرس الثوري.
9. وضع حد لتصرفات طهران تجاه إسرائيل والدول الحليفة لواشنطن في الشرق الأوسط.
10. نزع سلاح الميلشيات الشيعية في العراق.
11. وضع حد لدعم ميليشيات جماعة الحوثي في اليمن.
12. الانسحاب من سوريا وسحب ميليشيات الحرس الثوري الإيراني هناك.

وفرض كل هذه الشروط على دولة كإيران يدفع لإبداء عدد من الملاحظات من بينها:-

1. أن طرح هذه الشروط – على هذا النحو – فيه نوع من الإذعان على الطرف المتلقي (أي إيران) ويبدو كما لو أن واشنطن تتعامل مع دولة مهزومة سلفا، ورفعت راية الاستسلام، وهذا مدخل، كان من المتوقع سلفا عدم قبوله إجمالاً من إيران، لأنها مسألة تتصل بالكبرياء الوطني الإيراني.
2. أن محاولة فرض هذه الشروط المسبقة – على هذا النحو – وبهذه الطريقة كان مقصودا ومتعمدا، لدفع طهران إلى رفضها، ونعتقد أن واشنطن كانت ترغب في دفع طهران إلى الرفض، لإطالة الوقت في المساومات حتى

يتسنى تضييق الخناق على إيران، كما أن واشنطن تبدو غير متعجلة مرحليا لخوض حرب مع إيران مازالت نتائجها غير واضحة، فضلاً عن الظروف الأمريكية الداخلية لم تكتمل تهيئتها بعد، لا سيما مع اقتراب موعد الانتخابات الرئاسية الأمريكية.

وأعلن بومبيو أن بلاده لا تعتزم إعادة التفاوض على الاتفاق النووي، إلا بعد أن تفي إيران بالشروط الأمريكية الاثني عشر، وهي في مجملها مطالب سياسية في الأساس، فالشروط ذات العلاقة بالاتفاق النووي هي أربعة فقط، والشروط الثمانية المتبقية لا علاقة لها بالاتفاق، وهو ما يؤكد أن جوهر هذه الشروط تستهدف في مجملها عددا من الأهداف ونقاط ارتكاز النظام الإيراني، وقيمه التي تعتبرها القيادة الإيرانية قيما جوهريا ذات أولوية عليا، والتخلي عنها يعني تغييرا أساسيا في توجهات النظام الإيراني، ويصبحون أمام إيران أخرى مغايرة تماما لوضعها الراهن.

ونعتقد أن أحد أهداف الموقف الأمريكي الراهن هو استعادة الهيمنة الكاملة على الوضع العالمي، وتتضح هذه الحقيقة إذا ما تم الأخذ في الاعتبار الإدراك الجيوبولتيكي الأمريكي للشرق الأوسط، فالسيطرة عليه تتيح للولايات المتحدة احتواء القوى الدولية والإقليمية الصاعدة والمنافسة، فاحتواء الصين الشعبية وروسيا الاتحادية، والاتحاد الأوروبي مستقبلاً يأتي بالسيطرة على الشرق الأوسط موقعا وبتروليا وأموالاً .

وتمزيق ترامب للاتفاقية النووية، هو محاولة لإزاحة إيران – القوة الإقليمية الاعتراضية شبه الوحيدة – عن طريق المخطط الأمريكي لإعادة تشكيل الشرق الأوسط للانفراد بالغنيمة.

ففي ظل الحروب التجارية التي تشنها الولايات المتحدة على الصين وغيرها، وفي ظل تصاعد قوى جديدة يتسارع نموها، يتزايد الشعور الأمريكي، لاسيما في عهد

ترامب، أن الحصة الأمريكية من الكعكة يتقلص، وأن الولايات المتحدة وإن ظلت القوة الأعظم، إلا أنها لم تعد القوة الوحيدة التي تقود العالم وتوجه النظام العالمي، وهناك تنافس على المكانة، وفي ظل هذه الأوضاع المتغيرة وغيرها تحرص واشنطن على إبقاء الشرق الأوسط تحت هيمنتها، أو على الأقل جعل الجزء المفيد منه (منطقة الخليج العربية) تحت سيطرتها، وهذا يفسر جانبا من موقفها الحالي من إيران إضافةً لتعزيز أمن إسرائيل.

وبالمقابل كانت ردود الفعل الإيرانية، تتسم بالمرونة مع توزيع الأدوار. من ذلك حرص الرئيس الإيراني روحاني على القول "إنه مستعد للتفاوض بشرط تراجع واشنطن عن قرار الانسحاب من الاتفاقية النووية، عن العقوبات" بينما تبنى المرشد الأعلى علي خامئني موقفا متشددا بقوله في 2018/8/13، "لن يكون هناك حرب ولن يكون هناك تفاوض". وبدأت إيران تخطو خطوة تصعيدية أخرى بالتلويح بغلق مضيق هرمز، إذا منعت إيران من تصدير نفطها.

كما بدأت إيران، في إطار تكتيكي، خطوات للانسحاب المتدرج من بعض التزاماتها المترتبة على الاتفاقية النووية في إطار ما يمكن تسميته بـ " عملية الضغط على الأصابع " لدفع الأطراف الأوروبية للتدخل لإنقاذ الاتفاقية.

ثالثاً: السعي لتقليص النفوذ الإقليمي لإيران.

تضمنت الشروط الأمريكية للتفاوض البنود من 10 إلى 12 دعوة إيران للتخلي عن حلفائها ووكلائها في المنطقة (حزب الله اللبناني، الحشد الشعبي العراقي، الميليشيات التابعة لإيران في سوريا، والحوثيين في اليمن) مما يشير إلى أن واشنطن تتجه لإدراج إيران ووكلائها ضمن استراتيجية الجبر والإكراه، وجعل أوراقها الإقليمية عبئا عليها.

وفيما يلي بعض الملاحظات ذات العلاقة:

1. نعتقد أن القيادة الإيرانية فسرت الاتفاق النووي المبرم معها عام 2015، على أنه صك شرعي دولي يعترف بالنظام الإيراني ويسلم بنفوذه الإقليمي، مقابل التنازلات التي قدمتها إيران في برنامجها النووي.
2. إن إيران سعت لتسييس الانتماءات المذهبية والطائفية، وهي تتعامل مع "الشيعة السياسية" كأيدولوجية دولية، وكأداة إقليمية لفرض نفوذها، وتستخدم الطوائف الشيعية في دول الجوار العربية لإزعاج خصومها. كما هذه المناطق توفر "رئات اقتصادية" تقلل من ضغوط الحصار الاقتصادي الحالي على إيران.
3. وإيران لا تخفي تطلعاتها وطموحاتها الإقليمية في منطقة الجوار العربية، ولا يجد بعض مسؤوليها حرجا في التصريح بأن طهران تسيطر على اتخاذ القرار في أربع عواصم عربية (بيروت، دمشق، بغداد وأخيرا صنعاء).

   ولعلنا نتذكر أن إيران هددت جيرانها بتصدير الثورة الإسلامية إليها في ثمانينيات القرن الماضي، فآثر هؤلاء الجيران مضطرين اللجوء بطلب الحماية العسكرية الأمريكية.

   ولم تتواصل الجهود لإقامة نوع من روابط الجوار، لتكون منصة لحل المشاكل الإقليمية والتعاون الإقليمي، نتيجة ضغوط خارجية مضادة، وربما ساد الشعور، لاسيما في مرحلة الضعف العربي، بأن مخرجات هذا الحوار سيزيد فيها الغرم على الغنم.
4. وأدت تصفية الجيش العراقي، بعد الغزو الأمريكي للعراق في 2003، إلى تعزيز الوضع الإقليمي والعسكري لإيران، واتساع نفوذها في العراق بتوافق ضمني أمريكي – خليجي لكبح المقاومة العراقية لقوات الاحتلال الأمريكي، التي كان أغلب أفرادها من السنة. وقامت في مرحلة لاحقة بالإسهام في

تشكيل الحشد الشعبي وسلحته (أغلبه من الشيعة)، ليكون ظهيرا لها عند الضرورة. وتصاعد حضور إيران في الشأن الداخلي العراقي وفي معادلة المنطقة، وأخذ منحنى جديد وباتت تشكل زاوية حادة في السياسة الإقليمية[6]. وتحسبا لمواجهة محتملة مع إيران، سعت واشنطن بالتفاهم مع الحكومة العراقية، إلى تصفية الوجود المستقل للحشد الشعبي، بضمه للجيش العراقي، بهدف إحكام السيطرة عليه، وصدر بالفعل قرار من الحكومة العراقية بضم أفراده إلى القوات النظامية (يقدر عددهم بـ 120 ألف مقاتل)، ويتطلب الأمر بعض الوقت لإدخاله حيز التنفيذ. وخلال ذلك تمت عدة عمليات قصف لمخازن أسلحة الحشد الشعبي ومواقعه بطائرات مسيرة وغيرها. وقد أكد مسئولان أمريكيان لصحيفة نيويورك تايمز أن إسرائيل كانت وراء هذه العمليات[7]. والممارسة الإسرائيلية الاستباقية على هذا النحو، تعكس قلقا إسرائيليا فضلاً عن تأثير اقتراب الانتخابات العامة الإسرائيلية (سبتمبر 2019) وتوسيع إسرائيل لنطاق هجماتها ليشمل كلا من العراق وسوريا ولبنان في أوقات متقاربة، يوحي بسعيها لعرقلة جهود التوصل لتسويه سلمية مع إيران.

5. مازالت دوائر صنع القرار في إيران ترى أن أحد المصادر التقليدية لتهديد الأمن القومي الإيراني يأتي من غرب حدودها (سوريا)، وهو ما يدفعها إلى الحرص على تعزيز نفوذها داخل هذه المنطقة[8]. وهو ما يفسر قول المرشد

(6) أنسي القصاص، "هل يحد الردع الهيكلي من فرص الحرب في الشرق الأوسط؟"، ملحق تحولات استراتيجية، مجلة السياسة الدولية، العدد 211 – يوليو 2018 ص 23

(7) نقلاً عن صحيفة الأهرام بتاريخ 2019/8/24.

(8) محمد عباس ناجي، مصالح وسياسات إيران في شرق المتوسط"، السياسة الدولية، القاهرة العدد 213 – يوليو 2018، ص 120.

الأعلى على خامئني في 2017/1/5 "أننا نقاتل في سوريا من أجل ألا نحارب في طهران، فسوريا بهذه المثابة تمثل جبهة متقدمة في حالة تعرض إيران لهجوم أمريكي أو إسرائيلي.

ومن هنا ينظر لدعوة إيران للانسحاب من سوريا وسحب ميليشيات الحرس الثوري الإيراني هناك (البند رقم 12 من الشروط الأمريكية) على أنها بمثابة دعوة لتجريد سوريا، من أحد أهم القوى الداعمة لنظامها، وتعريته عسكريا وسياسيا، أمام إسرائيل. في ظل موقف روسي يتسم بالضبابية.

6. وبالنسبة لحزب الله الذي أعلن حسن نصر الله في 2019/7/5 "أنه يجب أن يعرف الجميع أن الحرب إذا وقعت ستكون حربا مدمرة للمنطقة كلها، كل دولة ستشارك في الحرب على إيران، أو تقدم أرضها للاعتداء عليها ستدفع الثمن". وظل هذا الحزب الذي خاض عدة معارك في مواجهة اعتداءات إسرائيلية على لبنان على عدائه لإسرائيل التي تعتبره من أخطر خصومها. وأحدث تغييرا في عقيدتها الأمنية.
7. كما أن سيطرة الحوثيين على أجزاء من اليمن بمساعدات إيرانية لا تنكر، أوصلت الأزمة اليمنية إلى مرحلة حرجة يعاني منها الشعب اليمني والمنطقة. وتزايد شعور دول الخليج العربية بالتهديد واقعيا وعضويا من استخدام الحوثيين للطائرات بدون طيار والصواريخ الباليستية، الأمر الذي دفع بعض دول الخليج إلى طلب الدعم العسكري الأمريكي.

وتنطلق إيران في دعمها لهذه الفئات، إلى أن دعم إيران لما تسميه بـ"حركة التحرر الإسلامي" يضفي قوة على الدور الإيراني إقليميا ودوليا، ويتيح الاستفادة منه في توجيه ضربات ضد مصالح الدول المعادية لإيران، كما تنطلق هذه المساندة من قاعدة "الوسع" التي تقول "بأن كل مسئول أو

حكومة إسلامية، مسؤول في حدوده وسعه، وأن المسلم فردا أو حكومة عليه أن يلبي حاجة مسلم يطلب الدعم والإغاثة قدر "وسعه."

وفي تقييم سابق للصحفي البريطاني دايفيد هرست (الجاردين البريطاينة)، حذر فيه من استخدام أمريكا للقوة ضد إيران، على نحو ما فعلت مع العراق، لأن التداعيات السلبية لمثل هذه المغامرة الجديدة تفوق سابقتها، لأنه ليس هناك من شك في أن رد فعل إيران وحلفائها، سيكون مدمرا للمنطقة.

وإجمالا فإن المشروع الإيراني لمد نفوذ إيران ليس سياسة عابرة، بل توجها أساسيا للسياسة الخارجية الإيرانية وأحد أهدافها مواجهة شروط الردع الأمريكية[9].

وتخلي إيران عن وكلائها مسألة ليست سهلة. فهي رابطة عقائدية لها اعتباراتها التي تخرجها من حسابات المكسب والخسارة التي تفرضها العقلانية، لكنها – في تقديرنا – قابلة للنقاش والتسوية بشروط مقابلة، كما تتطلب تسويات لقضايا إقليمية عالقة وضمانات إقليمية ودولية، فضلا عن إقامة منصات للحوار بين إيران ودول الجوار.

رابعاً: دوافع ترامب ومدركاته الشخصية في اتخاذ قراره.

لاشك أن السمات الشخصية للرئيس الأمريكي تؤثر في اتخاذ قراراته ولترامب سمات ودوافع مختلطة، كل منها لها تأثيرها ولكنها جميعا تصب في السعي لتعزيز فرص إعادة انتخابه عام 2020، وفي مقدمتها-:

(9) دلال محمود السيد، "هل ينتقل الشرق الأوسط إلى الردع النووي" ملحق تحولات استراتيجية، مجلة السياسة الدولية العدد 203 يوليو 2018 ص 9

1. ينطلق ترامب في تعامله مع أزمة الاتفاق النووي من نزعة انتمائه للمدرسة القومية الشعبوية المتشددة، حتى لو كان ذلك على حساب قواعد ومبادئ القانون الدولي، فهو لا يهتم بأن يدير شئون بلده في إطار نظام دولي، متعدد الأطراف بل لعله يطمح أن تكون هي ذاتها النظام الدولي، باستبعاده لاتفاقيات والمعاهدات الدولية على أساس أنها تقوض قوة الولايات المتحدة.

ولا يمل ترامب من ترديد شعار "أمريكا أولاً" والذي يعني وضع المصالح الأمريكية في المرتبة الأولى ولو تعارض ذلك مع مصالح حلفائه والتزاماتهم الدولية، وخير مثال على ذلك إعلان ترامب انسحاب واشنطن من الاتفاق النووي بين إيران ومجموعة (5+1) ، رغم معارضة القوى الأوروبية والأسيوية الكبرى لتلك الخطوة لتداعياتها على أمن واستقرار منطقة الشرق الأوسط والجهود الدولية لمنع انتشار النووي.

2. حرصه على تسليع علاقات الولايات المتحدة مع مختلف دول العالم، وسعيه لفرض ما يشبه "الإتاوات" على بعض الدول، وبشكل علني غير مألوف في العلاقات الدولية، وفي مقدمتها دول الخليج العربية في إطار "تجارة التهديد والحماية"، وغلبة عقلية الصفقة على ما عداها.
3. وأغلب مواقفه الخارجية يمكن إدراجها تحت عنوان كبير "نسف إرث أوباما"[(10)] وإظهار نفسه بأنه أكثر حسما منه فعملية انسحابه من الاتفاق النووي تمت لأسباب شخصية، لمجرد أن هذا الاتفاق تم بمعرفة سلفه

(10) عمرو عبد العاطي، "مرتكزات عقيدة ترامب للسياسة الخارجية الأمريكية"، مجلة السياسة الدولية، القاهرة ، العدد 217 يوليو 2019، ص 157.

أوباما، أي صفقة أوباما وليست صفقة ترامب، ولا يهتم ترامب – في تقدير البعض – بأن تكون صفقته الجديدة مختلفة بشكل كبير عن القديمة[11].

ولم يكن السفير البريطاني كيم داروك السابق في واشنطن مبالغا حين وصف إقدام ترامب على الانسحاب من الاتفاق النووي، بأنه "تخريب دبلوماسي"، وأنه قام بذلك لأسباب شخصية، لمجرد أنه اتفاق الرئيس السابق باراك أوباما، والذي اعتبره أهم إنجاز لسياسته الخارجية.

4. برر ترامب استخدام إدارته لما يعرف بإستراتيجية "الضغوط القصوى" ضد إيران، بحجة أن الرئيس السابق أوباما تبنى سياسة الجزرة وحدها في تعامله معها وإبرام الاتفاق النووي معها (5+1) في يوليو 2015، والذي تضمن – في تقديره – عدة عيوب وثغرات اعتبرها خطيرة، وأبرزها أن هذا الاتفاق مؤقت بمدة زمنية وهي عام 2025، وبالتالي يمكن لإيران استئناف التخصيب بعد هذا العام، إضافة لبرنامج إيران الصاروخي الباليستي الذي لم يتناوله هذا الاتفاق والذي يهدد مصالح الولايات المتحدة وحلفاءها (وفي مقدمتهم إسرائيل)[12].

خامساً: تأثير إسرائيل على القرار الذي اتخذه ترامب.

1. إن ضغوط إسرائيل على إدارة ترامب لم تكن خافية على أحد، وهو ليس في حاجة لهذه الضغوط، فقد ذهب إلى أبعد مما كانت تحلم به إسرائيل، بإعلانه ضم القدس والجولان إليها وقد لاقى إعلان ترامب انسحاب أمريكا

(11) د. محمد كمال، "رهانات أمريكا وإيران"، الأهرام، 2019/7/26

(12) د. أحمد سيد أحمد، "سياسة العصا والجزرة الأمريكية تجاه ايران وتركيا"، مجلة شئون تركية، مركز الأهرام للدراسات السياسية والإستراتيجية، القاهرة، العدد الحادي عشر ، صيف 2019، ص 229–230.

من الاتفاق النووي مع إيران ترحيبا كبيرا من جانب بنيامين نتنياهو رئيس الوزراء الإسرائيلي.

وتصعيد حالة العداء مع إيران يعد في نظر البعض هدفا إسرائيليا، فواشنطن كان يمكنها تسوية خلافاتها مع طهران عبر المفاوضات حينما يحين وقتها وتتوافر ظروفها وشروطها.

2. وإسرائيل تعتبر المستفيد الأكبر من استمرار حالة التوتر الراهنة، لتشغل العالم العربي عن مخططاتها التوسعية لابتلاع ما تبقى من الأراضي الفلسطينية، وتثبيت أوضاع الأراضي التي تم الاستيلاء عليها بالفعل (القدس الشرقية ومرتفعات الجولان)، وتعمل واشنطن على تأمين مواقف عربية وأخرى إقليمية لمشروع "صفقة القرن" والسعي في هذا الإطار لتحويل طهران من طرف معرقل لها إلى طرف غير ممانع[13] أو صامت.
3. ومطالبة واشنطن إيران "بوضع حد لانتشار الصواريخ الباليستية التي يمكن أن تحمل رؤوسا نووية" رغم أنه لم تتأكد بشكل قاطع بأنه أصبح لدى إيران رؤوس نووية فإن المقصود بالدرجة الأولى من إدراج هذا الشرط التحفظي يتعلق بأمن إسرائيل بالدرجة الأولى[14].

---

(13) سامح راشد، "المستفيدون من إشعال الشرق الأوسط"، مجلة السياسة الدولية، العدد 217 – يوليو 2019، ص 178

(14) أجرت إسرائيل تجارب في ولاية ألاسكا الأمريكية على قدرة منظومة (أرو –3) للصواريخ الدفاعة الباليستية المدعومة من أمريكيا، وصرح ناتنياهو أن إسرائيل قادرة على مواجهة الصواريخ الباليستية التي تطلق من إيران أو من أي مكان آخر (الأهرام 2019/7/29)، وقد أدت حرب إسرائيل الثانية على لبنان عام 2006، والتي اعتبرها الحرب الأولى بينها وبين إيران وأدارها حزب الله، أدت إلى زيادة الوعي بخطورة حرب الصواريخ، وكشفت نقاط الضعف والمشكلات التي واجهها الجيش الإسرائيلي في إدارته لهذه الحرب التي أدت نتاجها إلى إحداث تغيير في العقيدة الأمنية الإسرائيلية.

4. وفي إطار من "التهويل الإستراتيجي" من القدرة النووية الإيرانية، كانت توقعات وكالة الاستخبارات المركزية (CIA) منذ 1992م بأن إيران ستمتلك مثل هذا السلاح بعد خمس سنوات (2000م) أو أن إيران ستمتلك بعد بضع سنوات سلاحا نوويا[15] ولا يزال مثل هذا التقدير مستمرا إلى اليوم، وهي تهديدات – في تقدير أحد المتخصصين – غير مؤيدة بأدلة فعلية وتبقى مجرد شائعات، بما أن إيران أحد الدول الموقعة على معاهدة حظر انتشار الأسلحة النووية، فإنه مالم يثبت خرقها لالتزاماتها تجاه هذه المعاهدة وتجاه الوكالة الدولية للطاقة النووية، يجب الافتراض بأن إيران بريئة من أي تهمة[16]. وبالمقابل مضى على إسرائيل قرابة أكثر من نصف قرن على التطوير الخفي للأسلحة النووية، ليكون سلاحا نوويا في القبو، رادعا لكل العالم العربي، بحجة منع حدوث محرقة أخرى للشعب اليهودي، الأمر الذي مكنها من إحداث أكثر من محرقة لشعوب المنطقة، رغم أنها لم تواجه تهديدا حقيقيا لوجودها بل العكس هو الواقع دفع ذلك وظلت محتفظة بخيارها النووي كبوليصة تأمين ريثما يأتي السلام الحقيقي الدائم، والسؤال هو هل عملت إسرائيل على دعم جهود السلام أم أن العكس هو الصحيح؟[17].

---

(15) New York Times, Nov. 30.1992 PA- 1 A-6. January 5.1995 P.A-10 Washington Times. January 6.1995.Pa-a15

(16) صاحب هذا الرأي إفنر كوهين، نحو شرق أوسط جديد.. إعادة النظر في المسألة النووية، دراسات عالمية، مركز الإمارات للدراسات والبحوث الإستراتيجية، أبو ظبي ص 13، العدد رقم 1.

(17) وفي مؤتمر "أمن الخليج – حوار الخليج" الذي عقد في البحرين عام 2004م، ونظمه المعهد الدولي للدراسات الإستراتيجية ومقره في لندن، انتقد الأمير سعود الفيصل مبكرا التركيز على إيران في الموضوع النووي،

ولكن لماذا تعارض إسرائيل بشدة وجود إيران نووية؟ فحسب المزاعم الإسرائيلية، أن إيران تمثل أخطر تهديد لبقاء الشعب اليهودي منذ هتلر، والاعتقاد بأن القادة الإيرانيين مندفعون بوازع ديني ومعاداة السامية، فضلاً عن عدم السماح لأي خصم إقليمي بتحقيق التكافؤ النووي مع إسرائيل، لأن ذلك يكسر الاحتكار النووي الإسرائيلي في الشرق الأوسط. ولذلك تعمل إسرائيل بكل السبل لإيقاف "الساعة الإيرانية" وتجميد الوقت المتبقي – في تقديرنا– قبل أن تتوصل إيران إلى تحقيق استكمال مقوماتها وقدراتها النووية.

ويلاحظ أنه منذ توقف الحرب مع العراق وبعدما بدأ التغيير في نظرة العرب إلى إيران التي وقفت مثلهم ضد احتلال العراق للكويت، كان المطلوب من إثارة المخاوف الخليجية من "البرنامج النووي الإيراني" في ذلك الوقت هو الإبقاء على استمرار شعور دول الخليج بالقلق أو بالخوف "من إيران"، حتى بعد تراجع التهديد العراقي.

الختام

إن شروط التفاوض الإذعانية التي وضعتها واشنطن كإطار لإعادة التفاوض حول الاتفاقية النووية، تتجاوز مضمون هذه الاتفاقية، وتضيف قضايا أخرى إلى جانبها، ويرى فيها الجانب الإيراني، محاولة أمريكية لتجريد نظامه من أهم مرتكزاته الأساسية، ويهدف إلى إحداث خلخلة داخلية. ويصعب على إيران التخلي عن دورها

رغم كونها من الدول الموقعة لمعاهدة حظر انتشار الأسلحة النووية مع تجاهل إسرائيل التي لا توافق على المعاهدة ومتطلباتها، جريدة النهار، 2004/12/26

ونفوذها الإقليمي الذي يمثل جبهة متقدمة للدفاع عنها إذا تعرض أمنها القومي لهجوم أو مخاطر في غياب البديل المأمون الذي يضمن حماية كيانها الوطني .

وإجمالاً تبدو الشروط الأمريكية في المنظور الإيراني بمثابة شروط استسلام، قد تدفع بالقيادة الإيرانية إلى المواجهة الساخنة مع أمريكا، وهذا على ما يبدو مسألة مخططة وهدف مقصود أمريكيا، على أن تكون إيران هي البادئة برفع راية الحرب حتى يكون الرد عليها عسكريا مقبولاً داخليا في أمريكا، الأمر الذي يعلي من احتمالات عسكرة الأزمة. ولكن الولايات المتحدة تعلم أن الحرب مع إيران ستفرض ثمنا غاليا جدا على أمريكا والعالم. وهنا تتضح الورطة التي تواجهها إدارة ترامب.

ولن ندخل في متاهة التنبؤ بما ستصل إليه سيناريوهات الأزمة الراهنة لضيق المجال من ناحية، ومن ناحية أخرى لصعوبة التكهن بمسار أزمة مفتوحة معقدة لم تكتمل حلقاتها، وبالتالي ارتفاع حالة عدم اليقين فيها.

وفي ظل استمرار فرص العقوبات فإن عامل الوقت يلعب ضد إيران، فواشنطن تعمل على إطالة أمد هذه العقوبات حتى موعد الانتخابات الرئاسية القادمة (2020)، بينما تحاول طهران تقصير هذه الفترة لأن ضغوط عامل الوقت تتزايد كلما طال أمده.

وما نستطيع قوله، إن هناك حربا خفية وخطرة تقودها واشنطن ضد إيران، وهي حرب العقوبات الاقتصادية، التي فرضت حصارا على واردات إيران وصادراتها واستمرار هذا الوضع يدفع بالأزمة إلى بؤرة الخطر، وإذا ما تم تصفير صادرات إيران النفطية ستصل الأزمة إلى حافة الهاوية.

ومن هنا تجيء دلالة تصريح روحاني الأخير ردا على بومبيو بأن الملاحة الدولية لن تكون آمنة في حالة تم تخفيض صادرات البترول الإيرانية إلى حدود الصفر" (الأهرام 8/22).

واحتمال نشوب حرب جديدة يصعب استبعاده، وهي حرب لو وقعت سيترتب عليها دمار شامل للبشر والموارد، وبالغ الضرر بالاقتصاد العالمي، الذي سيشهد ارتفاعا كارثيا لأسعار البترول، فضلاً عن عرقلة مسارات تدفقه، فهي حرب كل الأطراف فيها خاسر، وستتحمل دول المنطقة العربية أكبر خسائرها وتكاليفها وتداعياتها السلبية.

ويلاحظ أن الأطراف الأخرى في الاتفاق (روسيا والصين وألمانيا وبريطانيا وفرنسا) أعلنت عن استمرار التزامها (نظريا) بالاتفاق القائم وبعضها تفضل إضافة ملحق للاتفاق الحالي، يتضمن معالجة الثغرات السابقة مثل مدته المحدودة، وآلية التفتيش على المواقع النووية، مع إمكانية مناقشة البرنامج الصاروخي. إلا أنه باستثناء الصين وروسيا الاتحادية يصعب على الدول الأوروبية الحفاظ على توازن حرج بين علاقاتها الوثيقة بالولايات المتحدة ، وسعيها لأن تحوز على حرية أكبر في حركتها الدولية خاصة العلاقة مع إيران، ويصعب عليها فك أسر شراكتها الإستراتيجية مع واشنطن. ولهذا ربما تمثل قمة مجموعة الدول السبع الذي عقدت في فرنسا (8/24) فرصة للتشاور الجانبي مع ترامب لإيجاد آليات للخروج من حالة الجمود الحالية الخطرة للأزمة الراهنة. فالوضع أصبح يتطلب تدخل طرف ثالث لحلحلته. فرقصة التانجو السياسية الثنائية الحالية بين واشنطن وطهران المتعثرة تحتاج لطرف ثالث، لتليين العضلات السياسية للثنائي الراقص، يطرح حل وسطا مقبولا يرجح المقاربة السلمية لحل الأزمة الراهنة. وفرنسا رشحت نفسها لهذه المهمة الصعبة بين طرفين لا يجمعهما نظام للقيم وتتضارب مصالحهما.

وعلى مستوى آخر، وهو المستوى العربي – الإيراني، نجد أن الوقائع الحالية للعلاقات بين الجانبين لا تدعو للتفاؤل بيد أن التحرك لإصلاحها بالطرق الصحيحة والمصارحة ليس مستحيلاً. ففي تقدير البعض أنه من الأخطاء الكبرى للنظام الإيراني

في إدارته للصراع القائم بينه وبين الولايات المتحدة الأمريكية، استمراره في نفس الوقت في معارك جانبية مع دول الخليج العربية كالحرب في اليمن، مما استنزف جانبا هاما من الطاقات الإيرانية والعربية، في الوقت الذي كان من الأنسب العمل على إيجاد تسوية ما مع دول الخليج بشأن اليمن ، فضلاً عن تدخلها في الشئون الداخلية الخليجية وغيرها، حتى يحفزهم، أو على الأقل يدفعهم للحياد في الأزمة الراهنة، ولا تدفعهم للجوء إلى الولايات المتحدة طلبا للحماية أو التقارب مع إسرائيل.

وتفيد تقارير إعلامية خليجية صدرت مؤخرا بأن وزير الخارجية الإيراني محمد ظريف خلال زيارته للكويت عرض مبادرتين لخفض التصعيد وتأمين الملاحة في مياه الخليج، وإنشاء قوة بحرية مشتركة لحماية الملاحة[18]. كما وجه روحاني لدول الجوار دعوى لبحث المشاكل العالقة.

وأعتقد أنه ليس من الحصافة أن نترك هذه الدعوى للحوار دون رد إيجابي عربي لأنها السبيل الوحد لغلق باب جهنم الذي يسعى أعداء العرب وإيران لدفعهما نحوه. فالحوار بين دول الجوار – إذا ما خلصت النوايا – يكون عادة للبحث في المشترك والخروج من دائرة الخلاف إلى الائتلاف ووصولاً للوفاق[19].

<u>ولا شيء يقتل الحلم إلا ضعف العزيمة وغياب الإرادة</u>

(18) صحيفة الشروق– القاهرة بتاريخ 2019/8/22.

(19) تجدر الإشارة إلى أنه بعد توقف الحرب العراقية الإيرانية أصدر مجلس الأمن قرارا برقم 598 دعت الفقرة الأخيرة منه إلى عقد مؤتمر دولي يضم العراق وإيران وجاراتهما من دول الخليج العربية والقوى الخارجية لبحث سبل حل المشاكل العالقة في المنطقة ولكن هذا المؤتمر لم ينعقد وذلك بسبب قيام عراق صدام باحتلال الكويت عام 1990، وما أعقب ذلك من انقسامات إقليمية ودولية.

ملـــــف دولـي

- الصراعات على الساحة الدولية : سياسية أم ايديولوجية أم مصالح وتحالفات — غـــــازي دحمـــــــان
- سياسة ترامب تجاه روسيا والصين، وتداعياتها على إعادة الاصطفاف الدولي وتماسك التحالف الغربي — عمـــــــرو عبد العاطـي
- الدور الأوروبي بين مقتضيات التحالف مع أمريكا، ومتطلبات المصالح مع خصومها — د.ســـــــــلام الكواكبي

صراع سياسي وإيديولوجي أم مصالح وتحالفات؟.

غـــازي دحـــــمان

كاتب سوري – سورية

لم تطل فترة احتفال العالم بنهاية الحرب الباردة لأكثر من عقد ونيف، آنذاك ظهرت بعض النظريات التي أعلنت موت الأيديولوجيات أو انهزامها في مواجهة الليبرالية التي باتت تمثل ليس نهاية التاريخ البشري وحسب، بل وصفة للتقدم البشري والخروج من مأزق الصراعات التي سيطرت على التاريخ البشري وتاريخ العلاقات بين الأمم والشعوب، وولوج عتبة الأمن والاستقرار والرخاء.

لكن العالم، وعلى عكس ما تم الترويج له، لم يدخل جنة الديمقراطية والرخاء، بل أصبح عالما وحيد القطبية، تحكمه وتتحكّم به دولة واحدة، الولايات المتحدة الأمريكية، التي راحت تخوض الصراعات وتوزع الاتهامات وتصنف الدول والشعوب، بين مارقة وغير مارقة. وما أن رتبت روسيا أوضاعها الداخلية، واستشعرت ببعض القوّة تدب في أوصالها، حتى أعلن رئيسها فلاديمير بوتين في مؤتمر ميونيخ للأمن 10 فبراير/ شباط 2007 ثورته على هذا الوضع، ومطالبته بعالم متعدد الأقطاب يكون لروسيا فيه دور تقريري، لتلي هذه الدعوة جولة من السياسات الروسية العدوانية تجاه جورجيا وفصل إقليمي " أوسيتيا" و"أبخازيا" وصولاً إلى احتلالها جزيرة القرم في أوكرانيا وتدخلها في سورية لتحقيق مصالح جيوسياسية.

في ذات الوقت كان العالم يشهد ما يسمى بالنهوض الصيني، الذي بدأ على شكل إغراق أسواق العالم بمنتجات رخيصة وتشكيل كتلة رأسمالية ضخمة في إطار توليفة من الحكم المركزي للحزب الشيوعي الصيني وسياسات رأسمالية في الإنتاج والتجارة، ومثل أي قوّة صاعدة في ظل نظام متشكّل وتقاسمت أطرافه مناطق السيطرة، بدأت الصين في

توسعة مجالها الحيوي في بحر الصين الجنوبي على حساب الدول الأضعف عسكريا، ثم أخذت تغزو أسواق العالم ومنابع ثرواته، بما يحقق لها مكانة مهمة في النظام الدولي.

عملت هذه السياسات مجتمعة، والتي انطلقت من حسابات مصلحية صرفة، إلى إعادة مناخات الحرب الباردة، فبين الولايات المتحدة الأمريكية التي تصرّ على انفرادها بالهيمنة على العالم وتحاول إخضاع منافسيها بالعقوبات الاقتصادية، وبين روسيا والصين اللتين سلكتا طريق ضرب المصالح الأمريكية، وغالبا في المناطق الخطأ، عبر الاستقواء على الدول والشعوب المجاورة، عاد العالم إلى حالة الصراع والتنافس، لكن بصيغة جديدة لم تعد الأيديولوجيا عنصرا مهيمنا فيها، وعادت أجواء الحرب الباردة، لتغلّف العلاقة بين أميركا وروسيا والصين من جديد، وهي العلاقة التي يصبغها تنافس استراتيجي ساخن على المستويات كافة. فروسيا العائدة لفرض نفسها كقوة عظمى مؤثرة وفاعلة إقليميا ودوليا، تهدف لتأمين مصالحها وأمنها القومي، بينما ترفض الولايات المتحدة الأمريكية أن تزاحمها أي من القوى الدولية، وتنظر بعين الريبة للعودة الروسية التي تهدد بكسر الهيمنة الأمريكية. وأدى سعي روسيا لتأمين مصالحها على عجل بعودة الحرب الباردة، حيث صارت العلاقات بينهما «في أدنى مستوياتها» كما وصفها الرئيس بوتين.

إن التوتّر بين الجانبين ليس من قبيل الخلافات العابرة، وإنما تناقضات جوهرية وهيكلية، يصعب تجاوزها في المدى المنظور، وتعبر ثلاثة محاور رئيسة، عن تلك التناقضات، وتمثل مسرحا للمواجهة بين البلدين، وهي (التنافس الاستراتيجي وصراع المكانة بين واشنطن وموسكو، والتناقض بشأن القضايا الإقليمية، والتنافس في سوق الطاقة العالمية) وتخشى أميركا الطموحات الروسية في مناطق استراتيجية، والعودة إلى لعب دور مؤثر على الساحة الدولية، بينما في المقابل هناك قلق من النشاط الأميركي في مناطق النفوذ الروسي بذريعة الترويج للديمقراطية بآليات مختلفة قد تصل إلى تغيير الأنظمة الحاكمة بالقوة .

نهاية الزمن الأيديولوجي.

تمتعت الأيديولوجيا بفترة مزدهرة، حيث حكمت لنحو 52 عاما، منذ العام 1939، الذي بدأت فيه الحرب العالمية الثانية، ومثل الحرب الباردة، كانت الحرب العالمية الثانية حرب أيديولوجيا –الليبرالية الديمقراطية، والشيوعية، والفاشية، والتحرر الوطني .

وكانت الحرب الباردة مواجهة سياسية وإيديولوجية وأحيانا عسكرية بشكل غير مباشر، دارت أحداثها خلال 1947–1991 بين أكبر قوتين في العالم بعد الحرب العالمية الثانية، الولايات المتحدة الأمريكية والاتحاد السوفيتي، وكان من مظاهرها انقسام العالم إلى معسكرين: شيوعي يتزعمه الاتحاد السوفيتي وليبرالي تتزعمه الولايات المتحدة.

كان الاتحاد السوفيتي ينظر إلى نفسه على أنه طليعة الثورة العالمية، وكان ذلك بمثابة الغاية التي تبرر الوسيلة. واعتقدت الولايات المتحدة بالمثل بأنها نور ليبرالي فريد يهدي الأمم التي تعهدت بالدفاع عن حرية كل فرد.

لكن الشيء نفسه لم يعد يمكن أن يقال اليوم عن أي منهما. وفي الحقيقة، لا يمكن أن يقال إن أيا من بلدان العالم الرئيسية يمتلك أيديولوجيا تحفز أفعاله أو تبررها. لم تعد روسيا والصين تسعيان إلى الثورة العالمية بعد الآن. وتسعى إلى تحقيق مصالحها في مناطقها العازلة، بينما تسعى الصين إلى تحقيق مصالحها الوطنية في مياهها الساحلية، ويعتقد حتى أكثر الناس حماسة للاتحاد الأوروبي أنه سيترتب على بروكسل –عند نقطة معينة– أن تهتم بشؤونها الخاصة.

لا حاجة للأيديولوجيا في زمن العولمة.

لقد تغيّر العالم بسرعة نحو مزيد من العولمة، وقد يتسبب في نهاية الديمقراطية الليبرالية بعد سقوط الشيوعية، ليس بسبب الصين الناشئة، ضد القوى الغربية، والهند و "الوكلاء" ولكن بسبب الذكاء الاصطناعي، وقوة البيانات، كما أن قضايا التلوث

والاحتباس الحراري، جعلت البشر يحتاجون إلى إنشاء نظام عالمي جديد لا وجود له اليوم من أجل مواجهة تلك التحديات.

ولا شك في أن ظاهرة العولمة، أي ازدياد درجة التشابك والتفاعل بين الأمم، قد ساعدت على نمو النزعة الاستهلاكية وانتشارها في مختلف الدول، كما ساعدت على إضعاف التمسك من جانب أي أمة أو أي طائفة في داخل أي أمة، بفلسفة أو نظرة للحياة تتعارض مع نظرة الأمم الأخرى.

وليس ثمة صراع أيديولوجي كبير وشيك؛ وما من ستار حديدي جديد يوشك على أن ينسدل على أي من قارات العالم. وهناك قوة عالمية مهيمنة وطبقة ثانية من القوى الصاعدة والهابطة على حد سواء، والتي تريد الحد من هيمنة الولايات المتحدة، لكنها غير قوية بما يكفي لتحقيق هذه الغاية، ويخلق ذلك خلافات. وثمة ميل إلى العودة والحنين إلى حقبة الحرب الباردة لمحاولة فهم هذه الخلافات، وهو ما يشكل مناظرة خاطئة. ثمة نظير أكثر دقة هو حقبة النصف الثاني من القرن التاسع عشر. كان ذلك وقتا لتنافس القوى العظمى الصاعدة؛ وقتا عندما كانت العلاقات بين الدول تدور حول المصالح الوطنية، وليس حول الاعتقاد بالصلاح الذاتي الأيديولوجي.

صراع المصالح: ظواهر في السياسة العالمية.

أدى أفول الأيديولوجيا إلى بروز ظواهر سياسية، على مستوى العلاقات والتحالفات بين القوى الدولية، وولادة أنماط من العلاقات والتحالفات، لم يجد الفكر السياسي توصيفا دقيقا لها، ربما لكونها تحالفات متحركة وغير ثابتة، وربما لأنها وقتية وغير دائمة، وهذا ناتج بدرجة كبيرة عن الفرق بين التقييم الأيديولوجي للصراعات وتفسيرها وكيفية التعاطي معها، من منطلقات جامدة وثابتة، وانتقال العالم إلى نمط الصراع المصلحي الذي يمكن حصر أسبابه وفهمها والسيطرة عليها وإيجاد المخارج المعقولة لها عبر تحقيق الحد الأدنى من توازن المصالح.

وعلى ضوء هذا التغيير بات من الممكن مشاهدة أنماط جديدة من التحالفات، وأشكال من السياسات تتناقض بشكل جوهري مع ما اختزنه العقل السياسي المعاصر من مدركات وخبرة في تحليل الظواهر السياسية وتبويبها.

تحالفات مصلحية متداخلة

تتميز الصراعات المصلحية في عالم اليوم بتداخلاتها الهائلة وتشابكاتها المعقدة، بما يفتح المجال لبناء تحالفات غير معلنة أحيانا، وتحالفات يمكن وصفها ب" القطاعية"، أي تحالف بين أطراف محدّدة في قطاع أو مجال معين، رغم التناقضات العلنية في سياساتها العامة وتوجهاتها الكبرى، وثمة شواهد على هذا الأمر، لعل أهمها:

التحالف الأميركي- الروسي ضد الاتحاد الأوروبي.

لا ترتبط روسيا والولايات المتحدة الأمريكية بأي تحالفات مهيكلة ومؤطرة، بسبب الصراع الحاد بينهما على مدار حقب طويلة من التاريخ المعاصر وتناقض مصالحهما راهنا، وعلى العكس من ذلك، ثمة روابط تحالفية تجمع أوروبا بالولايات المتحدة الأمريكية، وهو تحالف امتد منذ بدايات القرن العشرين وحتى اللحظة، وقد توّج هذا التحالف بالحلف العسكري الشهير" حلف الناتو" الذي تأسس لحماية أوروبا من الأطماع السوفيتية وبهدف الحفاظ على أمنها واستقلالها.

غير أنه مع وصول إدارة ترامب للسلطة، بدأت التوجهات الأمريكية تنحرف باتجاه ضرب أهم ركائز الأمن والاستقرار الأوروبي، عبر تشجيع تفكيك الاتحاد الأوروبي وتحطيم مؤسساته وإعادة الوضع إلى ما كان عليه قبل الوحدة الأوروبية، وتفضّل الولايات المتحدة الأمريكية التعامل مع الدول الأوروبية كل على حدة وليس منظمة إقليمية واحدة. وتبدو إدارة الرئيس ترامب مقتنعة بأن تكتل الأوروبيين داخل اتحادهم

سيجعلهم أكثر قوة في مفاوضاتهم التجارية والاقتصادية، عكس ما سيكون عليه الحال لو جرى التفاوض مع كل دولة لوحدها.

ولم يخفِ الرئيس الأميركي، ترامب، انتقاداته للاتحاد الأوروبي عندما دعم القرار البريطاني بالخروج منه، متحدثا عن أن دولاً أخرى ستتخذ المسلك ذاته. ويعدّ توتر العلاقة بين أمريكا والاتحاد الأوروبي بالشكل الحالي غير مسبوق، إذ طالما كانت واشنطن ترى أن مصلحتها هي في أوروبا موحدة وقوية، أولاً لمواجهة الاتحاد السوفييتي سابقا في الحرب الباردة، ثم لأجل مشاركة قيم الديمقراطية والتعاون التجاري بعد انهيار جدار برلين.

ولم يقف الاتحاد الأوروبي صامتا أمام محاولات ترامب دفعه للانهيار، فقد وجه دونالد توسك، رئيس المجلس الأوروبي، رسالة إلى رؤساء حكومات ودول الاتحاد يقول فيها إن "أمريكا ترامب باتت في مستوى دولتي روسيا والصين وحركة الإسلام الراديكالي". وكتب توسك أنه للمرة الأولى في تاريخ الاتحاد الأوروبي، هناك قوى خارجية متعددة تحمل نسقا معاديا لهذه المنظمة القارية.

ويتحالف ترامب بذلك مع الرئيس الروسي فلاديمير بوتين الذي يعتقد أن الاتحاد الأوروبي يشكل خطرا جيوسياسيا على النظام السياسي الروسي، كما يؤثر على المجال الحيوي لروسيا، عبر انضمام الدول التي كانت تدور في الفلك الروسي للاتحاد الأوروبي، فقيم الديمقراطية والانتخابات الحرّة والشفافية تشكّل خطرا على نظام الحكم الروسي الذي لم يزل بأساليب أقل ما يقال عنها أنها غير ديمقراطية، عبر سيطرة نخب سياسية واقتصادية على ثروات البلاد ومحاربة كل معارضة لها.

ويشجع ترامب وبوتين قوى يمينية متطرفة في أوروبا للصعود إلى سدة الحكم واستلام السلطة، والمعلوم أن هذه القوى ترفض الوحدة الأوروبية وتدعو إلى تفكيك الاتحاد الأوروبي وإلغاء مؤسساته والعودة إلى الدولة القومية، وقد ثبت أن بوتين لا يكتفي بالدعوة لتفكيك الاتحاد الأوروبي ونقد القيم الأوروبية، لكنه يتورط في تقديم دعم مالي

للأحزاب اليمينية المتطرفة، في النمسا والمجر وفرنسا، كما تلقت الأحزاب اليمينية دعما سياسيا من إدارة ترامب، عبر مستشاره السابق، ستيف بانون، في انتخابات البرلمان الأوروبي الأخيرة.

التحالف الأوربي -الروسي ضد أميركا في مجالات المال والغاز.

رغم الخلافات الهائلة بين الاتحاد الأوروبي وروسيا، وخاصة في المستويات السياسية والعسكرية، غير أن ذلك لم يمنع الطرفين من التعاون والتحالف لحماية مصالحهما المشتركة في مواجهة الولايات المتحدة الأمريكية، حيث اتفق الطرفان على تشكيل مجموعة عمل لتقليص حصة الدولار في ميزان المدفوعات بينهما والانتقال إلى الروبل واليورو، ما ينذر بحرب عملات في ذروة النزاع التجاري.

وبرّر الطرفان توجههما هذا انطلاقا من إدراكهما أهمية استخدام العملات الوطنية في تجارة الطاقة بهدف تقليل المخاطر التي قد يتعرض لها قطاعا الأعمال في روسيا والاتحاد الأوروبي، وحسب بيانات المركزي الروسي، فإن حصة التعاملات بالروبل في تجارة روسيا مع الاتحاد الأوروبي تبلغ 8.3 بالمائة فقط، فيما تشكل حصة اليورو 34.3 بالمائة أما الحصة الأكبر فتعود للدولار 54 بالمائة. ويرجع ذلك بشكل أساسي كون إمدادات النفط والغاز يتم احتسابها بالدولار.

غير أن تضارب المصالح الأوروبية- الأمريكية ظهر بشكل جلي في معارضة أميركا لمشروع خط أنابيب الغاز الألماني-الروسي "نورد ستريم 2" بذريعة أن هذا الخط يمكن أن يزيد من تعرض أوروبا لعمليات ابتزاز روسية في مجال الطاقة، وأن تبعية الاتحاد الأوروبي للغاز الروسي، تنطوي على مخاطر لأوروبا والغرب بشكل عام.

واعتبرت وزارة الخارجية الأمريكية، عبر رسالة وجهها سفراؤها في برلين ريتشارد جرينيل ونظيراه في الدنمارك وبروكسل، كارلا ساندس وجوردون سوندلاند "أن نورد ستريم 2 يمد بشيء أكبر من مجرد غاز روسي. فستنتشر قوة روسيا وتأثيرها عبر بحر البلطيق

وتصل حتى أوروبا"، موضحين أن خط أنابيب الغاز سوف يُمكن روسيا من مواصلة تقويض سيادة أوكرانيا واستقرارها، وحذروا أيضا من" إمكانية تمويل مصانع التضليل الموجهة ضد المؤسسات الديمقراطية في أوروبا والولايات المتحدة الأمريكية من خلال الإيرادات التي تقدر بمليارات من أوروبا."

وفي يوليو/تموز الماضي لـ 2018، وعلى هامش لقاء مع الأمين العام لحلف الشمال الأطلسي "الناتو"، صعّد الرئيس الأميركي دونالد ترامب من نبرة هجومه على ألمانيا بشكل غير مسبوق، حين وصف العاصمة الفعلية لأوروبا بأنها "أسيرة لروسيا"، مدعيا أنها تحصل على نسبة 60-70% من احتياجاتها من الطاقة من روسيا، ومُنَوِّهًا أنه "من غير المناسب أن تدفع الولايات المتحدة مقابل الدفاع عن أوروبا في مواجهة روسيا، في حين أن ألمانيا، أكبر اقتصادات أوروبا، تنخرط في صفقات الغاز مع موسكو" .

لا شك أن الدافع الأساسي للهجوم الأميركي على الغاز الروسي، يرجع إلى رغبة الولايات المتحدة الأمريكية في زيادة مبيعاتها في أوروبا من الغاز الطبيعي المسال، الذي يلقب باسم "غاز الحرية"، بعد أن تحولت إلى أكبر منتجي الغاز في العالم وبات لديها فوائض هائلة، لكن المشكلة أن توريد الغاز لأوروبا من أميركا يتم عبر صهاريج تعبر الأطلسي، بعكس الغاز الروسي الذي يصل إلى أوروبا من خلال شبكة خطوط أنابيب تم وضعها منذ عقود وبسعر أقل بكثير.

وترفض ألمانيا الخضوع للطلب الأميركي، بناء على اعتبارات مصلحية وطنية صرفة ولا تلتفت كثيرا لقضية العقوبات التي تفرضها أميركا على المؤسسات الروسية، حيث تشدّد وزارة الاقتصاد الألمانية على أنها تعارض فرض العقوبات خارج أراضي الدولة، كما ترى أن العلاقة الروسية تمتثل للقانون الوطني والأوروبي.

السياسات الصينية الإمبريالية في أفريقيا.

طالما دعمت جمهورية الصين الشعبية الدول الإفريقية منذ تولي الحزب الشيوعي الصيني السلطة عام 1949. وفي عهد ماو، دعمت الصين حركات التحرر الإفريقية في محاولة لتعزيز الماوية وموازنة النفوذ السوفيتي والأمريكي. وفي معظم أنحاء إفريقيا اليوم، تعتبر الصين القوة الإمبريالية.

لا تستهدف الصين بوجودها في إفريقيا في الوقت الحالي تعزيز الماوية، بل تستهدف السيطرة على مواردها وشعبها وإمكاناتها، وقد غيَّرت الصين المشهد الاقتصادي الإفريقي في القرن العشرين تغييرا جذريا، بدءا من بناء السكك الحديدية في كينيا، ومرورا ببناء الطرق في المناطق الريفية في إثيوبيا، ووصولاً إلى إدارة المناجم في الكونغو.

غير أنَّ الصين تتعامل مع أفريقيا بذات الأسلوب الذي تعاملت به الإمبريالية الاستعمارية، من حيث تركيزها على تبعية الدول التي تستثمر بها، ونهب مواردها الأولية وثرواتها، دون أن يؤدي ذلك بالضرورة إلى حصول تنمية حقيقية مستدامة.

وتكافح الدول الإفريقية لسداد قروضها للصين، التي تتفاخر بأنها لا تضع شروطا سياسية مقابل استثماراتها، كما لا تتدخل في الشؤون السياسية لتلك البلاد، لكن الإشكالية أن الصين تشترط على الدول الأفريقية أن يتم سداد الديون عبر رهن أصولها الإستراتيجية، موانئ ومطارات ومناجم المعادن، وعلى سبيل المثال قد تستولي الصين على ميناء مومباسا، في كينيا، نتيجة الاقتراض الضخم من جانب الحكومة.

وتواصل الصين مدح إسهامها في إنشاء البنيات التحتية في بلدان أفريقيا. تشكل هذه البنيات التحتية بوجه خاص فرصة تستغلها نخب بلدان أفريقيا للإثراء ولا تناسب بالضرورة حاجات السكان الاقتصادية والاجتماعية، خاصة عندما يتعلق الأمر ببناء ملاعب أو قصور مؤتمرات أو قصور رئاسية كما الحال في بوروندي أو موريتانيا أو السودان أو موزمبيق. لكن هذه الاستثمارات تثقل بشكل كبير ديون بلدان أفريقيا. وفي الواقع، في معظم الحالات، تصبح مضمونة بأصول البلدان، التي قد تكون المناجم أو الموانئ أو المنتجات المعدنية أو الامتيازات النفطية.

وقد حذّر بعض رجال الساسة والاقتصاد في أفريقيا من خطر الإمبريالية الصينية على مستقبل أوروبا وكتب مدير البنك المركزي النيجيري في صحيفة فاينانشيال تايمز إن «أفريقيا بإرادتها الحرة والمطلقة تسلم نفسها لاستعمار جديد». وخرج أيضا جاكوب زوما رئيس جمهورية جنوب أفريقيا، خلال زيارة له في بكين، ليقول أمام الرئيس الصيني السابق إن التجارة بين الصين وأفريقيا يجب أن تكون متوازنة «وكما تعرف يا سيادة الرئيس، هذا النمط من التجارة لا يمكن أن يدوم في الأجل الطويل».

ويعتبر أكول نيوك دوك، مستشار سياسة دولية من جنوب السودان، "أن إفريقيا على أعتاب حقبة جديدة في تاريخها ونهضتها. فهذه القارة التي تحرَّرت من براثن الاستعمار ومن بعده الإمبريالية الجديدة لديها الفرصة لتصبح مركزا للقوة الاقتصادية، من أجل توفير الرخاء لسكانها المتزايدين، لكنها للأسف تواجه في الوقت الحاضر خطرا جديدا: الإمبريالية الصينية، أي خطر الوقوع تحت سيطرة الصين إلى حدٍّ كبير، من خلال الاستثمار الاقتصادي والقروض الصينية .

ويرى الكثيرون في إفريقيا وخصوصًا جنوب صحرائها –بعد سلسلة أحداث– أن نظرة المؤسسات الصينية تجاه إفريقيا لم تخلُ من العنصرية, والكبريائية التي يشكون منها في علاقاتهم مع الغرب؛ رغم "الصداقة العميقة"، والتعاون الاستثماري بين الصين وإفريقيا.

وعلى الرغم من الاتهامات, والتكهنات بإعاقة الدول الإفريقية بالديون والاستيلاء على سيادتها ومواردها وأسواقها المحلية, إلا أن الصين تنكر بشدة ممارستها لكل ما سبق، وتجادل بدلاً من ذلك بأن "كرمها" يوضِّح التزامها بالتنمية الاقتصادية والاجتماعية في العالم.

المصالح أولاً.. وأخيراً.

هل انتهى، بسقوط الأيديولوجيا، زمن التلاعب بالعقول؟، من المفترض أن كل شيء بات مكشوفا، ولم تعد تلك القشور، التي طالما اعتمدت الإستراتيجيات الكبرى تغليف سياساتها وأهدافها بها، قادرة على أداء ذات الدور، لقد قالها كبار إستراتيجيو العالم، إنه الاقتصاد يا ... إنها المصالح التي تتشكّل على أساسها التحالفات وتبنى على وقعها الإستراتيجيات، وتخضع، أعتى القيم، لاشتراطاتها ومتطلباتها.

سياسة ترامب تجاه روسيا والصين،
وتداعياتها على إعادة الاصطفاف الدولي
وتماسك التحالف الغربي

عمـــرو عبد العاطي

باحث متخصص في الشئون الأمريكية بمؤسسة الأهرام - القاهرة

بعد عقود من الهيمنة الأمريكية الأحادية على النظام الدولي في أعقاب نهاية الحرب الباردة، وانهيار الاتحاد السوفيتي السابق، يواجه تفرد الولايات المتحدة العالمي – في الوقت الراهن – تحديًا من القوى الدولية الصاعدة، لا سيما من الصين روسيا، الدولتين اللتين تتعطشان للثروة والأفضلية الدولية، وتحدي القيادة الأمريكية بحسب كثير من الدراسات الأمريكية التي ترى أن صعودهما سيكون مستمرًا وأمرًا مؤكدًا في وقت تتراجع فيه مصادر القوة الأمريكية (السياسية، والاقتصادية، والعسكرية،...)، والتي أضحت في تزايد منذ أداء الرئيس "دونالد ترامب" اليمين الدستورية في العشرين من يناير ٢٠١٧.

وفي محاولة لاحتواء النفوذ الصيني والروسي المتصاعد عالميًّا وإقليميًّا بصورة غير مسبوقة تتبنى الإدارة الأمريكية الحالية استراتيجية تعمل على تقويض مصادر قوة بكين وموسكو، وتقليل استفادتهما "المجانية" من المؤسسات الدولية، التي أسستها الولايات المتحدة في أعقاب الحرب العالمية الثانية، والتي يؤسس عليها النظام الدولي الراهن، والدخول في "منافسة استراتيجية" معهما. وهو الأمر الذي دفع بعض الكتابات الأمريكية والغربية للحديث عن بداية "حرب باردة" جديدة بين الولايات المتحدة والصين وروسيا، على غرار تلك التي كانت بين الأولى والاتحاد السوفيتي السابق، ولا سيما مع استغلال مسئولي بكين وموسكو السياسات الأمريكية ضدهما في الجمع بين القوة الاقتصادية

الصينية والجرأة السياسية الروسية لتحدي الولايات المتحدة على الساحة الدولية بشكل أفضل.

الرؤية الأمريكية للقوتين الصينية والروسية

تعتبر إدارة الرئيس الأمريكي "دونالد ترامب" الصين وروسيا قوتين تعديليتين في النظام الدولي الذي أسسته الولايات المتحدة منذ سبعة عقود في أعقاب نهاية الحرب العالمية الثانية، والذي تنفرد بقيادته منذ نهاية الحرب الباردة وسقوط الاتحاد السوفيتي السابق في تسعينيات القرن المنصرم، وأنهما غير راضيتين عن وضعهما في النظام الراهن، بجانب سعيهما إلى تشكيل آخر يؤسس على قيمهما ومبادئهما غير الليبرالية، وبما يخدم مصالحهما بالأساس.

ولهذا، نصت استراتيجية الأمن القومي التي صدرت في ديسمبر ٢٠١٧، عن عودة ظاهرة "التنافس بين القوى العظمى"، والتي أخذت في مراحل تاريخية سمة الصراع العسكري، في وقت تسعى فيه القوتان الروسية والصينية إلى تأكيد نفوذهما الإقليمي والدولي، واستثمار قوتهما الاقتصادية في بناء ترسانة عسكرية قادرة على منافسة الولايات المتحدة عالميًّا، وإخراج قواتها العسكرية من آسيا وأوروبا، بجانب حرمانها من الوصول إلى مناطق نفوذها التقليدي، والأزمات الدولية التي تنخرط فيها.

يشير تقرير لمعهد ستوكهولم الدولي لأبحاث السلام عن الإنفاق العسكري العالمي خلال العام الماضي (٢٠١٨) إلى أن الإنفاق العسكري الصيني ارتفع إلى ٢٥٠ مليار دولار، والذي يمثل زيادة ٥٪ عما كان عليه في عام ٢٠١٧، و٨٣٪ من إنفاقها العسكري خلال عام ٢٠٠٩. ويأتي الإنفاق العسكري الصيني في المرتبة الثانية بعد نظيره الأمريكي الذي يصل إلى ٦٤٩ مليار دولار خلال العام الماضي.

وعلى الرغم من أن الإنفاق العسكري الروسي والذي بلغ خلال العام الماضي ٦١،٤ مليار دولار وفقًا لتقرير المعهد، والذي يمثل انخفاضًا بنسبة ٢٢٪ عن الإنفاق

العسكري لعام ٢٠١٦، الذي يُعد الأعلى منذ نهاية الحرب الباردة، وخروج موسكو من تصنيف الدول الخمس الأكبر إنفاقًا عسكريًّا عالميًّا للمرة الأولى منذ عام ٢٠١٦، لا تزال القوة العسكرية الروسية تشكل تهديدًا للقوة العسكرية الأمريكية، ولحلفاء الولايات المتحدة الأوروبيين، ولا سيما في ظل تزايد الاستثمار الروسي في التكنولوجيا العسكرية المتقدمة، وقوتها النووية، التي تأتي في المرتبة التالية لواشنطن .

وفي سياق متصل، أشار ملخص استراتيجية الدفاع الوطني لعام ٢٠١٨ التي نشرتها وزارة الدفاع الأمريكية (البنتاجون) إلى أن الصين وروسيا منافسان استراتيجيان للولايات المتحدة، وترغبان في تشكيل عالم يلائم نموذجهما الاستبدادي، ويقوضان النظام الدولي القائم من داخله من خلال استغلال مميزاته، وفي نفس الوقت هدم مبادئه والقواعد التي تحكمه. ولهذا، فإن المنافسة الاستراتيجية طويلة الأمد مع بكين وموسكو ستكون الأولوية الرئيسة للبنتاجون، بسبب حجم التهديدات التي تشكلها الدولتان ضد أمن ورفاهية الولايات المتحدة، وخاصة مع إمكانية زيادة تلك التهديدات في المستقبل.

وقد فصلت الاستراتيجيتان (استراتيجية الأمن القومي لعام ٢٠١٧ واستراتيجية الدفاع الوطني لعام ٢٠١٨) التهديدات التي تمثلها الصين وروسيا لأمن وازدهار الولايات المتحدة، والنظام الدولي الراهن، حيث أشارتا إلى أن موسكو تستغل حق النقض في مجلس الأمن الدولي التابع لمنظمة الأمم المتحدة من أجل فرض هيمنتها على الدول المجاورة في قراراتها الحكومية، والاقتصادية، والدبلوماسية؛ وكذلك تدمير حلف شمال الأطلنطي (حلف الناتو)؛ وتغيير الهياكل الأمنية والاقتصادية في أوروبا ومنطقة الشرق الأوسط لصالحها. فضلا عن أنها تستخدم التكنولوجيات الناشئة كجزء من استراتيجيتها السيبرانية؛ للتأثير على الرأي العام حول العالم، وتشويه وتقويض الديمقراطية الغربية، ما يُشكل مصدر قلق للولايات المتحدة.

وعن الصين أشارتا إلى أنها تستخدم الاقتصاد من أجل تخويف جيرانها، وفي الوقت ذاته تقوم بعسكرة الأوضاع في بحر الصين الجنوبي، حيث تسعى للهيمنة

الإقليمية على مناطق النفوذ الأمريكي في قارة آسيا وخارجها على حد سواء، وتعمل على تعزيز قوتها العسكرية، وتنويع ترسانتها النووية استنادًا على نموها الاقتصادي الذي يعود بالأساس إلى استفادتها من مميزات الاقتصاد العالمي الذي تتولى الولايات المتحدة حمايته، وسرقة حقوق الملكية الفكرية الأمريكية، التي تقدر بمئات المليارات من الدولارات. وهو الأمر الذي يؤدي في التحليل الأخير إلى تقويض المزايا التنافسية طويلة الأمد للقوة الأمريكية على الساحة الدولية.

احتواء الصعود الصيني

يرفض الرئيس الأمريكي "ترامب" العديد من المقاربات التي انطلقت منها سياسات الإدارات الديمقراطية والجمهورية السابقة التي تقوم على "المشاركة الاستراتيجية" مع الصين، والتي ستجعلها قوة مسئولة في النظام الدولي، حيث يتبنى مقاربة "المنافسة الاستراتيجية". وهذا التحول يلقى كثيرا من الدعم من الحزبين الجمهوري والديمقراطي رغم اختلافاتهم حول العديد من سياسات الإدارة على الصعيدين الداخلي والخارجي، انطلاقا من اتفاق الرؤى على أن بكين هي التحدي الجيوستراتيجي الرئيسي للولايات المتحدة في الوقت الراهن، وخلال العقود القادمة.

وعليه، تبنى نهجًا متشددًا تجاه الصعود المتنامي للصين على الساحة الدولية من خلال الحد من استفادة بكين من مميزات حرية التجارة العالمية التي أسس عليها النظام الدولي، والحصول على أسرار التطور التكنولوجي الغربي، حيث فرض ضرائب على البضائع الصينية للولايات المتحدة، وفرض قيودا على دخول الشركات الصينية إلى السوق الأمريكي، وكذلك إلى أسواق حلفاء الولايات المتحدة الأوروبيين بدعوى حماية الأمن القومي الأمريكي والأوروبي، وذلك في محاولة لعرقلة الصعود الصيني عالميًّا.

وفي إطار سياسة الإدارة الأمريكية لاحتواء الصعود والتأثير العالمي المتزايد للصين، فإنها تسعى إلى الحد من وصول بكين إلى موارد الطاقة، التي تعد المحرك

الرئيس لاقتصاد الدولة الصاعدة بقوة، حيث تعد الصين ثاني بلد مستهلك للطاقة، وثالث مستورد للنفط في العالم. وعلى الرغم من الجهود الكبيرة التي تبذلها لتنويع مصادر إمداداتها من الطاقة خلال السنوات الماضية إلا أنها تظل الأكثر اعتمادًا على موارد الطاقة المستوردة من الخارج.

ولهذا، فإن أي تهديد أمريكي لمصادر استيراد الصين النفط الخام، سيُمثل تهديدًا كبيرًا لأمن الطاقة للقوة الآسيوية الصاعدة، وسيوجه ضربة قوية لاقتصادها، فضلا عن أنه سيساعد الولايات المتحدة في حربها التجارية ضد بكين واحتوائها.

وفي الوقت ذاته، يضغط الرئيس على عديد من الدول الحليفة للولايات المتحدة لوقف الاعتماد على التقنيات التكنولوجية الصينية، مثل تكنولوجيا الجيل الخامس، ومنع بيع مواد تكنولوجية أمريكية إلى شركات صينية، والعمل على وقف الاستثمار الصيني داخل الولايات المتحدة، والضغط على شركاء واشنطن الدوليين لتبني سياسات مماثلة لتلك التي تتبناها إدارته.

ولم تقتصر سياسة إدارة ترامب على محاولة إضعاف صعود الاقتصاد الصيني، وإنما بدأت في التركيز على مواجهة النفوذ الصيني المتزايد في القارة الإفريقية، ولا سيما بعد أن وصلت استثمارات بكين المباشرة خلال العامين الأخيرين بالقارة إلى ما يزيد على 6,4 مليار دولار.

تصعيد المواجهة ضد روسيا

مع فوز الرئيس الأمريكي "دونالد ترامب" في الانتخابات الرئاسية الأمريكية التي أجريت في الثامن من نوفمبر ٢٠١٦، وتصاعد الحديث داخل واشنطن عن تدخل موسكو في تلك الانتخابات لصالح المرشح الجمهوري، وإعلان "ترامب" أكثر من مرة إعجابه بالرئيس الروسي "فلاديمير بوتين"، كان ينظر للأول على أنه الرئيس الأمريكي

الذي سيعمل على تحسين العلاقات الأمريكية–الروسية بعد سنوات من التنافس الاستراتيجي، وتوترها في أعقاب غزو موسكو لجورجيا وأوكرانيا، وضم شبه جزيرة القرم.

وقد ظلت روسيا لفترة طويلة تعتبر "ترامب" الورقة الرابحة في استراتيجيتها لتحسين العلاقات مع الولايات المتحدة. لكن بعد مرور عامين ونصف العام على رئاسته أيقنت موسكو أنه لا يختلف كثيرًا عن الرؤساء الأمريكيين السابقين من الحزبين الجمهوري والديمقراطي، حيث عجز – حتى الآن – عن تنفيذ ما وعد به من عمل على تحسين العلاقات. وفي المقابل تبنى وجهات نظر واستراتيجيات المؤسسات السياسية والأمنية والاستخباراتية بتصعيد حدة التنافس الاستراتيجي بين العدوين التقليديين.

فمع بداية إدارته اعتمد الرئيس الأمريكي – وإن كان على مضض – فرض عقوبات على روسيا في منتصف عام ٢٠١٧ بسبب اتهامات وكالات الاستخبارات الأمريكية تدخل موسكو في الانتخابات الرئاسية لعام 2016. كما أيد طرد 60 دبلوماسيًّا روسيا (وهو ما يقرب إجمالي الأفراد الروس الذين طردتهم الدول الأوروبية)، وإغلاق القنصلية الروسية في سياتل بسبب تسميم جاسوس روسي سابق وابنته في مدينة سالزبري البريطانية عام 2018، وفي الأول من أغسطس ٢٠١٩ فرضت الإدارة الأمريكية حزمة جديدة من العقوبات على روسيا، تضم عدم تقديم أي قرض أو مساعدة تقنية إليها من جانب المؤسسات المالية الدولية التي تسيطر عليها الولايات المتحدة، وفرض قيود تمنع المصارف الأمريكية من تمويل الديون السيادية الروسية، وعلى صادرات السلع والتكنولوجيا إلى موسكو.

وفي سياق مواجهة القوة العسكرية الروسية الصاعدة، أعلنت الولايات المتحدة انسحابها من معاهدة القوى النووية متوسطة المدى التي أبرمتها مع روسيا عام 1987، وذلك بعد أن رأت أن موسكو تنتهك المعاهدة وهو ما نفاه الكرملين. وفي أعقاب الانسحاب أعلنت وزارة الدفاع الأمريكية عن إجراء تجربة لصاروخ متوسط المدى، والذي كان ممنوعًا وفقًا للمعاهدة، والتي تأتي في أعقاب تصريحات لوزير الدفاع الأمريكي

"مارك إسبر" بأنه سيقوم بتفعيل برامج للتجارب الصاروخية التي كانت معطلة بسبب المعاهدة مع روسيا. وقد أثارت تلك التجربة حفيظة موسكو وبكين لأنها تصعد من حدة سباق التسلح الدولي، والذي سيكون له تأثيرات سلبية بحسب تصريحات قيادات الدولتين على الأمن الإقليمي والعالمي.

ومنذ توليه منصبه في العشرين من يناير ٢٠١٧، والرئيس "ترامب" يتحسب من الاتفاقيات الدولية التي يرى أنها تحد من حرية الحركة الأمريكية على الساحة الدولية، انطلاقا من شعاره "أمريكا أولًا". وقد هدفت الإدارة من الانسحاب من اتفاقية معاهدة القوى النووية متوسطة المدى، مراجعة مفهومي توازن القوى والردع مع روسيا ليكونا أكثر ملاءمة لها، والحفاظ على الهيمنة العسكرية الأمريكية، في ظل الاستثمار الروسي في قوتها العسكرية، واستخدامها لتعزيز مكانتها الإقليمية والدولية على حد سواء.

التحالف الاستراتيجي الروسي الصيني

لتوافق رؤية القوتين الصينية والروسية حول أن الولايات المتحدة تشكل تهديدًا جيواستراتيجيًّا لنفوذهما الدولي المتنامي خلال السنوات الماضي، شرعت موسكو وبكين في تشكيل تحالف استراتيجي بدأت ملامحه تتجلى خلال زيارة الرئيس الصيني إلى روسيا في الخامس من يونيو ٢٠١٩، حيث وافقت القوتان على الارتقاء بعلاقاتهما إلى شراكة استراتيجية.

وفي إطار هذا التحالف بدأت روسيا التي كانت حريصة على حجب أحدث تكنولوجياتها العسكرية عن الصين، تبيع لها أنظمة الدفاع الجوي الأكثر تطورًا، بجانب عملهما المشترك في مجال البحث وتطوير الصواريخ والطائرات بدون طيار. ومؤخرًا وافقت موسكو على أن تبيع لبكين أحدث تقنياتها العسكرية، بما في ذلك صواريخ أرض – جو (اس ٤٠٠) وطائرات مقاتلة من طراز (سو–35). بجانب تخطيط الدولتين لعقد مناورات عسكرية مشتركة بشكل منتظم بعدما كانت متقطعة لأكثر من عقد.

وسياسيًّا، تشهد مواقفها تنسيقًا غير مسبوق في القضايا الدولية الرئيسية. فخلال التصويت في مجلس الأمن الدولي فإنهما تتوافقان بنسبة 98%. فضلًا عن عملهما على إنشاء وتعزيز منظمات جديدة تنافس المنظمات الدولية التقليدية التي أسستها الولايات المتحدة في أعقاب نهاية الحرب العالمية الثانية، والتي يقوم عليها النظام الدولي الراهن، بما في ذلك منظمة شانغهاي للتعاون والبريكس.

ويرجع هذا التحالف بين القوتين الروسية والصينية بصورة رئيسية لقناعتهما أن الإدارات الأمريكية الجمهورية والديمقراطية المتعاقبة تعمل على الحد من قوتهما، وتقويض أنظمتهما الحاكمة، حيث يرى قادتهما أن الولايات المتحدة لا تتحدى فقط مصالحهما في أوروبا الشرقية أو بحر الصين الجنوبي، بل تسعى بجدية إلى تقويض أنظمتهما السياسية، عن طريق تقويض سيطرة كل زعيم داخل مجتمعه. وذلك لتبنيهما نظرة جيوسياسية مشتركة لعالم متعدد الأقطاب، ورغبتهما في احتواء القوى الغربية، وتحويل مركز القوة والقيادة الدولية من الغرب ممثلًا في الولايات المتحدة إلى الشرق ممثلًا في روسيا والصين، الأمر الذي يجعل شراكتهما أمرًا لا مفر منه.

وقد رغبت روسيا من تعزيز تعاونها مع الصين من خلال شراكة استراتيجية تعوض خسائر اقتصادها الذي تأثر من العقوبات الأمريكية والدولية المفروضة عليه في أعقاب سيطرتها على شبه جزيرة القرم في عام ٢٠١٤، ولهذا، سعت موسكو إلى توطيد علاقاتها الاقتصادية مع بكين لا سيما في مجالي الطاقة والأسلحة. وفي عام ٢٠١٨ وصل حجم التجارة بين القوتين إلى مستوى قياسي بلغ ١٠٨ مليار دولار.

وتعد الصين سوقًا حيويًّا للمواد الخام الروسية، حيث تعتمد شركة النفط الوطنية الروسية "روسنفت" على التمويل الصيني، وتقوم بتحويل نفطها إلى بكين بشكل متزايد. ومع سعي موسكو للتهرب من هيمنة الدولار، أصبح اليوان الصيني جزءًا أكبر من احتياطاتها من العملات الأجنبية، حيث انخفضت حصة الدولار بمقدار النصف إلى 23٪ خلال عام 2018، في مقابل ارتفاع حصة اليوان من 3٪ إلى 14٪. كما أن

المكونات الصينية ذات أهمية حيوية لأنظمة الأسلحة الروسية المتقدمة. فضلًا عن أنها مصدر أجهزة الشبكات والأمن التي يحتاجها بوتين للسيطرة على شعبه. وفي يونيو ٢٠١٩، أبرمت روسيا صفقة مع شركة "هواوي" الصينية، لتطوير معدات الجيل الخامس.

في خطابه حالة الأمة الذي ألقاه في فبراير ٢٠١٩، أعرب الرئيس الروسي "فلاديمير بوتين" عن ثقته في أن العلاقات مع الصين ستعزز الأمن والرخاء الروسيين، خاصة أنه يربط خطته للاتحاد الاقتصادي الأوروبي الآسيوي مع مبادرة الصين الطموحة "الحزام والطريق "، وهو برنامج ضخم للبنية التحتية يهدف إلى ربط بكين مع آسيا وأفريقيا وأوروبا.

وفي مقابل الرؤية التي تتحدث عن أهمية التحالف الاستراتيجي بين القوتين، وتهديده المكانة والقيادة الأمريكية للنظام الدولي الذي تتربع الولايات المتحدة بقيادته منفردة منذ انهيار الاتحاد السوفيتي السابق، هناك رؤية مقابلة تتحدث عن أن احتمالات هذا التحالف الذي تبلور خلال السنوات الماضية واستمراره على المدى البعيد ضعيفة للغاية، وذلك لجملة من الأسباب، منها أن الفوائد الاقتصادية التي تحققها روسيا من علاقاتها مع الصين منخفضة مقارنة بحجم التجارة الثنائية بين الصين والولايات المتحدة، وكذلك بين الأولى والاتحاد الأوروبي، والاتحاد الروسي والأخير. كما اعتمدت موسكو بشكل أساسي على الأسواق المالية الغربية للحصول على القروض المالية؛ لتعزيز اقتصادها الذي يواجه كثيرا من الأزمات.

ويضاف إلى ما سبق، الاختلاف الجلي بين البلدين في المصالح والقيم والثقافة الوطنية، ولأن الصعود الصيني الدولي سيؤثر وسيُهدد المصالح الاقتصادية والجيوسياسية الروسية. وكذلك الإرث التاريخي للاشتباكات الحدودية بين القوتين. ومن المحتمل أن ينهار التعاون الصيني–الروسي إذا توترت العلاقات الثنائية بين البلدين.

تداعيات على النظام الدولي

تشكل المنافسة الاستراتيجية بين الولايات المتحدة الأمريكية والصين وروسيا تحديًّا قويًّا للمنظمات الدولية، حيث أصبحت معرضة للاستغلال من قبل القوتين، لكون التنافس بينهم ليس فقط على السيطرة على الموارد، والوصول إلى الأسواق، والهيمنة تكنولوجيًّا، بل أخذ منحى السيطرة على القواعد التي تحكم عمل المؤسسات الدولية الاقتصادية. ففي مقابل المؤسسات المالية التي أسستها الولايات المتحدة في أعقاب الحرب العالمية الثانية وفي مقدمتها صندوق النقد الدولي، والبنك الدولي أسست بكين في عام ٢٠١٥ بنك الاستثمار الآسيوي في البنية التحتية كمؤسسة مالية دولية متعددة الأطراف. وقد رفضت واشنطن الانضمام لها، وأجبرت حلفاءها على القيام بذلك أيضًا.

وكشف النزاع التجاري الصيني–الأمريكي عن تراجع دور الولايات المتحدة كحامية لقيم التجارة الحرة، والمبادئ الديمقراطية في الاقتصاد العالمي، والتي أسس عليها النظام الدولي الراهن، حيث أصبحت تتبنى الحمائية التجارية، وتفرض مع زيادة منافسيها العديد من القيود، بما في ذلك شن حرب جمركية ليس على خصومها بل على حلفائها التقليديين، والتي ستضر بالاقتصاد العالمي القائم على دعم نظام تجاري متعدد الأطراف.

وقد شجع الموقف الروسي والصيني المناهض للسياسات الأمريكية التي تعمل على تهديد قيم وقواعد النظام الدولي الذي تعهدت الولايات المتحدة بصونه على مدى سبعة عقود خلال إدارة الرئيس "دونالد ترامب" إلى أن يتخذ حلفاء واشنطن في آسيا وأوروبا سياسات تتعارض مع توجهات الإدارة الأمريكية الحالية، وهو ما تجلى بصورة جلية في رفض القوى الكبرى الانسحاب الأمريكي من الاتفاق النووي بين إيران ومجموعة (٥+١) في الثامن من مايو ٢٠١٨، وإعلانها استمرار تمسكها بهذا الاتفاق، والالتزامات التي يفرضها، ومواجهة العقوبات المفروضة على طهران.

في التحليل الأخير... إن الاحتواء الأمريكي المزدوج خلال إدارة الرئيس "دونالد ترامب" للقوتين الروسية والصينية يدفعهما لتعزيز تحالفهما الاستراتيجي لمواجهة القوة

الأمريكية، بينما كانت الإدارة الأمريكية السابقة الجمهورية والديمقراطية تتجنب دفعهما للتقارب. ومع تشكل هذا التحالف لا تتحرك الولايات المتحدة وحلفاؤها بسرعة كافية لمواجهة الجهود التي تبذلها موسكو وبكين لإثارة عدم الاستقرار بتكتيكات "المنطقة الرمادية" التي لا ترقى إلى مستوى التدخل العسكري، والتي تتمثل في: استخدام الوكلاء عسكريًا، والإكراه السياسي والاقتصادي، والتضليل المعلوماتي، والعمليات السيبرانية، وتقنيات التشويش ضد الأقمار الصناعية الأمريكية، والتي سيكون لها ثمة تأثيرات سلبية وجوهرية على مستقبل القوة والقيادة الأمريكية للنظام الدولي الراهن. ولذا فإن واشنطن في حاجة ماسة لاستعادة شراكاتها وتحالفاتها الدولية، وإبراز رؤية أكثر ثقة لنموذجها السياسي والاقتصادي.

الدور الأوروبي بين مقتضيات التحالف مع أمريكا ومتطلبات المصالح مع خصومها

ســـــــلام الكواكبي

باحث سوري في العلوم السياسية – دمشق

وفاءٌ تاريخيٌ وقلق معاصر:

الاتحاد الأوروبي يمر خلال هذه السنوات في أتون مرحلة صعبة بالمقارنة مع ما سبق من مواجهات وتحديات استطاع دائما الخروج منها بالانتصار السياسي في أقل تقدير. فبعد انهيار الاتحاد السوفييتي وانتهاء الحرب الباردة، أو الظن بأنها انتهت فعليا، التفت الأوروبيون إلى توسعة الاتحاد وضم الدول الأوروبية المتحررة حديثا من سيطرة موسكو. وقد استثمر الأوروبيون المؤسسون، ممثلين بمؤسسات الاتحاد المتعددة المهام، أموالا طائلة لإعادة تأهيل الدول المنضمة حديثا إداريا وسياسيا وماديا. وصار عدد الأعضاء يشكل قطبا اقتصاديا وسياسيا لا يُستهان به من قبل أعداء نظريين له، كروسيا الاتحادية، أو حتى من قبل أصدقاء وحلفاء كالولايات المتحدة الأميركية. وتفاءل الأوروبيون بهذا التوسّع السريع على الرغم من كلفته العالية دون حساب عوامل النخر الذاتي التي يمكن أن تتفاقم يوما بعد يوم.

فبالإضافة إلى الفساد المستشري في بعض الدول حديثة الانتماء إلى الاتحاد، مثل بلغاريا ورومانيا، والصعوبة البادية في إمكانية التغلب عليه في وقت قصير نسبيا، مما يجعل أموال الاتحاد الأوروبي التي تُغدق على هذه الدول، كما لو أنها الكنز المتاح للعموم والذي يثير شهية الفساد المؤسسي القائم في تلكم البلدان، بدأ يظهر على السطح، بوضوح متعاظم، ميلٌ لدى بعض دول شرق ووسط أوروبا للخضوع إلى السياسات

الروسية الآتية من موسكو وبطريقة وضع تصوراتها الرئيس الروسي فلاديمير بوتين، كما يفعل بشكل حثيث الهنغاريون بوجود فيكتور أوربان على رأس السلطة التنفيذية في بودابست. وقد تمكنت أيضا مجموعات يمينية متطرفة من الوصول أو الاقتراب من سدة الحكم في بعض العواصم الأوروبية المنضمة حديثا كما بولونيا وهنغاريا، إضافة إلى انحرافات الأعضاء القديمين في النادي الأوروبي باتجاه التطرف والشعبوية كما إيطاليا والنمسا.

الاتحاد الأوروبي في أزمة أميركية / روسية

يعبر إذا الاتحاد الأوروبي مرحلة صعبة للغاية، وهو مضطر بسبب الحاجة لمواجهتها إلى إدارة علاقاته الخارجية بشيء من التوازن والحكمة التي لا تخلو من الحنكة، وخصوصا فيما يخص التعامل مع القطب الأميركي الترامبي متضخم الأنا الذاتية وغير محسوب التصرفات، كما مع القطب الروسي البوتيني المستشري سيطرة وتوسعا وتهديدا مسلحا حتى. فمنذ انتصار دونالد ترامب في الانتخابات الرئاسية سنة 2017، صارت أوروبا بالنسبة له مجرد قيمة مضافة عدديا وكميا لتشجيع الاقتصاديات الأميركية أي أن أوروبا من وجهة نظر ترامب هي سوق كباقي الأسواق. وقد بدأ بإعادة تصور العلاقة معها دون الأخذ بعين الاعتبار للتاريخ القريب التحالفي والذي لعبت من خلاله الولايات المتحدة الأميركية دورا رئيسيا في تحرير أوروبا من النازية والتي سمحت لها من خلال هذا الدور بتشكيل مؤسساتها الاتحادية عبر امتصاص الأزمة الاقتصادية التي تلت الحرب العالمية الثانية ونجمت عنها، ودعم عملية إعادة الإعمار عبر خطة مارشال السخية. واليوم صارت هذه المساعدة المصيرية والتي سجّلها التاريخ حجة أساسية ليُطالب من خلالها ترامب أن يتم ردّ الدين الأوروبي لأميركا بصورة غير مباشرة وذلك عبر تسهيل التجارة مع القارة القديمة ورفع كل القيود الضريبية على منتجات العم سام مع استخدام غير مبرر للغة التهديد والوعيد التي لم يسبق أن سادت في العلاقات بين "الحلفاء" الغربيين منذ نهاية الحرب العالمية الثانية، وحتى خلال الاستقلالية

الأوروبية النسبية عن واشنطن والتي عبّر عنها بشكل رئيسي الجنرال شارل ديغول. حيث كان، وما يزال، يشعر الأوروبيون عموما والفرنسيون خصوصا بعرفان تاريخي للولايات المتحدة التي "حررتهم" من نير النازية، وبالمقابل، فقد كان قائد حرب التحرير الفرنسية، الجنرال شارل ديغول، كثيرا ما يحذر من الأميركيين ويعوّل على جسد اتحادي سياسي واقتصادي أوروبي صلب. وقد سعى ديغول لكي تقود فرنسا اتجاها أوروبيا استقلاليا عن السياسات الأميركية، خصوصا في الحروب وفي الاقتصاد، ولكنه لم ينجح إلا بشكل نسبي في تحفيز هذا التوجه.

الملف الإيراني الشائك:

من جهتها، تواجه باريس ضغطا اقتصاديا واسعا من واشنطن لا تساعد في امتصاص وقعه التغريدات الهجومية والجارحة أحيانا التي تخصّص في نشرها الرئيس دونالد ترامب. فقد قام مثلاً بكتابة تغريدة حول محاولات فرنسا لعب دور إيجابي مخفف للاحتقان في الملف الإيراني قائلاً: "أنا أعرف أن إيمانويل يبحث عن القيام بأمر جيد، كما كل الآخرين، ولكن لا يحق لأي شخص أن يتحدث باسم الولايات المتحدة، عدا الولايات المتحدة نفسها". وقد استهدفت هذه التغريدة التي أطلقها الرئيس الأميركي يوم 8 أغسطس/ آب الماضي بشكل مباشر وقاس للغاية الرئيس الفرنسي إيمانويل ماكرون. وقد عبر من خلالها عن شدة غضبه من محاولات الرئاسة الفرنسية السعي لإيجاد مخارج معقولة للتخفيف من حدة الخلاف الأميركي . الإيراني المتجدد والمتفجّر بشتى الطرق. أزمة وصلت إلى حدود الصدام العسكري، بعد أن أثارها ترامب لدفن جزءٍ من إرث سلفه باراك أوباما، بإلغائه الاتفاق النووي الذي وقعته الإدارة السابقة سنة 2015 إلى جانب الدول الأوروبية الرئيسية.

وفي تعبير واضح عن درجة عالية من الغضب، أضاف الرئيس الأميركي، في تغريدته، إن "لدى إيران مشكلات مالية فظيعة. والإيرانيون يسعون بلا أمل إلى الحديث مع الولايات المتحدة، ولكنهم يتلقون رسائل متناقضة من كل الذين يدّعون تمثيلنا نحن

الأميركيين. وأحد مرسلي هذه الرسائل الغامضة هو الرئيس الفرنسي ماكرون". وبالفعل، فالرئيس ماكرون، وعلى رأس مجموعة أوروبية تسانده في قيادتها المستشارة الألمانية أنجيلا ميركل، سبق أن رفض القرار الأميركي الفريد بنقض اتفاق دولي وقعت عليه الولايات المتحدة علنا في احتفاليةٍ كانت خلالها ابتسامة وزير خارجيتها السابق، جون كيري، تتجاوز مجمل إخفاقاته الشخصية على المستويين، الدولي والمحلي، تأكيدا ربما على أن توقيع هذا الاتفاق كان الإنجاز الوحيد فعليا طوال دورتي رئاسة أوباما بين عامي 2009 و2017 على المستوى الخارجي. وبالنسبة لفرنسا، كما بالنسبة لألمانيا ودول أوروبية كثيرة، فإن نقض الاتفاق عمل غير مدروس، ويحمل انتقاما شخصيا ويترجم عقدة نقص هيكلية لدى الرئيس الأميركي الحالي تجاه سلفه.

في المقابل، فمن المؤكد بأن الموقف الأوروبي المتميّز عن موقف حليف أوروبا الأميركي تجاه إيران ليس نابعا فقط من مسألةٍ مبدئية تتعلق بعدم نقض العهود، أو بسعي مثالي إلى تحقيق المصالحات الدولية، ونزع فتيل الانفجار العالمي. إن القاصي والداني صارا على اطلاع على مئات المشاريع الاقتصادية المُدرّة للأرباح العالية، والتي كان الأوروبيون بدأوا في التأسيس لها، أو أنهم كانوا يتحضرون لالتقاط مفاتيحها بانفتاحهم على نظام طهران من دون اعتماد مبدأ الشرطية التي ربطت يوما دمقرطة النظام السياسي واحترامه لحقوق ناسه هي الأساس في بناء الثقة والتأسيس لكل أنواع العلاقات السياسية كما الاقتصادية. ومن خلال الموقف الترامبي، والذي ترسّخ بفرض عقوبات اقتصادية خانقة على طهران، ومنع الحلفاء من أي تعاون استثماري معها، فقد خسر الأوروبيون، على الرغم من كل محاولاتهم الالتفافية، بلايين اليوروهات.

وعلى سبيل المثال لا الحصر، فقد انخفضت قيمة الصادرات الفرنسية نتيجة الخضوع للعقوبات الأميركية على إيران من مبلغ مليار يورو سنة 2017 إلى ثلث هذا المبلغ في هذا العام. كما انسحب عملاق النفط الفرنسي توتال من إيران بعد أن استثمر مبلغ مليار يورو أيضا، وباع حصته مضطرا بأسعار منخفضة إلى شركات صينية

منافسة. ومن جهتها، تأثرت صناعة السيارات الفرنسية كما الطائرات، بشدة من هذه العقوبات فخسرت شركة بيجو / سيتروين، 12 في المائة من حجم مبيعاتها الخارجية، كما أغلقت شركة رينو مصانعها في إيران وخفضت من تعاونها مع المصانع الإيرانية التي تنتج السيارات بخبرات فرنسية. وأخيرا، خسرت شركة ايرباص عقودا بمئات الطائرات المجنية كانت طهران تنوي التزود بها لتجديد أسطولها الجوي المتهالك.

من جهته، وفي مواجهة هذا الصلف الأميركي، فالرئيس الفرنسي ينتهز كل الفرص للاتصال هاتفيا بالرئيس الإيراني حسن روحاني، طالبا منه التجاوب مع مساعيه في عدم التصعيد مع وعود بالتدخل لدى الجانب الأميركي وسيطا يميل إلى دعم الموقف الإيراني، على الرغم من تحالفه التاريخي نظريا مع الموقف الأميركي. ومن جهتهم، يقابل الإيرانيون هذا الانفتاح الفرنسي بتعنّت عالي المستوى ويحمل رمزية لافتة في شرح أساليبهم الدبلوماسية. وهم يشترطون أن تقوم أميركا، وكذلك حلفاؤها، بسحب قائمة العقوبات المفروضة على طهران من التداول ومن التنفيذ، قبل السعي إلى فتح أي نوع من المفاوضات مع الجانب الأميركي خصوصا والغربي عموما.

الأوروبيون يدافعون دائما عن اتفاقية 2015 النووية مع إيران والتي انسحبت منها أميركا بعد وصول دونالد ترامب إلى البيت الأبيض. وحتى أن الرئيس الفرنسي إيمانويل ماكرون، يتواصل بشكل شبه دوري مع نظيره الإيراني حسن روحاني ساعيا إلى تمييز موقف أوروبا من طهران عن الموقف الأميركي، وفي المقابل، فهو يحاول أيضا أن تخفف إيران من لهجة التحدي وأن تعدل عما وعدت به من عدم الالتزام بالاتفاقية بحجة انسحاب الأمريكيين منها. وقد أشارت بيانات قصر الرئاسة الفرنسي إلى أنه "دور فرنسا أن تقوم بمختلف الجهود اللازمة لكي تقبل مختلف أطراف الأزمة المعنيين بالتروي وفتح باب التفاوض". وقد وصلت حدة التكهنات المرتبطة بدور الوسيط الذي تسعى فرنسا للعبه بين الإيرانيين والأميركيين إلى أنه توجد نية لدى الدبلوماسية الفرنسية لدعوة إيران إلى قمة مجموعة السبعة التي جرى عقدها في الساحل الغربي الجنوبي لفرنسا بين يومي

24 و26 أغسطس الماضي، بوجود الرئيس الأميركي إلا أن ذلك لم يحصل بشكل كامل وإن استطاع الرئيس الفرنسي تسجيل انتصار دبلوماسي رمزي. هذا الانتصار تجسّد بحصول زيارة خاطفة لوزير الخارجية الإيرانية محمد جواد ظريف إلى المدينة الساحلية "بياريتز" مكان انعقاد القمة. وتبارت وسائل الإعلام في محاولة الاستنتاج والبحث عن السبق، فتبين في النهاية بأنه لم يصل المدينة للمشاركة في القمة. بالمقابل، فقد عقد اجتماعًا مطوّلاً مع وزير الخارجية الفرنسي جان ايف لودريان، كما اجتمع في لقاء سريع لم يتجاوز نصف الساعة مع الرئيس ماكرون ليُقفل عائدا من حيث أتى.

زيارة ظريف الخاطفة مؤشر إيجابي لنجاح الجهود الدبلوماسية الفرنسية في تخفيف التوتر الأميركي الإيراني المرتبط بالملف النووي والذي كاد أن يتحول إلى صدام عسكري في الأسابيع القليلة التي سبقت انعقاد القمة. وعلى الرغم من التصريحات الأميركية التي نأت بالبيت الأبيض عن أية علاقة بهذه الزيارة وتلك المباحثات، إلا أن المراقبين يجمعون على أن ما كان لماكرون أن يُقدم على هذه الخطوة المفاجئة وذات الوقع الكبير إلا بعد تنسيقٍ ما مع القيادة الأميركية. قيادةٌ تنتقد الدور الفرنسي في العلن، ولكنها تجده أفضل وسيلة لتخفيف التوتر الذي لا ترغب في الوصول إلى تفجيره على الرغم من النزعة التصادمية والمغامراتية للرئيس دونالد ترامب.

عمالقة التكنولوجيا عصب التوتر:

إلى جانب الملف الإيراني الشائك والصعب، يواجه الفرنسيون، ووراءهم أوروبيون كثيرون، رئيس أميركا المُغرّد دونالد ترامب من خلال ملفات متعدّدة أخرى، من أهمها الملف الاقتصادي، خصوصا بعد إقرار الضرائب الطبيعية والمشروعة فرنسيا التي يترتب على عمالقة الإنترنت الأميركيين (غوغل، فيسبوك، آبل، أمازون) دفعها، والتي لا يوجد لدى أي اقتصادي، مهما كان ليبراليا، أي مبرر منطقي لإعفائها. وفي مقابل القرار الفرنسي، سارع ترامب إلى التغريد أيضا لإدانة هذه الخطوة، وهدد فرنسا لما أسماه بالـ "الخطوة الغبية". وبعنفٍ لفظيٍ قل نظيره في العلاقات الدبلوماسية بين الحلفاء (نظريا

على الأقل)، هدّد ترامب بردود فعل تتناسب وحجم الخسائر التي يعتبر أنها فُرضت على الاقتصاد الأميركي من غير وجه حق. وقد ورد في تغريدته أن "فرنسا تفرض ضريبةً على مؤسساتنا التكنولوجية الأميركية الكبرى. وإن كان لأحدٍ أن يفرض مثل هذه الضرائب فهو بلد الأصل، أي الولايات المتحدة. سنعلن قريبا عن عملية تأخذ بمبدأ المعاملة بالمثل. كنت دائما أقول إن النبيذ الأميركي أفضل من الفرنسي، فقد كان إذا على الفرنسيين أن لا يفعلوا ذلك، وقلت لهم ذلك، وقلت لهم أيضا إنني سأفرض رسوما على النبيذ الفرنسي إن فعلوا". وعلى الرغم من تفاقم الخلافات بين فرنسا وأميركا حول أمور أساسية وبشكل شبه مستمر، فهذا لم يمنع من حدوث عدة مكالمات هاتفية سبقت قمة السبعة الكبار التي عقدت بين يومي 24 و 26 من أغسطس الماضي في فرنسا.

من يواجه الغطرسة الأميركية إلى جانب فرنسا؟

تشعر ألمانيا بضعف بنيوي أمام متطلبات الحليف الأميركي على الرغم من قوة اقتصادها وعلى الرغم من صلابة مستشارتها أنجيلا ميركل. فتاريخ ألمانيا القريب أجبر هذه الدولة على أن تكون ضعيفة الموقف في الكثير من الملفات الشائكة، وجعلها تتنازل، بصورة أو بأخرى، أمام الحليف التاريخي الأميركي، كما أمام "العدو" التقليدي الروسي.

ألمانيا وفرنسا وحدهما مبدئيا لمواجهة الصلف الأميركي، مع سعي دؤوب للاحتفاظ بالحليف الأميركي. فبريطانيا تعبر مرحلة الخروج من الاتحاد الأوروبي بحكومة شديدة المحافظة هي الأقرب إلى المصالح الأميركية من أي وقت مضى. كما أن إيطاليا وإسبانيا تعيشان على وقع أزماتهما الحكومية وعدم التوصل إلى تشكيل حكومة قوية مركزية تواجه اقتصاديا على الأقل كل ما يمكن أن يضر بمصالح القارة الأوروبية. في إيطاليا أيضا، هناك خطر لا تواجهه إسبانيا، وهو نجاح متجدد مشكوك بأمره لقوى اليمين المتطرف التي تحارب المشروع الأوروبي وهي أقرب إلى موسكو منها إلى بروكسل. كما تتمنى. أوروبا الجديدة بأعضائها السبع والعشرين بأن دولاً عدة فيها تنتمي

إليها مؤسساتيا دون تبني قيمها الأساسية المرتبطة بعلمانية المؤسسات (كما بولندا) وديمقراطية الانتخابات (كما بلغاريا) واحترام التعددية الإعلامية (كما هنغاريا) ومكافحة الفساد (كما رومانيا). وهذه الدول التي تم ذكرها كأمثلة، تقترب في سياساتها وفي خضوعها الخارجي أكثر إلى من يحارب المشروع الأوروبي بحد ذاته، أي موسكو وواشنطن.

الشعبوية باب أوروبي مشرع لواشنطن وموسكو:

لم يعد خافيا على أحد من أن أوروبا صارت تذخر بالأحزاب اليمينية المتطرفة كما بالأحزاب الشعبوية التي ترفض المؤسسات الأوروبية وتحاربها. أحزاب شعبوية تموه أحيانا نشاطها بالتوجه يسارا على الرغم من ضعف الخلافات البنيوية بينها وبين اليمين المتطرف. وحالة تحالف حزب النجوم الخمسة اليساري الشعبوي الإيطالي مع رابطة الشمال اليمينية المتطرفة في الحكومة السابقة في روما هي مثال صارخ على المستوى الداخلي، كما التحالف بين التجمع الوطني اليميني المتطرف وحزب غير الخاضعين اليساري المتطرف في فرنسا في إدارة الملفات الخارجية كما دعم الثورات المضادة في العالم العربي.

وبسبب تراكم وتفاقم فشل الأحزاب التقليدية يسارا ويمينا في المشهد الأوروبي، والمترافق مع تفاقم الأزمات الاقتصادية والاجتماعية، فإن الناخب الأوروبي صار يميل في قسم كبير منه إلى الأحزاب التي تدّعي تقديم العلاج السحري البديل. أحزاب هي غالبا ما تكون قادرة بامتياز على إدارة حملة انتخابية تحشيدية وناجحة، وهي غالبا ما تكون فاشلة في إدارة شؤون الدولة بعد نجاحها في الانتخابات وتمكنها من الوصول إلى تشكيل الحكومات.

كما لم يعد خافيا من جهة أخرى أن الشعبوية تجد لنفسها مرجعا أميركيا من جهة إدارة ترامب التي تعتمد على التغريد السياسي أكثر من التحليل السياسي. إضافة إلى أنها تجد لها مرجعا بوتينيا من خلال أساليب الكرملين في إدارة السياسة الداخلية كما في إدارة

السياسة الخارجية. حليفان . عدوان نظريا . لكنهما يتحالفان موضوعيا لإرهاق المشروع الأوروبي ودفعه نحو الانهيار أو إعادة التشكّل حسب مقتضيات مصالحهما غير المتعارضة لزاما.

من جهتهما، يميل ترامب وبوتين إلى دعم أحزاب اليمين المتطرف الأوروبي كل بطريقته المختلفة. فنرى أن جُلّ أحزاب هذا اليمين، كالفرنسية والإيطالية مثلاً، تتلقى الدعم السياسي كما المالي من موسكو على شكل قروض تقدمها المصارف الروسية الخاصة الخاضعة لرجال الكرملين. فحلفاء موسكو بازدياد أوروبيا عبر صعود أحزاب اليمين المتطرّف. إن قيصر موسكو بنى واقعيته السياسية الدولية على عقيدة معادية للغرب. وقد تساءلت صحيفة "لوموند" المسائية الفرنسية عشية الزيارة القيصرية الأخيرة لدار الاصطياف الرئاسية الفرنسية حيث التقى فلاديمير بوتين بالرئيس إيمانويل ماكرون يوم 19 أغسطس الماضي عن "المصلحة في إعادة تأهيل دولةٍ تصرّح علنا إن هدفها تدمير النظام الدولي، وربط كل أوروبا بنظامها العسكري/ الأمني".

تحاول فرنسا أن تحمل بصلابة ملف مواجهة الصلف الأميركي سياسيا واقتصاديا، وهذا يُحسب لها في المطلق، ولكن المراقب الدقيق يلحظ تغيراتٍ سلبيةً في طريقة إدارة السياسة الخارجية الفرنسية، والتي تميّزت، عقودا طويلة، بمواقف مستقلة ومتميّزة عن واشنطن، خصوصا في ملفاتٍ شائكة، كملف القضية الفلسطينية والقضايا الإقليمية الأخرى، كما في العلاقة مع بعض دول أميركا اللاتينية، فقد أشارت أحداث وتموضعات السنوات الأخيرة إلى تنامي التزام فرنسي بمسار الرغبات الأميركية، مهما أصابت هذه الأخيرة الضبابية والتقلبات، خصوصا مع وصول نيكولا ساركوزي إلى قصر الأليزيه عام 2007.

يمكن السؤال اليوم عن إمكانية تأثير الخلافات الأخيرة بين أوروبا والولايات المتحدة الأميركية، على المستوى السياسي والاقتصادي، والتي تشير إلى خلل بنيوي في علاقات الحلفاء الغربيين، في العمل على دفع فرنسا أولاً، ومن ثم بقية دول الاتحاد

الأوروبي التي تعاني من هذه العلاقة غير المتكافئة، إلى تعزيز استقلالية قراراتها المرتبطة بإدارة السياسة الدولية عن واشنطن؟ هل ستساعد تغريدات دونالد ترامب المتكررة والمسيئة على التشجيع باتجاه انبثاق سياسة خارجية جديدة في أوروبا، تُحيلنا إلى الاستقلالية المتميّزة التي تبنّاها الجنرال شارل ديغول في القرن الماضي وتخلى عنها من خلفه في قصر الأليزيه؟ هل سيشعر الأوروبيون، أو جُلّهم، بأنهم قادرون اقتصاديا وعسكريا على تبنّي سياسات تحافظ أساسا على مصالحهم السياسية والاقتصادية والدفاعية بعيدا عن الخضوع أو التجاوب مع تغريدات نشاز تصلهم تباعا من واشنطن وتهدف لإضفاء جو من اللا سياسة وتقترب بهم إلى عمليات إدارة المؤسسات العقارية إن لم نصل إلى حد التوصيف الأكثر تطرفا؟

شـــؤون اجتماعيــة

مجلة فصلية علمية محكمة تعنى بالعلوم الإنسانية والاجتماعية
رئيس التحرير : د. محمد عبد الله المطوع
نائب رئيس التحرير : د. ندى مرتضى صبَّاح

تنشر البحوث والدراسات في شتى العلوم الإنسانية والاجتماعية والتي تتوفر فيها الأصالة والمنهجية العلمية

تعطى الأولوية مرحلياً للبحوث والدراسات حول مجتمع الإمارات لسد النقص في هذا المجال.

تخصص زاوية لمناقشة الآراء والأفكار التي تتناول قضايا فكرية وثقافية واجتماعية معاصرة
ترحب بمساهمة الأكاديميين والمثقفين في اختصاصات العلوم الإنسانية والاجتماعية كافة.

مواعيد الصدور
مارس (ربيع) – يونيو (صيف) – سبتمبر (خريف) – ديسمبر (شتاء)

الاشتراكات

للأفراد سنوياً : في الإمارات : 40 درهماً * في الوطن العربي : 15 دولاراً * في الخارج : 20 دولاراً
المؤسسات سنوياً : في الإمارات : 100 درهم * في الخارج : 40 دولاراً

تصدر عن جمعية الاجتماعيين والجامعة الأمريكية في الشارقة

ترسل البحوث والدراسات بعنوان رئيس تحرير مجلة شؤون اجتماعية
ص.ب.: 3745 هاتف: 5567722 (6-971) فاكس : 5567227 (6-971)
جمعية الاجتماعيين – الشارقة – دولة الإمارات العربية المتحدة
E-mail:social@emirates.net.ae
www.sociological-uae.org.ae

ملـــــف ثقـــافي وإعـــلامي

- مسرح الرحباني — سليـــــم سحـــــاب
- زكى نجيب محمود.. مسيرة حياة وقصة عقل — صـــــلاح ســـــالم
- الإعلام التقليدي والفضائي بين العمق والانتشار — أمينـــــه خيـــــري

مسرح منصور الرحباني

سـليم سحـــاب

قائد أوركسترا مؤرخ ومحلل وناقد موسيقي - لبنان

ينقسم التاريخ الموسيقي للمدرسة الموسيقية اللبنانية إلى مدرستين الأولى ما قبل 1950 وهي الموسيقى اللبنانية التقليدية من غناء شعبي إلى الموال وغناء الأشكال الغنائية الجبلية (ميجانا وعتابا) وقد برز في هذه المدرسة أسماء كبيرة مازالت محفورة في تاريخ الموسيقى اللبنانية وأذكر منها الملحن الكبير سامي الصيداوي وهو كما يدل اسمه من مدينة صيدا الجنوبية، والملحن البيروتي نقولا المنيَّ، والمخضرم الكبير فيلمون وهبي وغيرهم وتمتاز هذه المدرسة بكون أعضائها لم يدرسوا الموسيقى في المعاهد بل انطلقوا من موهبتهم الكبيرة (كعهد كل مدرسة موسيقية في بداياتها)، واستطاعوا من خلالها بناء أسس مدرسة كان لها بعد ذلك شأن عظيم في تاريخ الموسيقى العربية ككل.

المدرسة الحديثة للموسيقى اللبنانية ظهرت ثمارها بعد 1950 على يد موسيقيين شباب(زكي ناصيف، توفيق الباشا، حليم الرومي، الأخوين رحباني) درسوا كلهم العلوم الموسيقية وإن كانت باتجاهات مختلفة. فإذا كان حليم الرومي قد درسها في مصر في معهد الموسيقى العربية وتعمق في دراسة تاريخ هذه الموسيقى العربية التقليدية وبرع في تلحين القصائد والموشحات وغنائها بصوته الرائع الذي أعتبره من أعظم الأصوات العربية إلى جانب محمد عبدالوهاب ورياض السنباطي، فإن دراسة حليم الرومي لم تتعد الموسيقى العربية كما فعل غيره من زملائه، الذين درسوا الموسيقى على يد أساتذة أجانب أهمهم كان روبيار Robillard الفرنسي الذي علمهم علوم الهارمونيا والبوليفونيا والتوزيع. وبدأت ثمار هذه المدرسة المحترفة Professional في برامج إذاعة الشرق الأدنى العربية التي استمرت لغاية سنة 1956 وتحولت بعد ذلك إلى إذاعة الـ BBC بعد

استقالة الموظفين العرب ومقاطعتهم لها بسبب حرب إنجلترا على مصر (العدوان الثلاثي). وبرز من هذه الأعمال أغاني الأخوين رحباني التي كانت في البداية أغانٍ راقصة أجنبية مصرية مثل ماروشكا –ايايا ماريا – ما طريق حماك (تانجو Elcomenito)، قمر وردي النور Rossa Luna وغيرها، ثم الأغنيات الراقصة الملحنة مثل غيب غيب يا قمر – يا سميره يا سميره وغيرها.

وقد ساهم في نجاح هذه الأغنيات كما ساهم في رفع ونشر اسم الأخوين رحباني الصوت الذي غنى كل هذه الأغاني وجعلها على أثير كل المحطات الإذاعية العربية وعلى كل لسان: صوت العظيمة فيروز. فقد ساهم صوتها من دون أي شك في نشر اسم الأخوين الرحباني عربيا.

وبدأ هذا النجم الثلاثي(الأخوان وفيروز) يفرض نفسه على الساحة الموسيقية خاصة عندما ظهرت في أسلوبهم سكة جديدة وهي السكة العربية في التلحين والغناء وذلك في أغنية – مونولوج "عتاب."

ومنذ بداية هذا الثلاثي كان الإشكال الكبير واللغز الأكبر هو: من يؤلف من الأخوين رحباني ومن يلحن، خاصة عندما بدأت في مسيرتهما مرحلة مهمة جدا شكل فيها تأليف الكلام جزءا كبيرا من العمل ككل، خاصة أنهما ومنذ ظهورهما لم يكن هناك ذكر لأحدهما منفردا. ولكن العارفين بالأمور كانوا ميالين إلى الاعتقاد أنه وبالرغم من أن الاثنين كانوا يكتبون الشعر لأغانيهما ويلحنونها، فإن كفة التلحين تميل أكثر إلى عاصي بينما تميل كفة تأليف الكلام إلى منصور وقد وضح هذا الترجيح عندما ظهرت دواوين شعر منصور المليئة بالفكر العميق والتأمل والجماليات الرحبانية. لكن الوضوح كان نهائيا بعد وفاة عاصي وظهور المسرحيات التي كانت بالطبع تحمل توقيع منصور الرحباني وحده والتي كانت أقواها برأسي مسرحية آخر أيام سقراط .

وقبل إلقاء نظرة سريعة على المسرحيات الرحبانية وجب ذكر أعمالهما الإذاعية الرائعة التي كانت المنطلق الكبير الدرامي لمسرحهما الكبير وأقصد هنا برامجهما

المسرحية الإذاعية الرائعة بالاشتراك مع فلمون وهبي ونصري شمس الدين وهذه الأعمال الخالدة وإن كانت قليلة الذكر عند الكلام عن مسرح الأخوين رحباني عرفت باسم الإسكتشات: سبع (وقد عرف فلمون وهبي في هذه الإسكتشات بهذا الاسم) – برّاد الجمعية رابوق – روكز خطب – روكز تزوج وغيرهم . هذه الإسكتشات لم تظهر براعة الأخوين رحباني كمؤلفين وملحنين فقط بل أيضا كممثلين كبيرين لنلق نظرة سريعة على المسرحيات الرحبانية التي حملت اسم الأخوين معا. بدأ الأخوان رحباني عملهما المسرحي معا إلى جانب زكي ناصيف وتوفيق الباشا. وقد أطلقوا على أنفسهم لقب الخمسة الكبار وكان خامسهم حليم الرومي، تيمنا بالخمسة الكبار الروس الذين أسسوا المدرسة الموسيقية الروسية القومية الحديثة في الستينات من القرن التاسع عشر وهم: 1- بلاكيريف 2- ريمسكي-كورساكوف 3- أعظمهم موسورجسكي الذي كان له الأثر الأكبر على المدرسة الموسيقية اللبنانية الحديثة، 4- بورودين 5- كويي الفرنسي الأصل.

كان هذا العمل الأول سنة 1957 على مسرح بعلبك في مهرجاناتها الشهيرة وكان اسم العمل "تقاليد وعادات" حسب مرجع الدكتور نبيل أبو مراد "الأخوان رحباني حياة ومسرح"[1] و"أيام الحصاد" حسب مرجع هنري زغيب "الأخوين رحباني – طريق النحل"[2]. وتوالت المسرحيات ابتداء من 1959 كل سنة. فكانت سنة 1959 على مسرح بعلبك "عرس في الضيعة " حسب نبيل أبو مراد و"محاكمة " حسب هنري زغيب.

- 1960 موسم العز. الوحيدة التي لم تشترك فيها فيروز بل كان أبطالها صباح ووديع الصافي.
- 1961 البعلبكية – بعلبك ومعرض دمشق.
- 1962 جسر القمر – بعلبك – معرض دمشق.

(1) دار أمجاد للنشر والتوزيع- الطبعة الأولى- 1990
(2) دار الإنتاج والطباعة : جوزيف د.الرعيدي للطباعة2001/1/1

- 1962 عودة العسكر – سينما كابيتول.
- 1963 الليل والقنديل – كازينو لبنان.
- 1964 بياع الخواتم – الأرز، معرض دمشق.
- 1965 دواليب الهوا – بعلبك.
- 1966 أيام فخر الدين – بعلبك.
- 1967 هالة والملك – الأرز، بيكادللي.

وهي المسرحية الوحيدة التي حضرتها في لبنان وذلك بحكم دراستي في روسيا في تلك الفترة (1965–1977) وقد قدمت بعد نهاية المسرحية قصيدة محمد عبدالوهاب – جبران خليل جبران الرائعة سكن الليل.

- 1968 الشخص – معرض دمشق وقدمت مرة ثانية التالية على مسرح البيكادللي – بيروت.
- 1969 جبال الصوان – بعلبك، معرض دمشق.
- 1970 ناس من ورق – معرض دمشق.
- 1970 صح النوم – البيكادللي، بيروت.
- 1971 يعيش يعيش – البيكادللي، دمشق.
- 1971 ناطورة المفاتيح – بعلبك.
- 1973 قصيدة حب – بعلبك.
- 1973 المحطة – البكاديللي.
- 1974 لولو– بيكاديللي، دمشق.
- 1975 ميس الريم – بيكاديللي، دمشق.
- 1977 بيثرا – عمان ،دمشق.
- 1978 بيثرا – بيكاديللي، بيروت.
- 1980 المؤامرة مستمرة – كازينو لبنان.

- 1981 الربيع السابع – كازينو لبنان، قطر.

وتجدر الإشارة أن المسرحيتين الأخيرتين أُلِّفتا وقُدِّمتا بعد انفصال فيروز عن زوجها عاصي وانفصالها عن المؤسسة الرحبانية فنيا فاستعان الرحبانية بالمطربة الصاعدة رونزا لتسد مقام فيروز ما تطلب تغير شكل الكتابة الموسيقية ليتلاءم مع قدرات رونزا الصوتية البعيدة عن قدرات فيروز.

ويذكر كتاب هنري زغيب ثلاث مسرحيات تحولت إلى السينما وهي بياع الخواتم (1965) سفيرلك (1966) وبنت الحارس (1967) وتوقفت بعد وفاة عاصي صناعة الأوبريت الرحبانية سبع سنين ففي سنة 1988 ظهرت مسرحية صيف840 طبعا لمنصور لوحده. وطبعا مع وفاة عاصي هبطت وتيرة تأليف الأوبريتات الرحبانية وكأن صناعتها كانت ثقيلة على أكتاف منصور لوحده وهذا طبيعي جدا لأن مساهمة عاصي في هذه الأعمال لم تكن ثانوية بل قد تكون لها الأولوية .

هنا نأتي على ذكر أعمال منصور بعد وفاة أخيه (سنا وقامة) عاصي، وقد وردت في كتاب هنري زغيب.

- 1988 صيف 840 – كازينو لبنان، البيكاديللي.
- 1994 الوصية – جورج الخامس.
- 1998 آخر أيام سقراط – كازينو لبنان.
- 2000 القداس الماروني – (مار إلياس – انطلياس).
- 2000 وقام في اليوم الثالث – (كازينو لبنان).
- 2001 أبو الطيب المتنبي – (دبي).

وإذا استثنينا " القداس الماروني" و" وقام في اليوم الثالث" التي يتضح من أسمائها أنها أعمال دينية يبقى لنا مما ذكرنا أربعة أعمال مسرحية لم أر منها شخصيا إلاّ آخر أيام سقراط على مسرح دار الأوبرا المصرية وذلك لسبب استقراري في مصر منذ عام

1988 لغاية الآن لهذا السبب سوف أتناول هذه المسرحية بالذات في هذا المبحث. وقدمت المسرحية في رمضان من سنة 1999.

لم يتسن لي حضور التدريبات على مسرحية " آخر أيام سقراط" لمنصور الرحباني وأولاده الثلاثة مروان وغدي وأسامة, ولحضور التدريبات أهمية كبيرة كونها "المطبخ" الذي يُظهر كل تفاصيل العمل مهما صغرت، وكون حضور المسرحية لمرة واحدة لا يعطي إمكانية الوقوف على هذه التفاصيل التي بمجموعها تكوّن العمل. لكن الفرصة، بحكم عملي في دار الأوبرا، سنحت لي لمشاهدة هذا العمل الكبير ثلاث مرات استطعت من خلالها الوقوف على أدق تفاصيل هذه المسرحية الرائعة.

وبعد قراءة نص العمل بإمعان وسماع الكاسيت بهدوء وتأمل خرجت برأي أننا أمام عمل كبير بل من أكبر الأعمال المسرحية الموسيقية الرحبانية.

1- النص المسرحي

النص مكتوب بمنتهى الذكاء والعمق والقدرة الدرامية. فالخط الدرامي واضح المعالم من البداية، وواضح أيضا التطور في هذا الخط الذي يصل بكل منطق في خلال ذرواته المرحلية إلى ذروته الكبرى المأسوية: موت سقراط. وتجدر الإشارة هنا إلى أن النص يحتوي على الكثير من أفكار سقراط وهذا دليل على جديته وعمقه وعلى ثقافة منصور الواسعة. ولابدّ من التنويه بكلام " أنا رايح ألّف كتاب" حيث يعرض منصور كل مفاهيم "جمهورية أفلاطون" ويغني الأغنية سقراط نفسه بشكل مبسَّط وواضح وبواسطة السهل الممتنع، وبالحوار بين كزنتيبي Xantippi زوجة سقراط وتلميذته تيودورا ويعرض في هذا الحوار بجملة صغيرة جدا مفهوم الحب الأفلاطوني بشكل ساخر كوميدي: " يعني من بعيد لبعيد". واضح أيضا تداخل الحقب التاريخية واستعمال الأحداث التاريخية المسرحية لانتقاد عصرنا الحديث بطريقة الإسقاط في أكبر وأخطر مسائله الفكرية: الديموقراطية والحرية، وكلنا يعرف إلى ما آل إليه هذان المفهومان في فرنسا، البلد الذي

شهد ولادتها الحديثة، وما حصل لأحد أهم فلاسفتها في القرن العشرين روجيه غارودي لمجرد أنه تجرّأ وأبدى مجرد شكه في عدد اليهود الذين راحوا ضحية المحارق النازية. المفاهيم السياسية تملأ هذا العمل الدرامي بشكل واضح وحارق كتركيز ضوء الشمس من خلال منظار مكبّر، وكلمعة الضوء القوي للحظة تعمي الأبصار ومن هذه المفاهيم قول سقراط لتلميذه "كريتياس" الذي نصّبته سبارطه حاكما لأثينا: "شروط الصلح: تهديم الأسوار، تسليم الباقي من الأسطول والأراضي، ومعاهدة معنا الحرب والسلم". كم في هذا الكلام من المنطق الإسرائيلي لغاية الآن.

وللتخفيف من وطأة هذه المفاهيم الفلسفية والسياسية الثقيلة يستعين الكاتب بقفشات فكاهية راقية تأتي من آن لآخر لتنفجر معها القاعة بالضحك. من هذه القفشات مشهد زوجة سقراط وهي تشكو له من فلسفته: "بشرفك لو كنت فيلسوفة كنت بتقعد معي"؟ فيجيب سقراط: "ولا ساعة". أو عندما يقول آنيتوس الحاكم لميليتوس الشاعر: "قلّلا شو عملت اليوم" (قل لها ماذا فعلت اليوم) فيرد الشاعر: "اليوم حبس خيّ مرتو (اليوم حبس أخ زوجته" ولما تستفسر تيودورا : ليه؟ يرد الشاعر: "لأنو مش قادر يحبسها إلا" (لأنه مش قادر يحبسها هي).

2- الديكور و الأزياء

نصل إلى ديكورات روجيه جلنح التي كانت بسيطة ومعبرة جدا عن الفترة التاريخية للدراما. وقد نُفذت تماما وبذوق عالٍ جدا كلَّ ملاحظات المؤلف فيما يتعلق بالديكورات ودورها في اللعبة الدرامية. غير أن هناك سؤالا فيما يختص بمجموعتي التماثيل المقطوعة الأيدي نحن نعرف أن هذه التماثيل وصلت إلينا بحالتها هذه بعد الزلازل والحروب التي دمرت بلاد الإغريق. أما على أيام سقراط فقد كانت طبعا سليمة. هل هذه غلطة تنفيذ ديكور أم أنه عمل مقصود لربط الفترة القديمة بتاريخنا المعاصر؟

نصل هنا إلى أحد أهم العناصر الموجودة في المسرحية: أزياء غابي أبي راشد. لقد استعمل المصمم جميع الألوان مع كل تدرجاتها في أزياء المجموعات فشكل بذلك لوحة رائعة متجانسة إلى أبعد حد فكانت من العناصر المبهرة في العمل، وكانت إلى جانب هذا أمينة لثياب العصر الإغريقي بما في ذلك كل التطريزات على أطرافها التي نجدها على الأواني الإغريقية في المتاحف وقد شكلت هذه الأمانة عنصرا هاما مساعدا للخط الدرامي وللعمل ككل، وتجسيدا حيا لزمن أثينا الغابر. وتجدر الإشارة هنا إلى الروعة في تصميم وتنفيذ الدروع والخوذات والتروس فقد لعبت دورا كبيرا في تقوية الحركة الدرامية على المسرح وفي الإبهار الانفعالي لدقة تصميمها وألوانها: فقد بدت حقيقة فعلا لا تقل عما نراه في الأفلام التاريخية الأمريكية العظيمة. فكانت من العناصر التي ساعدت المشاهد على العبور في التاريخ لزمن سقراط.

3- **التمثيل**

ونبدأ بسقراط الفيلسوف الذي تقمصه ببراعة فائقة الممثل الكبير رفيق علي أحمد. فقد كنا لا نسمع نفسا واحدا في القاعة في أثناء إلقائه مونولوجاته. وقد ساعده مظهره الخارجي (شعره الطويل ولحيته الكثيفة الطبيعية) على تقمص شخصية سقراط بنجاح كبير، لولا بعض المبالغة في النبرة الخطابية ولا ندري هل كانت هذه المبالغة مقصودة منه أم أنه أداها نزولا عند رغبة المؤلف. كانت تحركاته تملأ المسرح (وهو كبير جدا) وتشد الأنظار وتقطع الأنفاس. والدليل الأكبر على ذلك عاصفة التصفيق وقوفا التي كانت تستقبله في كل عرض عند ظهوره للتحية. وإذ كنا قد عرفنا براعة رفيق التمثيلية في مسرحياته للمثل الواحد (One Man Theater) للمخرج اللبناني البارع روجيه عسّاف خاصة مسرحية "الجرس" فقد كان في مسرحية سقراط اكتشافان هامّان : زياد سعيد الذي مثل دور كريتاس ببراعة في التعبير ملفتة للنظر لاقت استحسانا كبيرا، والممثلة الرائعة جمالا وحضورا وتمثيلا وغناءً ورقصا : كارول سماحة في دور تيودورا. فإذا كنا قد اكتشفناها ممثلة رائعة في مسرحية سعدالله ونوس "طقوس الإشارات

والتحولات" للمخرجة البارعة نضال الأشقر والتي نالت بعد النجاح الكبير في بيروت نجاحا هائلا على المسرح القومي في القاهرة (شاهدت هذا العرض شخصيا) فقد اكتشفنا كارول في "آخر أيام سقراط" فنانة شاملة متكاملة.

كارول كانت البطلة الدرامية الحقيقية للعمل بدون أي شك. إلى جانب أن غناءها ورقصها التعبيرين كانا رائعين لم يقلاّ بشيء عن مستواها كممثلة ذات حضور درامي واضح.

لقد استعملت أنوثتها كعنصر داخل اللعبة الدرامية بشكل جعلها تقف بجدارة أمام رفيق علي أحمد بطل العمل. هي في العمل في أحسن أحوالها كممثلة وغنت كما لم تغنِ من قبل.

تجدر الإشارة إلى الممثل الهادي الصامت، صاحب الصوت الجميل جدا الذي عرفته وأنا ما زلت تلميذا في المدرسة وكان أستاذا لي :وليم حسواني، الذي لازم الأخوين رحباني منذ أول مسرحية لهما والذي تحول إلى ممثل محترف بالممارسة. ودوره في المسرحية (الحاكم الديموقراطي أنيثوس) هو أكبر دور مثله مع أنه كان يستحق أدوارا مهمة في المسرح الرحباني منذ زمن بعيد. لعله في هذه المسرحية كان البديل عن الراحل الفنان نصري شمس الدين في تركيبة المسرح الرحباني.

4- **الرقص**

للرقص في هذا العمل خطان: الدبكات والرقصات التعبيرية الدرامية فيما يخص الدبكات فإنها من تصميم سامي خوري. والواقع أن رقص الدبكة في لبنان إجمالا لم يأت بجديد منذ بديعة ومروان جرار ورقصاتهما البديعة في أوبريت حكاية لبنان (كازينو لبنان 1957) وأوبريت أرضنا إلى الأبد (بعلبك 1964) على دبكات زكي ناصف العظيمة التاريخية سهرنا سهرنا – ليلتنا – درب الغزلان – ابو الميجنا(من حكاية لبنان) ويا بلادنا مهما نسينا (من أرضنا إلى الأبد) ورقصات زكي ناصف وتوفيق الباشا التي وصلت إلى

المستوى العالمي من ناحية التلحين والتوزيع. ولا ننسى هنا دبكة بالساحة تلاقينا للملحن اللبناني الكبير عفيف رضوان. الخطوات في دبكات "سقراط" هي نفسها تحركات الراقصين نفسها. ولكن تجدر الإشارة هنا إلى التوقيت الذكي والموفق للمؤلف في إدخال دبكتين لبنانيتين في هذا السياق الدرامي الإغريقي (دبكات الوفد الفينيقي) بطريقة جاءت لخدمة التطور الدرامي. الأولى عندما جاء الوفد الفينيقي لتهنئة الحاكم كريثياس الذي نصبته سبارطة عدوة أثينا، والثانية عندما جاء الوفد نفسه لتهنئة زعيم الديمقراطيين أنيثوس الذي نصّب نفسه بعد الانقلاب حاكما بدلا من كريتياس. ولم ينسَ المؤلف وفي تلميح سياسي شديد المرارة عندما جاء الوفد للمرة الثانية للتهنئة:

أنثوس : مش هنّي إجو هنوا كريتياس لما احتلتنا سبارطة؟ (أو ليسوا هم الذين جاؤوا وهنأوا عندما احتلتنا سبارطة)؟.

ميليتوس : هودي شغلِتن يهنّو (هذه الناس شغلهم أن يهنئوا).

أما ألحان الدبكات فكانت من نفس نوعية دبكات الأخوين رحباني نفسها التي عرفناها في جميع مسرحياتهما: ينقصها النفس اللحني الطويل والتلوين المقامي والبناء الموسيقي والدرامي والقوة التأثيرية الانفعالية العالية، هذه العناصر البنائية الهامة التي نجدها في كل دبكات زكي ناصف بشكل واضح وقوي جدا. ولا يجوز أن ننهي كلامنا عن الدبكات من دون أن ننوّه بالراقص أرثو مغدسيان الذي تميّز بشكل واضح بين جميع أقرانه بعنفوان حركاته وباستغلال شعره الطويل وحركة رأسه في لعبة التعبير الحركي للرقصة وذلك بهز رأسه وشعره بعنفوان في جميع الاتجاهات.

أما الخط الثاني للرقص (التعبيري) فكان عنصرا مهما في تقوية الخط الدرامي للعمل. وكان دخوله في الوقت المحدد دراميا يقوي الشحنات الانفعالية ويسترع وتيرة التطور الدرامي. لقد كانت تحركات المجاميع عنصرا دراميا مبهرا فعلا أبدعه مصمم الرقصات فيلبكس هاروثوبيان الذي جاء به مروان الرحباني من روسيا خصيصا. ومن أحلى هذه الرقصات تلك التي تلتقي بها حركات رقصة السير تاكي اليونانية مع عناصر

الدبكة اللبنانية بتناغم وتجانس فني رائع وإن دلّ على شيء فعلى اتساع ثقافة المصمم الفنية ومعرفته برقصات الشعوب وقدرته الكبيرة على التركيب (Synthese) بين عناصر الرقصات المختلفة لشعوب مختلفة. ولابد من التنويه أخيرا بالراقصة الأولى المبدعة دانييل الرحباني وليونتها في تأدية أصعب الحركات والرقصات وكذلك بالمستوى الاحترافي العالي لجميع الراقصين ولياقتهم البدنية العالية التي تدل على جدية التدريبات والمدرب هاروثونيان.

5- الإخراج

أول ما يلفت النظر في إخراج هذه المسرحية أن كل التفاصيل الإخراجية المرتبطة بالتعبير الدرامي موجودة كتابةً في النص حتى حركات الرقص التعبيري ولون الملابس في المشاهد الدرامية ودخول الأبواق النحاسية في اللعبة الدرامية وحركة الشخصيات الرئيسية. ولكن وبالرغم من كل ذلك فقد استطاع مخرج العمل مروان الرحباني من خلال تنفيذ كل التفاصيل الإخراجية للمؤلف، استطاع أن يثبت نفسه مخرجا مبدعا وحساسا بواسطة جماليات تنفيذ هذه الملاحظات من خلال رؤيته الفنية الخاصة ومن خلال حركة المجاميع الرائعة على المسرح ووتيرة هذه الحركة والتفاوت بالوتيرة بين البطيء والسريع(Tempo) فقد كان الإخراج وكأنه خط موسيقي ثانٍ بألحانه وحركته وسرعاته المتفاوتة.

من أبدع ما استعمله مروان في الإخراج الضوء الأحمر والأزرق كخلفية للعبة خيال الظل الذي استعمله لإدخال عناصر الإخراج السينمائي على المسرحية كظهور عازف في الأبواق النحاسية. هذا المشهد ذكرنا بالأفلام التاريخية الهوليودية لسيبيل ب.دوميل التي عالجت حياة السيد المسيح (كوفاديس والرداءThe Robe). قد كان هذا الاستعمال من أهم اللحظات الذكية في الإخراج والتي وضحت التقريب بين شخصية سقراط وشخصية السيد المسيح التي عولجت في الأفلام الغربية والتي لاحظناها بوضوح في النص الدرامي.

ولعل أقوى لحظات الإخراج في هذه المسرحية المشهد الأخير الذي يشرب فيه سقراط كأس السم. لقد كنا مشدودين ننتظر كيف سيقع. وإذ بعصاه تسقط بينما هو يبقى واقفا متجمدا، ماسكا كأسه. وفي نفس لحظة صوت سقوط العصا يضيء كشاف فوق سقراط تماما ليجعل كل أطرافه مضيئة بينما يبقى جسمه في الأمام مظلما.

وتحيط به المجاميع برقصة تعبيرية درامية مذهلة ليختفي بينها بعد أن ترمي العباءات السود فتظهر بالعباءات البيض. وتنتهي المسرحية بظهور سقراط يرتفع حيا إلى فوق تلميحا إلى صعود السيد المسيح ولبقاء فكر سقراط حيا بعد موت جسده. بينما تركع الجموع ضارعة بيدها إلى فوق بحركة درامية معبرة قوية مواكبة صعود سقراط.

6- **الموسيقى**

نصل أخيرا إلى ما هو المفروض أن يكون أقوى عنصر في هذه الأوبريت الغنائية: إلى الموسيقى. الموسيقى في هذه المسرحية كالرقص خطان متوازيان: الخط الأول الغنائي وفيه كل الأغنيات والخط الثاني: الدرامي التعبيري الموجود في المقاطع الأوركسترالية. الخط الغنائي الذي لا يلعب أي دور درامي، جاء الأضعف في المسرحية بسبب وجود تكرار لكثير من الجمل الموسيقية سبق وسمعناها في أعمال الرحبانية المسرحية وغير المسرحية. من أهم هذه الجمل المكررة السلم الخماسي (من الدرجة السادسة من مقام العجم صعودا لدرجته الثالثة ثم ركوزه هبوطه على الدرجة الأولى درجة الارتكاز للمقام).

هذه الجملة وردت من دون أية مبالغة عشرات المرات في تراث الأخوين رحباني. وردت أول مرة في المقدمة الموسيقية للحوارية الغنائية "هلّك ومستهلّك" التي أداها وليم حسوان وسهام شماسي من أحدي أوائل الأوبريتات الرحبانية ثم سمعناها في "هلّي عالريح" وفي "برجك عيد" و"بييّي راح مع العسكر" وفي معزوفة عرق سوس وفي المقدمة الموسيقية لقصيدة يا عاثر الحاجبين ثم في جملة "الطفل في المغارة" من "زهرة المدائن" و

في الكثير من الأغنيات الأخرى، وما ذكرنا للمثال فقط لا الحصر. في أغنية "يا سفينة" إعادة لأجواء "ع اسمك غنيت". في أغنية "لو فييّ خبيك" من المشهد 26 من الفصل الأول نسمع تأثيرا واضحا جدا بأغنية "ذا ساوند اوف ميوزيك" في الفيلم الذي يحمل نفس الاسم وفي الأغنية – الدبكة "طلت علينا السني" نجد تكرارا من أغنية نصري شمس الدين "يا رايح عالطواحين" مع وقفة جميلة على درجة "السيكا" مع أنها مكررة أيضا. وفي أغنية "المعني الكلّي" وبالرغم من الوزن الإيقاعي المختلف فإن هذا الاختلاف لم يستطع أن يخفي تأثير الرحبانية كارل أورف "أو فورتونا" الشهير وهو مطلع كانتانا "كارمينا بورانا" خصوصا عند إعادة المطلع.

كما أننا نجد المعالجة الموسيقية الخاطئة لإيقاع الكلمة العربية التي تملأ تراث الأخوين الرحباني فتتحول كلمة "دهب" إلى "داهب" وكلمة "حصاد" إلى "حاصاد" في أغنية "أحمر لون الثورة دهب لون الحصاد" وكلمة "حقيقة" إلى "حا قيقة" في أغنية "يلا يا معلم" وغيرها وغيرها وقد لا تخلو أغنية من أغانيهما من المعالجة الخاطئة لإيقاع الكلمة العربية بالرغم من كونهما شاعرين غنائيين كبيرين إلى جانب كونهما موسيقيين عملاقين.

كما ورد عدة مرات تكرار في عبارات شعرية اشتهر بها الرحبانيان كعبارات: "رمح الصدي" و"جرح المدي" في أغنية "قالت الصبية" بعد رقصة البربر، وما ذكروني(كما في وخبيني ولا تتجبيني من "يا أنا يا أنا") وردت في أغنية "وحياتك."

أجمل أغنية في هذه المسرحية هي "وحياتك خلّك قلّي" وتبدأ بغناء مرسل " (Recitativo)غرّب الليل" وهي ملحنة بتقليد مقصود ورائع (Stylisation) الألحان اليونانية الشعبية وقد أدتها كارول بشكل رومانسي وتعبيري رائع. تبدأ الأغنية بتجانسات (اكوراث) على الهارب في مقام العجم مكتوبة بشكل متقن لملحن عارف بتقنيات الآلة معرفة جيدة أو قد تكون ارتجاليات عازف الهارب العارف لآلته. المقدمة متأرجحة بين العجم والنهاوند مشكلة بذلك قلقا وجدانيا ناعما. إلى أن يستقر الارتجال على مقام

النهاوند لتبدأ كارول بغناء إلقائي (Recitativo) رائع وهادئ أدته كارول باحترافية عالية ودفء وعمق انسيابيين فيهما الكثير من كبار المطربات. هذا المقطع الصغير يستحق بعمقه وجماله وأدائه أن يكون في مقطع مشابه في أية مسرحية غنائية عالمية. يبدأ بعد ذلك الإيقاع هادئا فيه شحنات وجدانية ليبدأ بعده المطلع جميلا جدا وهادئا ولكن عالي الانفعالية لينتهي بانحسار في لحن رائع متين البناء ليسلم الدفة إلى اللازمة الموسيقية الجارفة الانفعالية مع توزيع على الكمنجات على السلم الملون (Chromatic) في أنصاف الأصوات مضيفا شحنات انفعالية إضافية إلى هذا الجو الجميل الانفعالي ثم يأتي مقطعا على اللحن نفسه.

يبدأ المقطع على مقام النهاوند يأتي النصف الثاني على مقام العجم بشكل مفاجئ تصادمي يزيد من الشحنة الانفعالية للّحن، ثم يبدأ اللحن على العجم بالانحسار التدريجي ليسلم الدفة للمطلع الغنائي بنفس متانة البناء والروعة في اللحن التي رأيناها بعد المطلع في بداية الأغنية. كل ذلك في جو انفعالي وجداني عالٍ على مادة لحنية من أروع ما لحن الرحبانية إلى أن تأتي النهاية بتباطؤ مفاجئ وإيقاف للإيقاع مع تصعيد رائع لقوة الصوت لتنتهي الأغنية بضربات على الأوركسترا قوّية وعصبية ومقطعة على السرعة الأساسية لتنتهي الأغنية بانفعالية عالية جدا. إن هذه الأغنية تشرف أي ملحن يوناني أن يكون ملحنها.

النقطة الدرامية الوحيدة في هذا الخط الغنائي تأتي في مشهد تكريس كريتياس حاكما على أثينا وإعلان عدم إعدام الديمقراطيين وجيرانهم حيث جاء الغناء كنائسيا بيزنطيا صرفا ساعد كثيرا على إظهار البعد الدرامي للمشهدين.

ومن أقوى اللحظات الموسيقية (مع أنها من دون موسيقى) استعمال اللحنين كورس البناث على طريقة المسرحيات الإغريقية القديمة في السرد الكلامي من دون لحن ولكنه جاء في شكل توزيع هارموني مقسما على ثلاث طبقات صوتية. وهذا منتج جديد في الدراما الموسيقية العربية. وقد أبدع منصور في توزيع الهزام في خمس أصوات في

مقطع "فتّش تافتّش ع جمهورية" في أغنية "يا صبية شوي شوي" وهذا النوع الهارموني للهزام ورد أول ما ورد في أغنية زكي ناصف "اشتقنا كتير" وفي بعض أعمال توفيق الباشا.

خلاصة

وأخيرا مهما قيل عن مسرح الرحبانية سلبا أو إيجابا سيبقى لهذين القطبين العملاقين في تاريخ الموسيقى العربية المعاصرة إيمانهما الكبير والعملي بأهمية المسرح ليس فقط نظريا، وقد تكلما عن ذلك كثيرا، بل وعمليا أيضا باستمرارهما وإصرارهما على تقديم المسرح الغنائي كل عام من سنة 1957 لغاية 1984 معا ولغاية 2001 منصور وحده بعد رحيل عاصي أي على قرابة نصف قرن (بالضبط 44 عاما)، بجانب إسكتشاتهما الإذاعية هذه اللآلئ المسرحية الصغيرة الرائعة التي تتمنّى أن ترى النور ثانية لتنضم إلى أخواتها الكبيرة وتأتي أهمية ما نقول :

أولاً: أن مسرح الأخوين رحباني جاء في المنطقة الجغرافية الشرقية لمسقط رأس المسرح الغنائي العربي(مصر) ومكملا له في المشرق وبالتحديد في لبنان. المنطقة الشرقية التي تشكل منطقية التوازن المشرقية مقابل منطقة النقل من ناحية الغرب(مصر) في ما يخص بالثقافة عامة والموسيقى خاصة.

ثانيا: وبخلاف المسرح الغنائي المصري فإن تراث الأخوين الرحباني محفوظ بشكل كامل في تسجيلات سمعية وبصرية يسهّل علينا إعادة تقديمه كاملا على المسارح فيكون ذلك مع مسرحيات زياد رحباني جزءا كبيرا وفي منتهى الأهمية من عملية التكامل الحضاري العربي.

زكي نجيب محمود.. مسيرة حياة وقصة عقل

صـــــلاح ســـــالم

كاتب ومفكر بجريدة الأهرام - القاهرة

على منوال موسى بن ميمون في تاريخ الفكر اليهودي، وابن رشد في الفكر العربي الإسلامي، أولئك الذين صاغوا منطق العلاقة بين العقل والإيمان في مراحل تحول كبرى داخل ثقافاتهم، يقف د. زكي نجيب محمود شامخًا على قمة الموجة الثالثة "التوفيقية" في تيار النهضة العربية، والتي مثلت دعوة للنهوض كما أرادت الموجة الأولى الإصلاحية إبان القرن التاسع عشر. ودعوة للانفتاح على الآخر كما أرادت الموجة الثانية / العلموية مطلع القرن العشرين.

بل يمكن القول إنه قام بدور يقارب كانط في تاريخ الفكر الغربي، حيث تمكن الفيلسوف الألماني من إعادة صياغة الثنائية الديكارتية، المضمنة في الكوجيتو (الفكر . الامتداد) التي أسست للفلسفة الحديثة على قاعدة تصورين أساسيين: أولهما هو الألوهية المفارقة للوجود، حيث الإله ذات مطلقة، تسمو على العالم وليست محايثة له، أي قائمة فيه ومباطنة لموجوداته، باعتبارها أصل تلك الموجودات وروحها الداخلي. وثانيهما هو الإنسان المتسامي على الطبيعة، والمحكوم بقانون الإرادة الذي يتيح له فرصة الاختيار تعبيرا عن ملكة الحرية، فيما الطبيعة محكومة بقانون العلية الذي يعكس حتمية آلية، تقوم على الجبر والانتظام تحت طائفة قوانين كونية متسقة وشاملة تتحكم بها. هذه الثنائية تعرضت لتحديات وضغوط كبيرة أفرزتها الثورة العلمية انطلاقا من فيزياء نيوتن، كادت تُشطرها بين تيارين متناقضين يتجذر كلاهما في ديكارت، ولكن أحدهما مادي يركز على الامتداد إلى درجة إنكار الفكر، وهو التيار الذي انعكس في فلسفة اسبينوزا التي أكدت على الواحدية المادية، التي سعى الفيلسوف الأسكتلندي ديفيد هيوم إلى

تهذيبها في ثنائية شبه مادية، تمايز بين الطبيعة والإنسان ولكنها تعطي للطبيعة الأولوية في عملية المعرفة على حساب العقل الإنساني. أما التيار الآخر فروحي يركز على الفكر إلى درجة تهميش الواقع أو نفيه، وهو الطريق الذي شقه ليبنتز مؤكدا على واحدية روحية، تتصور الوجود كله، وفي قلبه الطبيعة، باعتباره مجموعة من الجواهر الروحية (المونادات) التي تشكل حركتها الأبدية طبيعة الوجود الكوني وهو الفهم الذي حاول الفيلسوف الإنجليزي جورج باركلي تخفيفه، بإعادة التأكيد على ثنائية ديكارت ولكن مع إعطاء أولوية للمكون الروحي، إذ اعترف بواقعية الطبيعة نعم ولكنه منح العقل الإنساني قدرة مطلقة على معرفتها حتى لم يعد لها وجود إلا بإدراك العقل لها.

ومن ثم بدا الإيمان الروحي وكأنه نقيض للعقلانية العلمية، حتى جاء إيمانويل كانط في ذروة عصر التنوير ليعيد بناء الثنائية الديكارتية على قاعدة أكثر صلابة، مميزا بين طرائق معرفة الطبيعة وما بعد الطبيعة، ومؤكدا على أهمية الذات / العقل من جانب والواقع / المادة من جانب آخر، مؤسسا للنزعة النقدية التي مثلت على صعيد الفلسفة ما يوازي الانقلاب الكوبرنيقي على صعيد الفلك، حيث الواقع المادي قائم ومعترف به اعترافا كاملا، لكنه لا يعطينا سوى انطباعات أو مدركات حسية لا يمكن فهمها أو تحويلها إلى أفكار إلا من خلال العقل البشري ومبادئه الكلية، التي تحتوي على مقولات (وسائط للفهم والتأمل والتحليل) من قبيل الزمان والمكان والعلية، تنظم الواقع وتجعله قابلا للفهم العقلي، حيث صار العالم الطبيعي يدور في فلك العقل الإنساني، الذي احتل موقع المركز في عملية الفهم، مثلما تدور الأرض حول الشمس التي احتلت موقع المركز في النظام الفلكي.

شيء مشابه قام به زكي نجيب محمود في الثقافة العربية الحديثة، التي احتل فيها محمد عبده موقع ديكارت، منذ قدم صياغته الرائقة للعلاقة بين العقل والنص، معطيا الأولوية للعقل، مؤكدا على أن النص لا يمكنه أن يتناقض مع العقل، فإذا ما تبدى تناقض كان بالضرورة (ظاهريا)، يفرض تحكيم العقل فيه، ليس لأن ثمة خطأ في النص

ولكن لأن فهمه قد استغلق على الذهن، ومن ثم وجب التأويل بحسب قواعد اللغة العربية. وهكذا لا تبدو مركزية العقل استعلاء على النص أو رفضا له، بل وسيلة فهم يتم من خلالها تجاوز ظاهره إلى باطنه، والولوج إلى قلب الحكمة منه. غير أن هذا الفهم الثوري توارثه تياران طالما تصارعا على الثقافة العربية طوال القرن تقريبا بين التاسع عشر والعشرين: أولهما العلموي الذي تجسد في شبلي شميل وفرح أنطون كمدافعين عن النزعة التطورية الداروينية والفلسفة الرشدية، كما في سلامة موسى الذي دافع بشراسة عن مجمل الفكر الغربي المادي. وثانيهما السلفي الذي تجسد في رشيد رضا ثم حسن البنا، مدافعا عن يوتوبيا الخلافة الدينية، على نحو أفضى إلى الإسلام السياسي ثم الجهادي. في هذا السياق كان زكي نجيب محمود، هو الرجل الذي أعاد بناء ثنائية محمد عبده (العقل والنص) مستندا إلى إسهامات الفكر العقلاني التالية على المصلح الكبير، ولكن متمما لها وواضعا إياها في قالب توفيقي هو (الأصالة والمعاصرة).

النشأة والتكوين

عندما ولد الطفل زكي نجيب محمود عام 1905م بقرية ميت الخولي عبدالله، من أعمال مدينة المنصورة محافظة الدقهلية آنذاك ودمياط الآن، كانت الثقافة العربية لا تزال تعيش حال صدمة حضارية منذ وعى أهلوها بحقيقة تخلفهم، وضرورة تجددهم، وأدرك مبدعوها الحقيقة الملتبسة للغرب الذي طرق أبوابهم قبل القرن ونيف بمطبعته ومدفعه على السواء فتبدى لهم نورا ونارا، ولكنهم دوما، فشلوا في تعيين الطريقة التي بها يتم دفع النار قبل أن تصبح حريقا، من دون أن يحرموا أنفسهم من نور يبصرون به حقيقة عالمهم.

لقد حدث الكشف الثقافي ووقعت الصدمة الحضارية، وبعدها بدأ طوفان أسئلة لم يتوقف. ذهب مفكرون عرب إلى البر الغربي وعادوا. درس بعضهم بتمعن، وألقى بعضهم الآخر نظرات عابرة. بقي البعض ثابت العقل، وتهاوى جنان البعض الآخر. في البداية دارت كل خطابات النهضة العربية حول إصلاح الإسلام، حيث حاول رفاعة

الطهطاوي تحقيق النهضة من خلال نقل الأعمال الكبرى في الثقافة الغربية إلى العربية، ودعا خير الدين التونسي إلى منهجية عقلية تتزرع جذورها في التربة الإسلامية لاستنبات رجال دين يعرفون الدنيا كما يعرفون الشريعة. كما دعا الألوسي إلى إصلاح شامل تتكامل فيه مناهج إصلاح العقيدة، والشريعة، والفكر، والأدب، واللغة. ثم كانت دعوة الثائر جمال الدين الأفغاني إلى التحرر من التخلف والتقليد باستعادة العقلانية الإسلامية في مواجهة اتهامات مفكري الغرب الدهريين للإسلام وعلى رأسهم الفرنسي "أرنست رينان" الذي جادله كثيرا في مناظرات معروفة. وصولا إلى الإمام محمد عبده، الذي صاغ تلك المحاولات منهجيا بدعوته إلى "عقلانية إسلامية" يمكن اكتسابها من خلال التربية. وفي إلماحه تشي بتدين صوفي لدى زكي نجيب محمود في صباه المبكر، الذي رافق هذه الموجة النهضوية، ربما بتأثير قضائه بعض أيامه في كتاب "الشيخ ربيع" وحفظه لبعض سور القرآن الكريم، يقول في سيرته العقلية متذكرا: "قدمت الذاكرة إلى غلاما في الخامسة عشر تسري في أوصاله المشاعر الدينية إلى حد الخشوع الذي يتصدع له الجبل."

وعندما أخذ زكي نجيب محمود يمارس دوره الفكري في ثلاثينيات القرن العشرين كان خطاب النهضة الإصلاحي قد تبلور في تيارين نقيضين: أولهما سلفي انحاز إلى الأصالة الإسلامية، باعتبارها المكون الأكثر تقليدية في الفكر النهضوي، بعد أن أعاد فهمه وتأويله حسب أكثر التصورات محافظة. وفي هذا السياق تندرج أعمال وأدوار رجال من قبيل محمد رشيد رضا الذي اعتبر استعادة الخلافة الإسلامية هدفا وغاية. ومحمد فريد وجدي الذي رأى الإسلام أصلا جوهريا للمدنية الحديثة، ومن ثم فالرجوع إلى جذوره هو الطريق الحقيقي لاستعادة المدنية العربية. وشكيب أرسلان الذي ربط التخلف العربي بالضعف الأخلاقي، وفقدان الهمة ومن ثم دعا إلى استعادة كليهما من قلب النص القرآني، المنبع الذي نهل منه أسلافنا الأوائل. وثانيهما هو التيار التغريبى (العلموي) الذي ارتاد أفقه فرح أنطون وشبلي شميل، وعلى نحو ما منصور فهمي ومحمد حسين هيكل في مرحلة شبابهما واندفاعهما الفكري، فيما صاغ منطقه وأشاعه في الفضاء

الثقافي العام المفكر سلامة موسى. تبنى هذا التيار المرجعية الثقافية الغربية كاملة، تحت تأثير السطوة التاريخية لتجربة الحداثة. فسياسيا كان المركز الغربي هو المتحكم في شئون العالم وتنظيمه المركزي آنذاك (عصبة الأمم)، واقتصاديا كانت أوروبا هي التي أنجزت لقرنين مضيا الثورة الصناعية الأولى، وكانت الولايات المتحدة تعمل على إنجاز الثورة الصناعية الثانية التي مكنتها من تغيير وجه العالم بالصناعات الكيماوية والهندسية وصولا إلى التكنولوجيا النووية بعد الحرب الثانية مباشرة. وعسكريا كان الغرب بجناحيه الرأسمالي والشيوعي يسيطر على ثلاثة أرباع الكرة الأرضية، ولم تكن هناك أي قوة فكرية أو سياسية تستطيع التصدي له. وقد بلغت هذه الموجة ذروتها بين نهاية الحرب العالمية الأولى ونهاية الحرب الثانية تقريبا، في فترة يمكن أن نسميها "عصر التنوير المصري".

وعلى هذا وقع زكي نجيب محمود الشاب، في مرحلة تكوينه، بين تيارات فكرية متعددة تركت أثرها عليه، فهو تارة، حسب وصفه لنفسه: "الطالب المتدين الذي امتدت به الدراسة بمدرسة المعلمين العليا حتى عام 1930، وهو تارة أخرى المثقف الناشئ، والأديب الواعد الذي لا يزال يبحث عن نفسه بين رفوف الكتب، وأشتات الأفكار، وفي ثنايا المذاهب". وهو أيضا المتفلسف الناشئ، المنفتح على مجلة "المجلة" وصاحبها هو سلامة موسى، الداعي إلى "قتل" التراث من ناحية، وعلى مجلة الرسالة وناشرها هو أحمد حسن الزيات الأقرب إلى "إحياء" التراث من ناحية أخرى. وهو في الوقت ذاته عضو نشيط في لجنة التأليف والترجمة والنشر، ومشارك للأستاذ أحمد أمين في تصنيف وترجمة أعمال أدبية وفلسفية غربية، شكلت نافذة على الفكر الغربي مثل: "قصة الأدب في العالم"، و"قصة الفلسفة اليونانية" و"الفلسفة الحديثة". وربما منحه هذا التعدد ثراء معرفيا كبيرا، ولكنه في المقابل أعاقه عن بلورة موقف فكري واضح، على نحو جعله يجمع بين صوفية ترى في الوجود كله وحدة لا تعدد فيها ولا تمايز بين أجزائها اللهم إلا في المظهر الخارجي الخادع ما دفعه إلى تفسير عينية ابن سينا. وبين نظرة علمية دفعته ليكتب منتصرا للقوانين الطبيعية ضد فكرة المعجزة متأثرا بـ "اسبينوزا" قائلا: "إن قدرة

الخالق إنما تتمثل في أن تطرد قوانين الكون اطرادا لا يقف في سبيله شيء، وليست قدرته في أن يوقف الشمس كما يقول رواة المعجزات أنها وقفت ليوشع، أو أن يشق البحر كما يقولون أنه انشق لموسى، ولا أن يبرئ الأكمه والأبرص بلمسة كما يقولون عن عيسى..". وقد استمر هذا الموقف الفكري حتى السفر إلى لندن لنيل رسالة الدكتوراه في موضوع (الجبر الذاتي) عام 1944م، مراوحا بين تدين لدرجة التصوف، وبين عقلانية ترفض المعجزات المعطلة للقوانين الطبيعية، وهو ما نراه من جانبنا موقفا رواقيا، يعول على الحكمة والتأمل، ويستوعب الرؤية الروحية للوجود، ما يعني أنه موقف فلسفي أكثر منه تدينا تقليديا، وهو ما بات واضحا مع عودته من لندن عام 1947 داعيا للوضعية المنطقية.

الوضعية المنطقية والغربة الثقافية

أصابته السنوات الثلاث التي قضاها في جامعة لندن بصدمتين ثقافيتين كشف عنهما زكي نجيب محمود في كتابه الأدبي الباكر "جنة العبيط": الأولى صدمة الحرية. والثانية صدمة العلم. ومن ثم راح يمعن النظر في الاتجاهات الفلسفية الغربية، القادرة على عقلنة وتحرير الشخصية العربية، ليجدها أربعة أساسية جذرها المشترك هو اتخاذ "الإنسان" في حياته الدنيوية محورا للاهتمام: أولها يتمثل في فلسفة التحليل اللغوي (الوضعية المنطقية)، السائدة في بريطانيا، فما دامت تصب اهتمامها على التفكير العلمي فهي بالتالي تقصر هذا الاهتمام على ما هو ذو صلة بحياة الإنسان على هذه الأرض. وثانيها هو الفلسفة البرجماتية السائدة في أمريكا وأساسها هو أن الفكرة تعد صحيحة إذا كانت نتائجها نافعة للإنسان، فليس المهم هو "أصل الفكرة" من أين جاءت وكيف جاءت؟ بل المهم هو ما تثمره للإنسان من نتائج تنفعه في حياته. وثالثها هو الفلسفة الوجودية في غرب أوروبا، ومدارها حرية الإنسان فيما يتخذه لنفسه من قرارات ليكون مسئولا عنها أخلاقيا. ورابعها هو الفلسفة المادية الجدلية السائدة في شرق أوروبا ومحورها هو أن الحياة الثقافية، بما فيها القيم الأخلاقية والجمالية إنما تولدت عن الحياة

الاقتصادية، فإذا تغيرت أسس الحياة الاقتصادية المادية، تغيرت بالتالي دنيا الثقافة، وإذن ففي مقدورنا أن نشكل الحياة العلاقات الاقتصادية تشكيلا ينتهي بنا إلى إقامة حياة إنسانية تصون للإنسان حقوقه".

وقد اختار الرجل من بينها جميعا "الوضعية المنطقية"، وهي فلسفة تسعى إلى إقامة مطابقة بين بنية اللغة والعالم، باعتبار أن اللغة هي نفسها الفكر وليست مجرد وعاء له، وأن العقلانية تفترض الاستخدام الجيد للغة بحيث يكون لكل ما تنطوي عليه مفردات اللغة من جمل وعبارات شواهد وأعيان في الواقع الخارجي، فإذا لم توجد تلك الشواهد والأعيان كانت المفردات هذه محض لغو لا معنى له، ومن ثم يصبح استخدامها غير صحيح أو مشروع. تلك الصيغة، الأكثر راديكالية للعقلانية، كانت قد تبلورت في سياق حلقة فيينا خلال الربع الأول من القرن العشرين، على يدي رواد من أمثال كارناب وشليك، وفتجنشتين، أولئك الذين حاولوا أن يضعوا الكون في إطار لغوي، تتضافر في صنعه الرياضيات والمنطق، إذ يستجيب للنزعة الحتمية الموروثة عن فيزياء نيوتن، ويؤكد على الثقة المفرطة في العلم الطبيعي / التجريبي، وفي قدرته على تفسير شتى جوانب الظاهرة الإنسانية.

ومنذ عودته 1947 وحتى مطلع الستينيات عاش زكي نجيب محمود كداعية للوضعية، التي رآها طريقا وحيدا لتخليص الثقافة العربية من هيمنة الميتافيزيقيا. ففي كتاب "شروق من الغرب" الصادر عام1951م بدأ تلك الدعوة. وفي كتاب "المنطق الوضعي" بجزئيه: "المنطق الصوري"، و"فلسفة العلم" 1952م، صاغ مانيفستو دعوته المنطقية على هذا النحو: "أنا مؤمن بالعلم، كافر بهذا اللغو الذي لا يجدي على أصحابه، ولا على الناس شيئا، وعندي أن الأمة تأخذ بنصيب من المدنية، يكثر أو يقل، بمقدار ما تأخذ بنصيب من العلم ومنهجه". ثم توالت أعماله طيلة الخمسينيات معبرة عن هذا الاتجاه نفسه مثل "خرافة الميتافيزيقيا عام 1953م، و"نحو فلسفة علمية" عام 1960م، فضلا عن كتابين صدرا له عامي 1956م، 1958م الأول عن فلسفة "برتراند

رسل" الذي كان قد أمد الوضعية المنطقية بكثير من أدواتها التحليلية وإن لم يعلن انتماءه إليها رسميا. والثاني عن "ديفيد هيوم" الأب الأول للتيار الوضعي العام منذ القرن الثامن عشر. وقريبا منها يأتي كتاب "حياة الفكر في العالم الجديد" مؤرخا للفلسفة الأمريكية في تيارها الأساسي "البراجماتي" والذي يبدو فرعا للأصل الوضعي، وخاصة لدى تشارلز بيرس، ووليم جيمس، وجون ديوي. وقد أفضت حماسته الوضعية إلى الهجوم عليه تحت وطأة هاجسين:

أولهما: هو الإلحاد ظنا من مهاجميه بأنه مادام ينفي المعرفة الميتافيزيقية، ووجود الله من القضايا الميتافيزيقية، فهو إذن ينفي وجود الله. ولم يكن ذلك صحيحا، فهو لم يتصور الوضعية المنطقية "مذهبا فلسفيا "موجبا يطرح تصورات "كلية" عن القضايا الفلسفية الكبرى من قبيل: الله، والحرية والخلود مثلا، بل تصورها "منهجا" للتفكير العلمي يتوقف عند حدود العالم الطبيعي والواقع الاجتماعي، حيث يستحيل إقامة البرهان التجريبي على ما فوق أو بعد الطبيعة، خصوصا وجود الله. ورغم أنه نفسه يؤمن بوجوده، فإن هذا الإيمان لا يأتيه من خلال التجربة بل عبر الوجدان، أي الحدس المباشر كطريق للمعرفة أوسع وأشمل من طريق العقل الخالص، وإن لم يكن بالضرورة مناقضا له. وبمعنى أبسط أراد القول: مات أرسطو.. عاش بيكون. غير أن هذا القول قد أفضى إلى منع كتابه "خرافة الميتافيزيقيا"، والذي عاد ليصدره هو نفسه، بعد أكثر من العقد، ولكن بمقدمة شارحة، وعنوان أكثر مهادنة "موقف من الميتافيزيقيا". ولذا فقد اعتز الرجل كثيرًا بوصف العقاد له (أديب الفلاسفة وفيلسوف الأدباء)، إذ اعتبره شهادة تمكين له في الحقل الثقافي .

أما الثاني: فهو "التغريب الثقافي"، وهنا تبدو دعاوى مهاجميه أكثر جدية؛ ذلك أن قصر دور الفلسفة على التحليل اللغوي لقضايا العلم التجريبي، استخلاصا لمبادئه وقوانينه العامة، ومن ثم نفي فاعلية الفكر الفلسفي في بلورة المبادئ التأسيسية والمفاهيم الكبرى، إنما تعني الخضوع لتصور أحادي عن "العقلانية" ينهض على الحتمية العلمية، ويستعيد مقولات التنوير المادي، وهو الفهم الذي كان قد أخذ

يتراجع في الغرب نفسه آنذاك (ستينيات القرن العشرين) بفعل نجاح فلاسفة علم من أمثال كارل بوبر، وتوماس كون، في الكشف عن منطق للكشف والتطور العلمي يكرس لمفهوم الاحتمال على حساب الحتمية، وصعود تيارات فلسفية تؤسس لنفسها على نسبية فيزياء أينشتين بدلا من استاتيكية فيزياء نيوتن، على نحو ينفي عن الوضعية المتطرفة حق الحديث وحدها باسم العلم التجريبي، وعن العلم التجريبي حق الحديث وحده باسم الفكر الإنساني، وعن الغرب المتمركز حول ذاته حق الحديث باسم الإنسانية، وعن الإنسان نفسه إمكانية اختزاله في بعد واحد مادي، كما كان يؤكد هربرت ماركوزا باسم مدرسة فرانكفورت التي كانت تستعيد حضورها النقدي، ما سوف يدفع زكي نجيب محمود إلى تجاوز الموقف الوضعي.

الأصالة والمعاصرة

نعترف أن كثرا سبقوا الراحل الكبير زكي نجيب محمود على طريق النزعة التوفيقية، غير أن دعوتهم إليها بقيت متناثرة، رهينة تعبير أدبي ما في رواية كما كان الأمر لدى نجيب محفوظ، أو خبيئة نزعة فنية رومانسية أقرب إلى الحدس الصوفي منها إلى التحليل العقلي كما كان الأمر في دعوى "التعادلية" لدى الحكيم في كتابه الموجز تحت العنوان نفسه، أو قرينة معالجة جزئية كما كان الأمر لدى علي عبد الرازق في كتابه الأثير "الإسلام وأصول الحكم"، أو حتى في كتاب إشكالي صادم كما كان الأمر لدى طه حسين "في الشعر الجاهلي".. إلخ. وعلى الأكثر في محاولات أولية لاستيعاب التراث وتجاوز بنائه السلفي على صعيد المضمون والقضايا وطريقة العرض من ناحية، وإلى تقديم الفكر الغربي المعاصر من ناحية أخرى، جسدها الأستاذ أحمد أمين ومن حوله المدرسة الفلسفية النشطة في الترجمة والتصنيف ثم التأليف والتي ضمت توفيق الطويل، ويحيى هويدي، وعثمان أمين، وزكريا إبراهيم وغيرهم، إذ لم تتجاوز النزعة

التوفيقية حد الدعوى العامة لتستقر في مشروع كبير يمتد بعمر صاحبه كما استقرت لدى زكي نجيب محمود الذي تمكن من صوغ منطقها بدأب وحذق كبيرين .

يبدأ المشروع بكتاب "تجديد الفكر العربي" الذي صدر في عام 1970م، وينتهي تماما بسيرته الذاتية "حصاد السنين" 1993م، وإن كان قد اكتمل موضوعيا بكتاب "عربي بين ثقافتين" 1992م الذي رسم فيه الملامح النهائية لإنسان عربي يجمع بين ثقافة العصر العلمية، والوجدان القومي الخالص، أي بين "الأصالة والمعاصرة". ورغم أن البعض يتصور أن مانيفستو هذه المرحلة يتمثل في كتاب "الشرق الفنان 1960"، فإننا لا نوافق على ذلك فيما سنبين أسبابه في حديث قادم. لكن المهم الآن هو كيف يتم استيعاب التراث في العصر؟ لا شك في ضرورة الفرز والانتقاء، ثم إعادة البناء والتركيب، وهي ملامح الإستراتيجية التوفيقية التي تنهض لدى الرجل على محورين :

الأول: أفقي حيث يتجول في مكونات الثقافة الإنسانية ليميز داخلها بين أربعة أنساق أساسية: الديني / الاعتقادي، ثم الأدبي / الفني ثم الفكري / القيمي، وأخيرا العلمي / التجريبي، تختلف نسب الأصالة والمعاصرة فيما بينها بحسب درجة التباين في معايير صدق كل منها على مؤشر نفترض أنه يتحرك من صفر إلى واحد صحيح. فعلى سبيل المثال يمثل الدين، كمكون اعتقادي، وسيلة إدراكه هي الكتاب المقدس و"الوجدان" الحد الأقصى للأصالة والذاتية والهوية، ومن ثم يحق للعقل العربي أن يتمسك إزاءه بخصوصيته الكاملة إذ لا سبيل هنا إلى معاصرة اللهم سوى في كيفية قراءة النصوص، وفي القدرة على تأويلها حيث يمكن الاستفادة بالمعارف اللغوية واللسانية والبلاغية الحديثة في الكشف عن باطن النص ومغزاه. أما العلم الطبيعي، فعلى العكس من الدين، يمثل الحد الأقصى من المعاصرة والحد الأدنى من الأصالة، فوسيلة إدراكه هي "العقل" ومن ثم يجسد النسق الأكثر كونية، ومن ثم يتعين ممارسته بموضوعية وحياد من قبل العقل العربي دونما اكتراث بنزعات من قبيل أسلمة العلوم. وفيما بين الحد الأقصى للأصالة (الدين) والحد الأقصى للمعاصرة (العلم) ثمة نسقان وسيطان. الأول وهو الفكر الإنساني باعتباره ذلك الفضاء الذي تمدد واتسع عبر

محاولة العقل البشري التصدي للإجابة على أسئلة الواقع الذي يعيشه، حيث انضوت تلك الإجابات إما على مفاهيم وقيم "كونية" من قبيل الحرية أو العقلانية أو العدالة مثلا، يمكن الادعاء بأن التاريخ البشري قد تحرك صوبها وسعى إلى ضبط وتنظيم طرق الوصول إليها عبر جهود اندرجت فيها كل المجتمعات المتمدينة. وإما على مبادئ أخلاقية صاغتها أعراف المجتمعات المتمدينة هذه واستقتها على نحو خاص بها سواء من هدي تجربتها التاريخية أو من نصوصها الدينية، ومن ثم ففيها قدر من الذاتية، يجعلها تحتل موقعا تاليا للعلم الطبيعي في سلم المعاصرة. وأخيرا يأتي مركب الأدب والفن تاليا للدين على مؤشر الأصالة والهوية، كونهما مركبا ينبعث من ذائقة (ثقافية) تنغرس في التجربة الحضارية لجماعة قومية ما وإن تشاركت، في الخبرة الجمالية مع غيرها بقدر ما تنتمي للمشترك الإنساني، فالعربي قد يفضل الغناء على إيقاع الموسيقى أكثر من الموسيقى المجردة "الكلاسيكية"، بينما يميل الغربي إلى الأخيرة أكثر، ولكن ذلك لا يصلح مؤشرا لاتهام هذا الطرف أو ذاك بتدني الذائقة الفنية، فلا معايير دقيقة هنا يمكن القياس عليها، والأحكام هنا ذوقية. وعلى هذا تصبح الهوية العربية هي حصيلة اجتهادنا الذاتي في فهم الدين، ومستوى إبداعنا الجمالي في الفن والأدب، ومدى إسهامنا الفكري في التطور الإنساني، ومحض مشاركاتنا في النشاط العلمي الكوكبي. كما تصبح أصالة العربي ومعاصرته نتاجا تلقائيا لنشاطه سواء حينما يخضع لواقع العالم كما يثبته العلم، أو حينما يتجاوب مع ذاته الداخلية كما تصوغها ذائقته الثقافية .

أما الثاني: فرأسي، حيث تجول الرجل في طبقات تراثنا الذي هو "عالم أوسع من المحيط, يشتمل على جميع ما أبقت عليه الأيام بعد أن فعلت عوامل الفناء فعلها"، مثبتا الوقفات العقلانية فيه؛ لأنها تجسد منهجا للنظر يبقى صالحا للعصر، ونافيا الوقفات اللاعقلانية التي تجافي روح العصر. فعلى صعيد النفي يرفض أولا "أن يكون صاحب السلطان السياسي هو في الوقت نفسه، وبسبب سلطانه السياسي، صاحب "الرأي" لا أن يكون مجرد صاحب "رأي"، لا يمنع رأيه هذا أن يكون لغيره من الناس آراؤهم،

حيث طال هذا القيد كثيرين، منهم بشار بن برد لشعر أنشده لم يعجب الخليفة المهدي فقتله، والحلاج في مأساته الشهيرة حين أمر الوزير العباسي على بن عيسى بضربه ألف سوط، ثم بقطع يديه، قبل أن يحرقه في النار لقوله بمذهب الحلول. وكذلك الإمام أحمد بن حنبل وما لاقاه من تعذيب فيما عرف بـ "محنة القرآن" لقوله بأن القرآن "أزليا" مع أزلية الله عز وجل، ضد ما كان المعتزلة يعتقدون في كونه "حادثا" أو "مخلوقا" من الله. وهو يرفض ثانيا انسداد باب الاجتهاد، وانغلاق أفق الإبداع عندما "يكون للسلف كل هذا الضغط الفكري علينا فنميل إلى الدوران فيما قالوه وما أعادوه ألف ألف مرة". ويرفض ثالثا خضوع المنهج العلمي للخرافة حيث "الإيمان بقدرة الإنسان / الولي / صاحب المقام على تعطيل قوانين الطبيعة، فليست الأحداث لدينا مرهونة بأسبابها الطبيعية إلا ونحن في قاعات الدرس بالمدارس والجامعات، حتى إذا ما انصرف كل منا إلى حياته الخاصة في داره أو في المجتمع، أفسح صدره لكل خرافة على وجه الأرض، يقبله راضيا مغتبطا".

وعلى صعيد الإثبات يؤكد على الكثير من الرؤى النقدية المؤسسة لنزعات عقلانية وتحررية ابتداء من المعتزلة في القرن الثاني الهجري، وبالذات فيما يتعلق بمسألة "الفعل الإنساني". وعند رسائل "إخوان الصفا وخلان الوفا" يؤكد على موقفهم النقدي من الشريعة التي "دنستها الجهالات, واختلطت بالضلالات, ولا سبيل إلى غسلها وتطهيرها إلا بالفلسفة..". ولدى أبي حيان التوحيدي تفريقه بين العقل والحس, حيث الأول ثابت والثاني متغير "أن العقل يوصف بشهادة الحس, وكذلك الحس يوصف بشهادة العقل، إلا أن شهادة الحس للعقل شهادة العبد للمولى, وشهادة العقل للحس شهادة المولى للعبد"، قبل أن يختتم وقفته بابن رشد أحد أبرز رواد العقلانية العربية في نهاية القرن السادس الهجري، والذي أثبت مبدأ السببية الطبيعية، ضد إنكار الغزالي لها، ورده على كتاب الغزالي "تهافت الفلاسفة" بكتابه "تهافت التهافت"، فيما جسد إحدى أبرز المعارك الفكرية بين العقل والنقل في التاريخ العربي، فليرحمك الله أيها المفكر الكبير الذي تمر علينا ذكرى رحيلك هذا الشهر، فلا نملك إلا نتذكرك بكل الحب والامتنان.

العمق يصارع الانتشار
في مباراة غير متكافئة بين الإعلام التقليدي والجديد

أمينـة خـــــيري

كاتبة صحفية في جريدة الحياة الدولية

ربما تكون تركيا الدولة المسلمة الوحيدة منذ نهايات السلطنة العثمانية وحتى اليوم، التي مرت بتحولات اجتماعية وفكرية وسياسية متناقضة الواحدة مع الأخرى إلى درجة التصادم العنيف في ما بينها في غالب الأحيان.

يظن البعض في العام ال19 من الألفية الثالثة الموافق العام ال22 من عمر مواقع التواصل الاجتماعي والعام ال15 من عمر "فايسبوك" والعام 13 من عمر "تويتر" أن الإعلام التقليدي بمنصاته المتعددة ونوعية صحافته المفترض فيها العمق يقف على طرف نقيض من الإعلام الجديد بأجنحته المتطايرة والمتغيرة والمتجددة تجددًا ينال من العمق ويعمد إلى السرعة والسطحية والانتشار.

وبينما الكوكب غارق حتى أذنيه في محاولات مستميتة لإعادة ترتيب الأوراق وفتح خزانات الأفكار لإنقاذ وسائل إعلام تقليدية هنا وركوب موجة إعلام جديد هناك، تجد قيمة العمق الصحافي نفسها في مواجهة قد تودي بحياتها أمام الحاجة الماسة للانتشار.

مفهوم الانتشار

اختلاف في مفهوم الانتشار أفسد للعمق كل قضية طيلة هذه السنوات. فمن مئات الحلقات المخصصة للجان الذي يسكن أجساد الفتيات، إلى الاتجار بمرض الأطفال الفقراء والتسول الجارح على الهواء باستغلالهم وكشف وجوههم ونزع ستر أسرهم، إلى

الشماتة والتعالي على السوريين الذين وزعت عليهم أطعمة في أحد المخيمات في لبنان، إلى سرقة صور شخصية لفتاة تعرضت للضرب في أحد المراكز التجارية من هاتفها المحمول وعرضها على الهواء، لاتهامها فتاة اغتصبت من قبل أربعة رجال بأنها سيئة السمعة وربما تستحق ما حدث لها، وأخيرًا السخرية من (المصابين بالبدانة)، تجد المذيعة نفسها ملكة "الترند" والأكثر انتشارًا.

العمق الصحافي يجد نفسه اليوم في مهب الرياح الصحافية والإعلامية العاتية. فمن جهة، يجد الإعلام التقليدي نفسه مهددًا محاصرًا مهمشًا مقزمًا من قبل قرينه الحديث، ومن جهة أخرى، تنتابه مشاعر قوية أن الطريق الوحيد المتاح للنجاح هو مقايضة قيم العمق والمصداقية والمعلوماتية والتنوير بمتطلبات الانتشار والترند وإرضاء الشهوات العامة عبر التسطيح والتهويل والدق على أوتار الفضائح والرقص على جثامين المشاهير.

سيمور هيرش

أبرز مشاهير العمق الصحافي على الإطلاق ورمز من رموزه في زمن يبدو أنه فات هو الأسطورة الأميركي سيمور هيرش. موضوعات هيرش الاستقصائية كشفت حقيقة الحرب في فيتنام، وشرحت أبعاد فضيحة "ووترغيت"، وسردت حقائق يندى لها الجبين عن عمل الاستخبارات الأميركية في دول مثل تشيلي وبنما وكوبا والعراق وسوريا وغيرها. وهيرش يعرف ما لا يعرفه كثيرون عن وزير الخارجية الأميركي السابق هنري كسينجر. وفي جعبته أسرار عن سجن "أبو غريب"، وحقائق عن حقيقة الحرب الأميركية على الإرهاب، ومقتل أسامة بن لادن، واستخدام الأسلحة الكيماوية في سوريا وغيرها.

لكن هيرش بكل عمقه وكامل استقصائه وتمام معلوماته يجد نفسه هذه الآونة في مواجهة قاسية ومنافسة حامية مع تدوينة فايسبوكية تعاد مشاركتها ملايين المرات، أو

تغريدة تويترية تجد من معيدي التغريد ما يجعلها الترند رقم واحد، أو مقطع فيديو على "يوتيوب" يجري تداوله ملايين وربما بلايين المرات.

محتوى مواقع التواصل الاجتماعي، سواء من قبل مستخدمين عاديين أو مواطنين صحافيين أو حتى صحافيين وإعلاميين محترفين يدونون ويغردون، دخل في "علاقة عاطفية سامة" مع محتوى الإعلام التقليدي. وبحسب مقال عنوانه "علاقة حب سامة: تاريخ علاقة الإعلام المتقلقلة مع منصات التواصل الاجتماعي" في موقع "ستارت آبس" (29 أيار (مايو) 2017)، فإن 62 في المئة من الأميركيين يعتمدون على مواقع التواصل الاجتماعي للاطلاع على الأخبار. وأكثر من النصف يعيدون مشاركة ما يقرأون من "أخبار" على صفحاتهم.

وفرة عنكبوتية عربية

عربيًا، لا يختلف الأمر كثيرًا. فبحسب "التقرير العربي لمواقع التواصل الاجتماعي" الصادر عن كلية دبي للإدارة الحكومية، فإن 250 مليونًا من ال677 مليون مستخدم للإنترنت في العالم هم من العرب. وتشهد منطقة الشرق الأوسط العدد الأكبر من مستخدمي فايسبوك الجدد في الكوكب. كما بلغ عدد المغردين العرب 200 مليون مغرد حتى نهاية آذار (مارس) الماضي يغردون نحو أربعة بلايين تغريدة في الشهر. وأشار التقرير ذاته إلى أن نحو 95 في المئة من المواطنين العرب اعتمدوا على مواقع التواصل الاجتماعي كمصدر رئيسي للأخبار في أوقات الحراك والاحتقان السياسي التي تشهدها العديد من البلدان العربية منذ عام 2011.

ويشار إلى أن نسبة كبيرة من العرب، ممن لا تملك حسابات على مواقع التواصل الاجتماعي أو حتى وسيلة اتصال بالشبكة العنكبوتية يستقون "الأخبار" من أصدقاء لهم يحكون لهم ما ورد على المنصات الاجتماعية العنكبوتية.

ما يرد على هذه المنصات لا يخضع لقواعد مهنية أو مواثيق عمل صحافي أو أكواد عمل إعلامي. فيه الكثير من الغث والكثير أيضًا من السمين. فيه المفيد وفيه الضار وفيه ما لا يضر أو ينفع لكن يهدر الوقت فقط. لكنه فيه ما يحقق الانتشار ويضمن "الترند" ويصنع النجوم في دقائق.

تسير علاقة الإعلام التقليدي بالجديد.

في البداية، وتحديدًا بين عامي 2006 و2012 كانت مرحلة العشق والهيام. أطل "تويتر" بتغريدات مثيرة، وهل "فايسبوك" بتدوينات غريبة ومسلية دغدغت مشاعر وحواس وسائل الإعلام التقليدية. في البداية ظن التقليديون أن العلاقة مع الجدد ستكون تكاملية مع بقاء مقاليد الهيمنة والسيطرة في أياديهم المتمرسة ومؤسساتهم المتعمقة. ثم بدأت حقيقة العلاقة تتضح بين عامي 2012 و2014، وهي الأعوام التي رسخ فيها الإعلام الجديد ومواقع التواصل الاجتماعي أقدامه طارحًا فكرة المنافسة على الملأ. وبعد ما اعتنق الإعلام التقليدي عددًا من أدوات الإعلام الجديد من صفحات على مواقع التواصل الاجتماعي وتواصل آني مع المستخدمين ومدونات منفصلة للصحافيين والكتاب باعتبارها وسائل مساعدة لصحافة العمق ومؤسساتها والعاملين فيها، بدأت هذه المنصات تكشف الستار عن قوتها الحقيقية وأنيابها المخيفة. وبدلاً من أن تكون استعانة الإعلام التقليدي بالجديد وسيلة لزيادة المتابعة – سواء قراءة أو مشاهدة أو استماعا أيقنت أنها لم تكن سوى أداة للترويج للإعلام الجديد ونيران صديقة أصابتها في مقتل من حيث نسب المتابعة التي انصرفت صوب الجديد.

ويشير مقال "علاقة حب سامة" إلى أن كابوس الإعلام التقليدي سرعان ما تحول إلى حقيقة. في الغرب، وبعد نجاح صحيفتي "واشنطن بوست" الأميركية و"غارديان" البريطانية في بناء قاعدة عريضة لمتابعي الصحيفتين على موقعيهما في فايسبوك والتطبيقات التي تمكن المتابعين من قراء المحتوى عبرها، غيرت "فايسبوك" التقنية المستخدمة ما أدى إلى اختفاء محتوى الصحيفتين تمامًا، وهو ما بررته "فايسبوك" في

حينها بأنه كان إجراءً ضروريًا لحماية المستخدمين من الإعلانات غير المرغوب في وجودها. لكن ما عكسه هذا الإجراء هو أن اليد العليا والقدرة على اتخاذ قرار من يقرأ ماذا ومتى بات في يد المهيمنين على الإعلام الجديد.

التقليدي يترنح

وبينما الإعلام التقليدي بكل صوره يتخبط ويترنح ويحاول إيجاد الحلول ويجتهد ليحسم أمره في معركة غير متكافئة، إذ بالفراق يثبت أن فيه دواء للجديد وداء للتقليدي. ففي عام 2017، إذ بفايسبوك تعلن 51 في المئة زيادة في عوائدها، ومؤسسات الإعلام تحقق خسائر مدوية. في الوقت نفسه، أيقنت وسائل الإعلام التقليدية أنها لا تملك رفاهية الانسحاب من منصات الإعلام الجديد وفي الوقت نفسه لا يمكنها استمرار تواجدها بالقواعد ذاتها وبقاء مقاليد الأمور في أيادي ملوك المنصات الجديدة.

الإعلام التقليدي لم يحسم أمره بعد، أو بالأحرى هو غير قادر على أن يحسم أمره لأن أمره لم يعد بيده. وفي الوقت نفسه، فإن مفهوم العمق مازال عالقًا في الهواء، معرضًا للشد من قبل الجديد والجذب من قبل القديم.

دليل "يونسكو" للتحقيقات الصحافية يعرف صحافة العمق أو الصحافة الاستقصائية بأنها "العمل الصحافي الذي يتميز بالعمق والابتكار، ويوظف أساليب بحث منهجية، وغالبًا يستخدم السجلات العامة والبيانات بشكل مكثف. وصحافة العمق "تكشف النقاب عن مسائل وقضايا تهم عموم الناس، كانت تخفيها عن قصد جهة ذات سلطة، أو يحجبها دون قصد ركام فوضوي من المعلومات والظروف التي تؤدي إلى الالتباس، وذلك بالاعتماد على مصادر وسجلات قد تكون سرية أو علنية".

فايسبوك وبحث محدود عن المهنية

علنية استعانة "فايسبوك" بصحافيين مهنيين بديلاً عن خوارزميات نقل الأخبار خطوة تقول الكثير عن مستقبل الصراع بين عمق الإعلام التقليدي من جهة والانتشار المرتبط ارتباطًا احتكاريًا بالإعلام الجديد من جهة أخرى. فقبل أيام، قالت "فايسبوك" إنها تنوي الاستعانة بصحافيين مهنيين من الإعلام التقليدي لاختيار الأخبار التي يجري تداولها على "فايسبوك" لضمان صحتها وجديتها! لكن "فايسبوك" أعلنت أن الفريق الذي تعتزم الاستعانة به "فريق صغير"، وهو ما يعني أن من كانوا يعلقون آمالاً على أن يعملوا صحافيين تقليديين تحت راية "فايسبوك" تبددت أحلامهم في هواء العنبكوت. ورغم نية "فايسبوك" المعلنة بأن يكون هناك شريط خبري راكض على الصفحة بشكل منفصل عن بقية التدوينات وتحديثات الأصدقاء على صفحات مستخدمي "فايسبوك".

مهمة الفريق الصغير من الصحافيين التقليديين سيتقتصر على اختيار الأخبار والموضوعات الصحافية دون تعديل أو تغيير في المحتوى أو حتى العناوين. ويشير تقرير صادر عن مؤسسة "بيو" المتخصصة في أبحاث الرأي العام أن الإعلام الأميركي التقليدي يمر بأزمات طاحنة حيث فقدان وظائف وإغلاق صحف وقنوات تلفزيونية ومحاولات منهكة لتحقيق ربح في زمن الأخبار المجانية.

ورغم هذا التوجه العنكبوتي لإضفاء بعض العمق على المحتوى الذي يختلط فيه حابل الجدية بنابل الإشاعات والسطحية، إلا أن أخبار فايسبوك الجديدة الموثقة المعمقة لم تنعكس إيجابًا بالضرورة على اختيارات مستخدمي منصات التواصل الاجتماعي، إذ ستظل لديهم القدرة على نشر ما يحبون من "أخبار" بغض النظر عن محتواها.

من جهة أخرى، فإن تقرير "بيو" وجد أن إجمالي عدد الصحافيين في غرف الأخبار التقليدية انخفض بنسبة 25 في المئة بين عامي 2008 و2018، وهو ما يعني أن الاتجاه العام يمضي بعيدًا عن العمق ويسير بشكل متصاعد نحو "الترند".

مناهج تقليدية في زمن غير تقليدي

القائمون على أمر المناهج والتدريس في كليات الإعلام التقليدية يجدون أنفسهم في موقف صعب. فمن جهة، مازالت الغالبية المطلقة من الكليات تعتمد بشكل رئيسي على كتب ومفاهيم الإعلام التقليدي حيث أصول التحرير، وكيفية التحقق، وأهمية التوثيق، وحتمية التدقيق وحماية المصادر ومتابعة القصص الخبرية وأخلاقيات العمل الصحافي ومصداقية العمل المهني وموضوعية التناول إلى آخر قائمة محتوى السنوات الأربع في الكليات. البعض بدأ يدمج – على استحياء– موادًا تتناول الإعلام الجديد والصحافة الرقمية، لكن الغالبية ممسكة بتلابيب التقليدي دون النظر بعين الاعتبار إلى حال السوق.

حال السوق تشير إلى تغيرات جذرية، حتى في الدول العربية التي ترتفع فيها نسب الأمية الأبجدية، وتتدنى فيها مستويات الدخول الاقتصادية تغير الشبكة العنكبوتية شكل الأخبار وتفرض نفسها على الجميع بأشكال ومستويات غير مسبوقة.

وبحسب "إحصاءات الإنترنت في العالم" Internet World Statistics https://www.internetworldstats.com/stats5.htm فقد بلغ معدل استخدام الإنترنت في منطقة الشرق الأوسط في نهاية نيسان (أبريل) الماضي 67،2 في المئة، في الوقت الذي لا يزيد فيه متوسط المعدل عالميًا على 56،8 في المئة. ونصف الشباب العربي يقولون إنهم يعتمدون على "فايسبوك" وحده للاطلاع على الأخبار. وزاد عدد القنوات العربية على "يوتيوب" بنسبة 160 في المئة على مدار ثلاث سنوات فقط.

وبعيدًا عن الدراسات والأرقام، فإن العين المجردة والخبرة الشخصية تشير إلى أن النسبة الأكبر من المواطنين العرب العاديين تعتمد في إلمامهم بالأخبار والرؤى والتحليلات على ما يرد في مواقع التواصل الاجتماعي، حتى لو كانت تلك المادة التي أعيد تدويرها ونقلها شفهيًا من شخص إلى آخر.

إزاحة التقليدي

آخر ما كان إعلاميو الإعلام التقليدي يتوقعونه هو أن تتم إزاحتهم بعيدًا عن صدارة المشهد الإعلامي. لم يحدث هذا بين يوم وليلة، ولكن بين عقد وآخر، وإن تسارعت الوتيرة لتصبح أسرع من البرق في العامين الأخيرين.

واقع الحال يشير إلى أن هذه السرعة وتلك الإزاحة ألقيا بظلال وخيمة على درجة وقدرة الإعلام التقليدي على التمسك بتلابيب العمق. وبشكل متزايد، يبذل صحافيو الإعلام التقليدي جهدًا خارقًا أقرب ما يكون إلى الجهود المبذولة في السيرك لنيل جزء من كعكة الانتشار مع محاولة الحفاظ على قدر من العمق، وهو جهد لو تعلمون عظيم.

الواقع يقول إن الإعلام الجديد ومواقع التواصل الاجتماعي أثرت على الإعلام التقليدي بكل منصاته وعلى كل المستويات. أستاذ الإعلام في جامعة كولورادو بودر الدكتور باتريك فيروتشي أجرى دراسة عن أثر الإعلام الجديد على التقليدي، ورصد خمسة آثار رئيسية. الأول هو أن الصحافيين أنفسهم باتوا يتخذون قرارات العمل واختيارات الموضوعات الصحافية والتلفزيونية وهم متأثرون بما يرد على مواقع التواصل الاجتماعي، وهو ما يعني أن قادة الرأي العام في مواقع التواصل الاجتماعي أصبح لهم كلمة في مجال الإعلام التقليدي. والأثر الثاني هو أن الشبكة العنكبوتية ومواقع التواصل الاجتماعي باتا من مصادر الأخبار والأفكار الرئيسية لصحافيي الإعلام التقليدي، ولو باعتباره نقطة بداية.

والأثر الثالث هو أن مواقع التواصل الاجتماعي أصبحت تجبر الصحافيين على التطرق إلى موضوعات بعينها يتم تداولها على الشبكة العنكبوتية لأنها ببساطة محققة الانتشار والترند والجميع يتحدث عنها. والأثر الرابع هو أن الإعلام الجديد بمنصاته المختلفة أصبح مقبولاً ثقافيًا ومجتمعيًا، وهو ما جعل دمجه في الإعلام التقليدي أيضًا مقبولاً، وذلك بعد سنوات من إصرار صحافيي التقليدي على النأي بأنفسهم بعيدًا عنه والتعامل معه باعتباره "إعلام درجة ثانية أو ثالثة".

أما الأثر الخامس والأخير والخطير، فهو أن الإعلام الجديد صاحب الانتشار والترند مستمر في تجريف قيم الصحافة التقليدية المتعارف عليها منذ عقود. هذا التجريف أدى إلى تضاؤل شعور صحافيي الإعلام التقليدي بأنهم مسيطرون على المشهد الإعلامي ومهيمنون على المتلقين.

الرؤيا الكابوس

تأكدت الرؤيا وفي أقوال أخرى الكابوس. لم تعد الشاشة الصغيرة تلهث بكل ما لديها من قوة لتلحق بالشاشة متناهية الصغر حيث الكمبيوتر والهاتف المحمول والآي باد وغيرها، فقد فازت الأخيرة وإن لم يكن بالضربة القاضية. ظلت الشاشة الصغيرة تنتحل شخصية الواثق القادر على تخطي المحنة المثابرة على التطوير والتغيير، لكن طول المقاومة أنهك قواها.

ورغم أن الشاشة الصغيرة ما زالت عربيًا تنعم بقدر غير قليل من نعمة السيطرة ومنحة الهيمنة، حيث نسب الأمية الرقمية ما زالت مرتفعة، بل مازالت نسب الأمية الأبجدية حية ترزق، إلا أنها تغرف غرفًا من مواقع التواصل الاجتماعي معيدة تدوير محتواه على شاشتها التقليدية هكذا، دون عمق أو تحقق.

العالم العربي أنهى مرحلة استشعار الخطر الإعلامي العنكبوتي القادم سريعا صوب الصحيفة الورقية التي تجاهد من أجل البقاء، والشاشة التلفزيونية التي تكافح من أجل المنافسة ، وبدأ مرحلة التعامل مع هيمنة الجديد فيصيب تارة ويخيب تارات.

راية الجديد خفاقة

الزمن الحالي يرفع شعار تويتر وسناب شات وإنستغرام وفايسبوك بكل ما تحويه من فرقعات وهبدات وتسخين، وأيضًا بعد عن العمق والتحقق والقيمة الحقيقية للمحتوى. أما رايات البرنامج الحواري والصالون الثقافي ولقاء الجمعة فمنكسة. حتى الأخبار لم تعد

تلك الجامدة المتحجرة التي يجري بثها كلما دقت الساعة العاشرة. كما لم تعد تلك الإشارة ذات اللون الأحمر المنذرة بقدوم خبر عاجل يحمل على الأرجح مأساة موت مئة، أو كارثة غرق ألف أو فاجعة نزوح مليون تستنفر المتلقي. فالمتلقي مستنفر في مكان آخر قوامه شاشة صغيرة ومحتوى خفيف.

ما وصل إليه الإعلام التقليدي من ضبابية الرؤية وفوضوية القواعد المتأرجحة بين التمسك بقيم العمق ومحاولة اللحاق بنعمة "الترند" ليس نهاية المطاف. كما أن هيمنة الإعلام الجديد ومنصاته الاجتماعية أيضًا ليست هيمنة بائنة لا رجعة فيها أو تغييرا يؤثر فيها. الجولات لم تنته وعمليات التطوير والتغيير والتحديث ودمج هذا في ذاك، والاستفادة من عمق هذا في انتشار ذاك لم تصل إلى الشكل النهائي بعد. والمؤكد أن المواكبة خير من اللهاث، والمشاركة أفضل من الاحتكار، والإعلام إلى تغيير أكيد لا ريب فيه.

دراســـــــات

- الميليشيات المسلحة في المنطقة العربية الإشكاليات والمسارات — د. شـــــرين فهمـــــي
- الأكراد والأمن القومي الإقليمي — نيبـــــال عـــزالدين
- مع ذوبان الجليد، صراع بارد بين القوي الكبرى فى القطب الشمالي — حســنـــي عبد الحـــافظ

الميليشيات المسلحة في المنطقة العربية
الإشكاليات والمسارات

د. شـــرين فهمـــي

مدرس النظم السياسية المقارنة بكلية الإعلام جامعة الأهرام الكندية

تنامى دور "الفاعلين المسلحين من غير الدول" في المنطقة العربية بصورة واضحة في الآونة الأخيرة، وهو ما ارتبط في جانب منه بضعف عدد من الدول العربية وتفككها وانهيار بعض نظمها السياسية، التي بقيت بالسلطة في تلك الدول لعقود طويلة، وشروع الفاعلين المسلحين في تشكيل كيانات منظمة أو شبه نظامية تمارس وظائف واختصاصات الدولة في المناطق التي لا تسيطر عليها [1].

وقد استطاعت الميلشيات المسلحة السيطرة على مساحات جغرافية في مناطق ذات كثافة سكانية مرتفعة بدول عربية مركزية وتمتلك موارد اقتصادية وتستحوذ على قدرات تسليحية تقترب من نمط تسليح الجيوش النظامية إذ تجيد استراتيجيات دفاعية وهجومية في مسارح عمليات مختلفة، وتمزج بين الوسائل التقليدية والأساليب الحديثة، وتدير علاقات خارجية مع قوى دولية كبرى وإقليمية رئيسية وفاعلين عنيفين من غير الدول،

(1) لمزيد من التفصيل انظر: إبراهيم غالي (محرر)، "الزلزال: إلى أين تتجه منطقة الشرق الأوسط؟"، اتجاهات الأحداث، ملحق تقرير المستقبل (أبو ظبي: مركز المستقبل للأبحاث والدراسات المتقدمة)، العدد1، أغسطس/آب 2014، ص 5. مصطفى شفيق علام، "التصعيد اللامتماثل: توظيف الميلشيات المسلحة في الصراعات الإقليمية"، مفاهيم المستقبل: اتجاهات الأحداث (أبوظبي: مركز المستقبل للأبحاث والدراسات المتقدمة)، العدد 26، 2018، ص ص 10-11.

حيث تستغل انهيار الدول وفراغ السلطة وضعف الحكومات ورخاوة الحدود وتصاعد تأثير اقتصاديات الصراعات الداخلية[2].

أولا: إشكاليات التنظيمات المسلحة في المنطقة العربية

تثير التنظيمات المسلحة العديد من الإشكاليات في المنطقة العربية والتي تؤثر بدورها في حال عدم التعامل معها بفاعلية، في استمرار صعود تلك التنظيمات بما يؤثر سلبا على أمن واستقرار المنطقة. ويمكن رصد أبرز تلك الإشكاليات، فيما يلي:

1- التمييز بين الميليشيات المسلحة والتنظيمات الإرهابية:

لا يوجد تعريف جامع وشامل للفواعل المسلحة من غير الدول، بل تتعدد التعريفات حول هذا المفهوم نظرا لكونه يتسم بالتعقيد والتشابك والتداخل مع المفاهيم الأخرى، ومن أبرز التعريفات التي قدمت بشأن مفهوم الفواعل المسلحة من غير الدول: "هي الفواعل التي تلجأ إلى استخدام العنف لتحقيق هدف معين"، وكذلك "هي جماعة منظمة ولديها هيكل تنظيمي محدد وقيادة منظمة للعمل خارج سيطرة الدولة باستخدام القوة لتحقيق أهدافها السياسية"[3].

ويطلق على الفواعل المسلحة في الأدبيات الأجنبية عدة مسميات منها الفواعل المسلحة من غير الدول "armed non-state actors"، والفواعل العنيفة من غير الدول "actors non-state violent"، وفواعل الأمن الخاص " private security actors". وقدم Aydinli عدة تصنيفات للفواعل المسلحة، يمكن إجمالها في الآتي:

(2) يزيد صايغ وإليونورا أرديماغني، "تهجين: الجيوش والميلشيات في الدول العربية المتصدعة"، مركز كارنيجي بيروت، 14 ديسمبر/كانون الأول 2018.

(3) ErselAydinli, "assessing violent non-state actorness in global politics: a frame work for analysis", Cambridge Review of International Affairs, 2013, p1.

المتمردين، والجماعات المسلحة الداخلية الأخرى، والعصابات، والتنظيمات الإجرامية، والميليشيات المسلحة، والتنظيمات الإرهابية، والشركات المسلحة الخاصة، والتنظيمات المسلحة العنيفة[4].

ويتضح من التصنيف السابق أن التنظيمات الإرهابية تعد إحدى أشكال الفواعل المسلحة من غير الدول، ولكن أكثرها عنفا وخطورة نتيجة استخدامها الإرهاب كأداة لتحقيق أهدافها الاقتصادية، السياسية، الدينية، الثقافية وحتى لأسباب شخصية، ذلك أن هذه التنظيمات لديها ادعاءات عقيدية مضللة حول "الاستشهاد" توظفها قياداتها لتحفيز عناصر على تنفيذ عمليات انتحارية ضد مصالح الدول، ويؤدي ذلك لتصاعد قدرة التنظيمات الإرهابية على المخاطرة، واستيعاب الخسائر، وتبني سلوك عدواني يفتقد العقلانية والمعايير التقليدية[5].

وتتمركز غالبية التنظيمات الإرهابية في الدول الهشة (Fragile States)، وبؤر الصراعات الأهلية التي تعد بمنزلة حواضن آمنة (Safe Havens) مثل تحصن تنظيم القاعدة وداعش في المناطق الحدودية السورية العراقية[6]، وغيرها من التنظيمات، وهؤلاء

(4) Ulrich Schneckener, "Fragile state hood, armed non-state actors and security governance", private Actors and Security Governance, No. December 2003, p 25

Muhittin Ataman, "The impact on non-state actors on world politics: a challenge to nation-states", Turkish journal of International Relations, Vol 2, No 1, Fall 2003, p 57.

(5) محمد عبد الله يونس، "طور جديد من الردع في مواجهة التهديدات غير التقليدية"، في ملحق سياسات الردع، تحولات استراتيجية على خريطة السياسة الدولية، السياسة الدولية، (القاهرة: مؤسسة الأهرام)، العدد 213، يوليو/تموز 2018، ص 18.

(6) Adam Lowther, "how deterrence evoved?" in, Adam Lowther (ed.), "deterrence: rising powers, rogue regimes, and terrorism in the twenty first century", New York: Springer, 2012, p 1-2.

قد نجحوا في الحصول على تكنولوجيا عسكرية متقدمة لم تكن تمتلكها الفواعل المسلحة فيما سبق، ويرجع هذا لعدد من العوامل يتمثل أهمها في: انتشار التكنولوجيا الإحلالية، وتوفر العديد منها للاستخدامات التجارية، وتوظيفها من قبل الفواعل المسلحة من دون الدول للقيام بهجمات إرهابية مثل توظيف الدرونز في أغراض الرقابة أو تحميلها بمتفجرات لتنفيذ أعمال إرهابية، كما قام "داعش" باستخدام الطابعات ثلاثية الأبعاد في تصنيع المسدسات.

ومن العوامل أيضا، رغبة الدول في توظيف الفواعل المسلحة وبصفة خاصة التنظيمات الإرهابية كوكلاء في الصراعات المختلفة لتعزيز نفوذها إقليميا، وما ارتبط بذلك من إمدادهم بخبرات وتكتيكات، ومعدات قتالية كانت محصورة على الجيوش النظامية، ومن ذلك الصواريخ المضادة للدبابات أو الطائرات، والدرونز العسكرية، وصواريخ أرض جو، فضلاً عن أنظمة الاتصالات المشفرة، والتي تساعدهم على استهداف البنية التحتية والقواعد العسكرية والبعثات الدبلوماسية[7].

وقد أولت الأدبيات الغربية اهتماما واضحا لدراسة التنظيمات الإرهابية كنمط من الفاعلين المسلحين من غير الدول في السنوات الأخيرة، والتي تمارس العنف لتحقيق أهدافها ومصالحها، وقد خلصت تلك الدراسات إلى رصد سمات أساسية لهذا النمط من الفاعلين، يمكن إيجازها في الآتي:

Rosan Smits and Deborah Wright, "engagement with non-state actors in fragile states: narrowing definitions, Broadening scope", CRU report, conflict research unit, December, 2012, p 3-4.

(7) Global Trends: paradox of progress, national intelligence council, January 2017, (p. 216), accessible at: www.dni.gov/nic/global/trends.

أ- **الصراع في بيئة حاضنة**، إذ أن نشأة هؤلاء الفاعلين المسلحين ارتبطت بصورة أساسية بمناطق الصراع التي مثلت البيئة التأسيسية لهم، خاصة في ظل هشاشة الدولة وتفكك هياكلها السياسية والأمنية والاجتماعية وعجز الدولة عن حسم الصراع الداخلي لصالحها، وهو ما يؤدي إلى حالة من الارتباك داخل تلك الدول وزيادة في ضعفها وهشاشتها الأمنية، بل وعجزها عن القيام بوظائفها الأساسية[8].

ب- **التحالفات والارتباطات الخارجية**، حيث ترتبط التنظيمات الإرهابية بشبكة من المصالح مع أطراف خارجية، سواء كانت دولاً أو فاعلين من غير الدول، وهو ما يزيد بطبيعة الحال من قوتهم العسكرية، بل وأصبح من الأمور المعتادة أن يوجد تحالف قائم بين فاعل مسلح من غير الدولة ودولة أجنبية في محاربة الدولة التي ينشط على أرضها الفاعل المسلح، وتستفيد هذه الجماعات من وجود تباين في وجهات النظر الإقليمية والدولية[9].

ج- **القيام بدور البديل للدولة القومية**، فالجماعات الإرهابية تتبني مشروعا لهدم الدولة القومية، والسعي لإقامة دولة بديلة، حيث ترى أن الدولة فقدت شرعيتها، ولم تحقق الوظائف المنوطة بها، ولذلك تتصارع معها على الشرعية والسلطة، وهي بذلك تنظيمات غير قانونية تمارس العنف والعمل العسكري وتستخدم القوة المسلحة

(8) Eran Zohar, "A new typology of contemporary armed non state-actors: interpreting the diversity", Studies in Conflict and Terrorism, Vol. 39, No.5, 2016, pp 431-432.

(9) "أبعاد ومحددات السياسة الخارجية للميلشيات المسلحة في الإقليم"، مركز الروابط للدراسات والبحوث الاستراتيجية نقلا عن المركز الإقليمي للدراسات الاستراتيجية، 14 فبراير 2015. على الرابط التالي:

http://rawabetcenter.com/archives/3923

كأداة للتغيير وتحقيق أهدافها[10]. وتكسر بذلك احتكار الدولة لفرض الأمن وممارسة القوة، وربما يرتبط هؤلاء الفاعلون بأجندات مذهبية أو عرقية أو سياسية تتناقض مع الإطار العام الذي يحكم الدولة على هذه المستويات.

يضاف إلى ذلك أنه قد لا تقتصر مساعي التنظيمات الإرهابية على إضعاف الدولة، بل تسعي إلى إقامة مؤسسات تضطلع بأدوار الدولة، فقد تحولت التنظيمات الإرهابية من مجرد تنظيم مقاتل إلى كيان مجتمعي يستهدف حل المشاكل للمواطنين للحصول على رضاهم، وتوفير الخدمات (إمداد الكهرباء– التعليم– الصحة– الأمن– النظافة) بهدف كسب البيئة الحاضنة، ومن أمثلة ذلك ما كان يمارسه تنظيم "داعش" في العراق وسوريا، خلال الأعوام (2014–2017) وكذلك التنظيمات المرتبطة بالقاعدة في "إدلب"، وجيش الإسلام في "الغوطة الشرقية" لدمشق، حيث تدار هذه المناطق كدويلات مستقلة. كما أن هذه التنظيمات الإرهابية حرصت على إنشاء مؤسسات مرتبطة بها، ليس فقط في مواجهة الدولة، ولكن في مواجهة التنظيمات المنافسة لها كذلك، وتسعى هذه التنظيمات إلى تطوير مواردها وطرح أفكار أيديولوجية جاذبة، سواء لمواجهة التنظيمات الأخرى أو لاجتذاب الدعم من قطاعات جديدة من السكان[11].

وتختلف الميليشيات المسلحة عن التنظيمات الإرهابية رغم كون الاثنين من أنماط الفواعل المسلحة من غير الدول، وقد ينبع هذا الاختلاف من درجة استخدامها للعنف، والأهداف المراد تحقيقها، يضاف إلى ذلك الأنماط المتعددة للفراغ الأمني والسياسي والاجتماعي، التي شهدتها بعض دول الإقليم عقب الثورات العربية، وإخفاق مؤسسات

(10) د. محمد مجاهد الزيات، "توازن الضعف: سياسات استيعاب الفواعل المسلحة داخل الدول المنهارة"، اتجاهات الأحداث، (أبو ظبي: مركز المستقبل للأبحاث والدراسات المتقدمة)، العدد 20، مارس/آذار– أبريل/نيسان 2017، ص ص 42– 43.

(11) Anthony Vinci, "Armed groups and the balance of power", the international relations of terrorists, warlords and insurgents, (Oxon: Routledge, 2009), pp 1–2.

الدولة في أداء وظائفها، وهو ما دفع بعض الميليشيات المسلحة بجانب التجمعات القبلية، والجيوش المناطقية، والقوى العرقية، والحركات الانفصالية، لملء الفراغ، لدرجة أنها أصبحت كجزء من السلطة.

وقد تحولت هذه الفواعل من القيام بالأدوار الداخلية للاضطلاع بالمهام الخارجية[12]، أو ما أطلق عليه السياسات الخارجية للميليشيات المسلحة، والتي تسعى من خلالها إلى التأثير على مسار التفاعلات الإقليمية، خاصة في المحيط الجغرافي لها، ولا يقتصر هذا التدخل أو ذلك الاشتباك على مناطق الصراعات الداخلية المسلحة، بل تطور ليشمل نسج شبكة علاقات مع الدول، سواء كانت سياسية أو اقتصادية، وإرسال مساعدات إنسانية عابرة للحدود وفتح مكاتب تمثيل سياسي وإجراء مفاوضات، بما يجعل تلك الفواعل أقرب إلى "أشباه الدول"[13].

وتشير بعض الحالات في الدول العربية، إلى قيام الميليشيات المسلحة بمهام ملء الفراغ السياسي والأمني خلال المراحل الانتقالية التي بدأت منذ انهيار الهياكل القديمة وحتى استقرار النظم الجديدة، وهو ما يوضح عدم خطورة هذا النمط من الفواعل المسلحة في غير الدول، وفقا لرؤية البعض، فقد تساهم الظروف الأمنية المتدهورة بشكل كبير في مرحلة ما بعد سقوط الأنظمة القديمة إلى صعود عدد من الميليشيات المسلحة لتقوم بمهام حفظ الأمن.

وتجلى ذلك في الحالة الليبية، فقد ساهمت الظروف الأمنية المتدهورة بشكل كبير في مرحلة ما بعد سقوط نظام القذافي في ظهور جماعات العنف المسلحة المتشددة التي

(12) محمد عبد الحفيظ الشيخ، "ليبيا بين جماعات العنف والديمقراطية المتعثرة"، المستقبل العربي، (بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية)، العدد 432، فبراير/شباط 2015، ص 124.

(13) "أدوار جديدة؟ أبعاد ومحددات السياسة الخارجية للميليشيات المسلحة في الإقليم"، التقديرات الإقليمية لوحدة العلاقات السياسية الإقليمية، المركز الإقليمي للدراسات الاستراتيجية، العدد 184، 18 يناير/كانون الثاني 2015.

ينتمي أغلبها إلى تنظيم القاعدة أو للإخوان المسلمين، وتلقت هذه الجماعات دعما من دول عديدة مثل تركيا، مما مكنها من تكوين ميليشيات مسلحة، وفرض إرادتها على الأرض بقوة السلاح، مثل ميليشيا فجر ليبيا في طرابلس، وأنصار الشريعة في بنغازي التي بايعت تنظيم "داعش"[14]. وينطبق هذا على ميليشيا "الحوثيين" في اليمن [15].

2- الحصول على دعم من القوى الإقليمية والدولية

اتجهت العديد من الميليشيات المسلحة في السنوات الأخيرة إلى تقوية شبكة علاقاتها وتحالفاتها مع أبرز القوى الإقليمية والدولية، فعلى الصعيد الإقليمي، تحالفت إيران مع الحوثيين في اليمن، حيث تهدف إيران من خلال نشاطها على الساحة السياسية اليمنية إلى إحراز مزيد من النفوذ في اليمن باعتباره يحظى بموقع استراتيجي متميز[16]، ووزن جيو – سياسي مؤثر في المنطقة، إذ ترى إيران أن بإمكانها من خلال تحالفها مع الحوثيين ودعمها لهم سياسيا وعسكريا من أجل ترسيخ تموضعهم في قمة السلطة في اليمن، أن تزيد تأثيرها ونفوذها في المنطقة بشكل كبير عبر إيجاد مواطئ قدم لها بالقرب من ممر استراتيجي دولي بالغ الأهمية، مما يتيح لها الفرصة للتحكم في حركة المرور في خليج عدن ومضيق باب المندب الذي يعد نقطة الربط الرئيسية التي تصل الخليج

(14) د. خالد حنفي علي، "جماعات العنف الليبية والترانزيت الجهادي"، السياسة الدولية، (القاهرة: مؤسسة الأهرام) العدد 198، أكتوبر/تشرين الأول 2014، ص 102.

(15) Ahmed Eleiba, "Yemen's Houthis from Saada to Sanna", Ahram weekly, No 1222, 20-26 November, 2014.

أحمد عليبه، "المعضلة اليمنية: الصراع على دولة مأزومة"، كراسات استراتيجية، (القاهرة: مؤسسة الأهرام) العدد 285، فبراير/شباط 2018، ص 15.

(16) Frank A. Stengel and Rainer Baumann, "Non – state actors and foreign policy", accessible on:

. http://www.politics-oxfordre.com/29september2017

العربي والمحيط الهندي بالبحر الأحمر، وصولاً إلى قناة السويس، كما يعد الممر المائي الرئيسي للنفط في العالم[17].

وباستقراء حالات التدخل الإيراني في دول الجوار الإقليمي الأخرى ولاسيما العراق وسوريا ولبنان، يلاحظ أن إيران تستند في تدخلاتها إلى ثلاثة اعتبارات أساسية، تعد بمثابة خطة عمل إيرانية لتحقيق الأهداف المتعلقة بالتغلغل وتوسيع مجال النفوذ والهيمنة في المنطقة، وهذه الاعتبارات هي[18]:

الاعتبار الأول: محاولة الاستفادة من الانقسام والفوضى وعدم الاستقرار وضعف السلطة المركزية لاختراق الدول، ومن ثم استغلال الانقسامات بين النخب السياسية المختلفة عبر دعم الفصائل القريبة من إيران مذهبيا أو المتفقة معها في التوجهات. وذلك من خلال السعي لإقامة شراكات مع الفاعلين غير الرسميين (الفاعلين دون الدول)، وخصوصا الجماعات الرافضة للأوضاع القائمة سواء على المستوى المحلي، نتيجة لتصور هذه الجماعات أنها مهمشة سياسيا أو اقتصاديا أو اجتماعيا، أو أن نصيبها من النفوذ والسلطة لا يلبي طموحاتها السياسية، أو على المستوى الإقليمي، نتيجة لعدم رضا هذه الجماعات عن التوازنات الإقليمية القائمة، لتصورها أن هذه التوازنات تميل لصالح من تعدهم خصوما لها والمتمثلين في الحلفاء الإقليميين للولايات المتحدة الأمريكية.

الاعتبار الثاني: اعتماد إيران على الاستثمار السياسي طويل الأجل في دعم شركائها أو الموالين لها من الفاعلين دون الدول، وذلك من خلال انتقاء واستقطاب

(17) Amal Mudallali, "the Iranian sphere of influence expands into Yemen", foreign policy, October 2014, 8, accessible: http://www.cutt.us/xxxwl.

(18) محمد جمعة، "الرعاية المتبادلة للإرهاب في شرق المتوسط، الأدوات والتحديات"، السياسة الدولية، (القاهرة: مؤسسة الأهرام)، العدد 213، يوليو/تموز 2018، ص 90.

الجماعات أو الفصائل التي تمتلك إمكانيات أفضل، أو تحظى بفرص أكبر للنجاح مستقبلاً وتوثيق علاقاتها بها، وتشجيعها ودعمها سياسيا وماليا وعسكريا، بما يفضي في نهاية المطاف إلى تمكين هذه الجماعات أو الفصائل من تقليد الحكم إلى الوصول إلى مواقع سياسية حيوية ومؤثرة في دولها، وينطبق هذا على دعم إيران للعديد من الفصائل والتنظيمات العراقية الشيعية، ودعم حزب الله في لبنان، ودعم الحوثيين في اليمن.

الاعتبار الثالث: تشجيع الجماعات أو الفصائل الموالية لإيران على العمل على مستويين: المستوى **الأول** داخل إطار الهيكل السياسي الرسمي للدول عبر المشاركة في العملية السياسية في إطار مؤسسات الحكم الرسمية، حتى يكون لهذه الجماعات دور حاسم في القرارات الرئيسية لدولها، والمستوى **الثاني:** خارج إطار الهيكل السياسي الرسمي للدول أو بالتوازي معه، من خلال امتلاك هذه الجماعات لبنى تنظيمية مغلقة، ومصادر تمويل مستقلة وأذرع عسكرية خاصة بها، بما يتيح لها إمكانية تقويض النظام السياسي القائم، مثلما هو الحال سواء في حالة الحوثيين في اليمن، أو في حالة "حزب الله" في لبنان[19].

يضاف إلى ذلك دعم الولايات المتحدة لوحدات حماية الشعب الكردي، والتي تسيطر على مناطق في شمال وشرق سوريا، وهي ميليشيا مسلحة تقاتل تنظيم "داعش" في سوريا، وقد شمل هذا الدعم الإمداد بالسلاح، والتدريب، فضلاً عن إرسال قوات خاصة تقاتل معها في مواجهة تنظيم "داعش"، بالإضافة إلى توفير الغطاء الجوي

(19) محمد حسن القاضي، "الدور الإيراني في اليمن وانعكاساته على الأمن الإقليمي"، (الرياض: مركز الخليج العربي للدراسات الإيرانية)، نوفمبر/تشرين الثاني 2017، ص ص 30-36. بدر القحطاني، "تساؤلات وانتقادات رافقت لقاء متحدث الميليشيات الحوثية مع نصر الله في لبنان"، الشرق الأوسط، 20 أغسطس/آب 2018.

لها[20]. كما تدعم الولايات المتحدة بعض الميليشيات المسلحة في ليبيا لمحاربة الجماعات الإرهابية هناك، من خلال تقديم الولايات المتحدة معلومات استخباراتية، واستخدام قوات العمليات الخاصة، ونشر الطائرات بدون طيار لتعزيز فكرة الحضور الأمريكي ولو بشكل طفيف[21].

3- **تصاعد ظاهرة اقتصاديات الميليشيات المسلحة، أو شبكات الظل المسلحة**، حيث تسعى إلى توفير الموارد المالية الخاصة بها، وذلك عبر عدة طرق يأتي في مقدمتها الدعم المالي الذي تحصل عليه تلك الميليشيات من القوى الإقليمية والدولية الحليفة لها، وكذلك قيامها بعمليات السطو والاستيلاء على المساعدات الإنسانية والإغاثية التي تخصصها المنظمات الدولية غير الحكومية أو المنظمات الأهلية والإغاثية العربية للمناطق التي تعاني من أوضاع إنسانية متدنية نتيجة الصراعات الداخلية المسلحة المتصاعدة، فقد تقوم الميليشيات المسلحة ببيع هذه المساعدات وتحقيق ثروات مالية ضخمة من عوائدها، بل والمساعدة في تمويل المنظمات الإجرامية والتنظيمات الإرهابية بعد التحالف بينها.

وقد انتشر هذا النمط في غالبية الدول التي تشهد صراعات داخلية، ويرجع انتشارها إلى عدة عوامل، يأتي في مقدمتها، البيئة السائلة لبلدان الصراعات المسلحة، وتحقيق ثروات ومنافع اقتصادية ضخمة، والسعي لتوفير الموارد اللازمة لإدارة

(20) Claudia Hofmann and Ulrich Schneckener, engaging non-state armed actors in state and peace – building: options and strategies, international review of the red cross, vol. 93, No. 883, September 2011, p 608.

(21) Daniel L. Byman, "why engage in proxy war? A state perspective", (Brookings institute, London, 21 May 2018) available at:

http://www.brookings.edu/blog/order-from-chaos/21/05/2018/why-engage-in-proxy-war-a-states-oerseoctuve ,

الصراعات، وغياب الضمانات الدولية للوصول الآمن للمساعدات، كما أفرزت الظاهرة أيضا مجموعة من التداعيات السلبية، منها تصاعد وتعقيد الأزمات الإنسانية، وتزايد أعداد المنضمين للتنظيمات المسلحة، علاوة على استمرار وبقاء الصراعات المسلحة بهدف الحفاظ على المكاسب منها.

4- انخراطها في مفاصل الدولة

تسعى العديد من الميلشيات المسلحة إلى التغلغل والانخراط في مفاصل الدولة، لإثبات حضورها إما كفاعل سياسي مؤثر في عملية صنع القرار، وإما للوصول إلى السلطة، وهذا ينطبق على حالة اليمن، بعد تحالف الحركة الحوثية مع الرئيس السابق علي عبدالله صالح والتمدد والسيطرة في بعض أرجاء البلاد بقوة السلاح لفرض واقع جديد يضمن التخلص من الخصوم، ثم إخضاع باقي الأطراف لصيغة الاستسلام للأمر الواقع[22]. ثم محاولة الاستحواذ على الأجهزة الأمنية والجيش.

وكذلك الحال بالنسبة لليبيا، هناك دعوات لمحاربة الفساد المالي والإداري بوزارة الداخلية في حكومة الوفاق الوطني الليبية، بدمج الميليشيات المسلحة الموجودة في العاصمة طرابلس ضمن الأجهزة الأمنية الحكومية وهذا على حد قول فتحي باشاغا، وزير الداخلية، حسب بيان أصدره مكتبه عقب اجتماعه مع رؤساء المصالح والأجهزة والإدارات الأمنية في 30 ديسمبر/كانون الأول 2018، حيث قال إن الوزارة هي عصب الدولة وعمودها الفقري، الأمر الذي يستوجب تأهيل جميع منتسبي المجموعات المسلحة، وانضمامها تحت مظلة الوزارة [23].

(22) أحمد عليبه، مرجع سابق، ص 15-18.

(23) خالد محمود، "ليبيا: وزير الداخلية يدعو لمحاربة الفساد ودمج الميلشيات في أجهزة الأمن"، الشرق الأوسط، لندن، 1 يناير/كانون الثاني 2019.

ثانيا: مسارات التعامل مع صعود الميليشيات المسلحة

تعدد الاتجاهات بشأن كيفية تعامل الدول مع ظاهرة صعود الميليشيات المسلحة في المنطقة العربية وتأثيراتها السياسية على الأمن والاستقرار الإقليمي، ويمكن إلقاء الضوء على تلك الاتجاهات بقدر من الإيجاز على النحو التالي:

الاتجاه الأول: إدماج الفاعلين المسلحين في الداخل

يتمثل هذا الاتجاه في إعلاء أهمية الدمج الديمقراطي لهذا النمط من الفاعلين في الداخل على نحو يعزز من كونه فاعلاً مهجنا Hybrid Actor، وذلك بافتراض أن هذا الدمج يحدث نوعا من الاعتدال في توجهاته فتصبح أقل راديكالية، وأن أي دولة تريد أن تؤثر في سلوكهم يمكنها أن تفعل ذلك من خلال استهداف الحكومة الممثل فيها الفاعل بسياسات عقابية، وتكمن مشكلة هذا الاتجاه في أنه يؤدي إلى إضعاف الدولة في المدى المتوسط[24].

ويترتب على ذلك أن يصبح تقليص تمثيله في مؤسسات الدولة، أو إقصاؤه من الحكومة، أي التراجع عن التغيير، خطا أحمر لا يقبل به الفاعل، ولكن اتخاذ القوى الأخرى خطوات في اتجاه تخطي ذلك الخط الأحمر، قد يرتب رد فعل غير متوقع من الفاعل، وينطبق هذا الوضع على حالة "حزب الله"، فقد كان قرار أزمة مايو 2008 أول خطوة تتخذها الحكومة اللبنانية في مواجهة استغلال الحزب للسلاح، وهو ما رد عليه "حزب الله" بطريقة لم يتوقعها أحد، وأجبر الحكومة على التراجع عن القرارين[25].

---

(24) إيمان رجب (محرر)، "hybrid actor: تزايد تأثير الفاعل المهجن ومداخل التعامل معه في الشئون الدولية"، ملحق مفاهيم المستقبل – دورية اتجاهات الأحداث، (أبوظبي: مركز المستقبل للأبحاث والدراسات المتقدمة)، العدد 4، نوفمبر/تشرين الثاني 2014، ص 9.

(25) إيمان رجب، اللاعبون الجدد أنماط وأدوار الفاعلين من غير الدول في المنطقة العربية، السياسة الدولية، (القاهرة: مؤسسة الأهرام)، العدد 187، يناير/كانون الثاني 2012، ص 34.

وتشير بعض الأدبيات إلى أن عملية الدمج للميليشيات والتنظيمات المسلحة قد تتضمن نموذجين رئيسيين، أحدهما مدني، والآخر عسكري، يمكن تفصيلهما على النحو التالي.

النموذج الأول: الدمج المدني للمسلحين، حيث تتعامل الدراسات مع الدمج المدني باعتباره الشرط الأول لإنجاز التسويات السلمية للصراعات، فقد أشار تقرير صادر عن الأمم المتحدة عام 2009 عن مشروطيات الدمج والتعافي السريع لمجتمعات ما بعد الصراعات إلى ثلاثة مسارات ضرورية لنجاح عملية إعادة الدمج المدني للمسلحين. أول هذه المسارات يركز على ترسيخ الأمن والاستقرار، وتنفيذ عدد من البرامج على المدى القصير تشمل برامج للأشغال العامة كثيفة العمالة، وبرامج لإعادة بناء وتطوير البنية التحتية والاقتصادية.

ويرتبط المسار الثاني بتدعيم عملية السلام من خلال إعادة بناء المجتمعات المحلية واستعادة قدرات السلطات المحلية، وتعزيز مبادرات الاستثمار في البنية التحتية، واستغلال الموارد الطبيعية المتاحة، بينما يهدف المسار الثالث إلى المساعدة في إيجاد فرص عمل مناسبة ومستديمة للمسلحين، وصياغة سياسات اقتصادية واضحة تتسم بالرشادة وخلق إطار متماسك للحوار المجتمعي، وتفترض هذه المسارات بشكل ضمني أن تحظى الميليشيات المسلحة بفرصة المشاركة السياسية على أساس أنها ستصبح الآلية البديلة للعنف للتعبير عن مصالحها[26].

(26) United Nations, "Post- conflict employment creation, income generation and reintegration, 2009, accessible at:

http://www.ilo.org/wcmsp5/groups/public/@ed_emp/@emp_ent/@ifp_crisis/documents/publication/wcms_117576pdf ."

النموذج الثاني: الدمج العسكري للمسلحين، حيث يكتسب هذا النموذج أهمية متزايدة في حالة الدول التي تشهد تفككا لجيوشها الوطنية نتيجة لصراعات داخلية عنيفة، ومن ثم، قد يصبح الدمج العسكري للعناصر المسلحة المدخل لإعادة بناء جيش الدولة، فضلاً عن ذلك، فإن اللجوء إلى هذا النموذج عادة ما يكون وثيق الصلة بالسياق الذي تعقد فيه مفاوضات السلام، فكلما تراجعت معدلات الثقة بين أطراف الصراع، زادت أهمية الدمج العسكري للتنظيمات المسلحة في الأجهزة الأمنية الرسمية للدولة، إذ أن هذا الدمج سيكون بمنزلة ضمان لهذه التنظيمات بعدم تراجع السلطة عن تعهداتها[27].

وباستقراء النموذجين السابقين لعملية إدماج المسلحين في الداخل، فإنه يمكن المزج بينهما ليشكلا معا نموذج "الدمج المدني–العسكري" أو ما يمكن تسميته بنموذج "**الدمج المزدوج**"، والذي قد يكون مناسبا للتطبيق في بعض الحالات، بحيث يسمح للتنظيمات والميليشيات المسلحة الانخراط والمشاركة في المجتمع مجددا عبر أنشطة سليمة مثل منحها حق تشكيل أحزاب سياسية تشارك في العملية السياسية، وفي الوقت نفسه يسمح للعناصر المسلحة بالدمج العسكري لإعادة بناء جيش وطني قوي.

وعلى أية حال، فبغض النظر عن اختيار النموذج الأمثل لدمج الفاعلين المسلحين في الداخل، فإنه ثمة أمور عديدة يجب التعامل معها بكفاءة لضمان نجاح عملية نزع التسلح والدمج للمسلحين، ومن أبرزها:

(*) توقيت دمج التنظيمات المسلحة، ويرتبط ذلك بمعضلتين، الأولى: أن الشروع في إجراءات النزع الشامل للتسلح وتفكيك التنظيمات والميليشيات المسلحة، وتفكيك هذه التنظيمات، بدون وجود مؤسسات بديلة، قد يؤدي إلى حالة من الفراغ الأمني، خاصة

(27) Katherine Gleassmyer and Nicholas Sambanis, "Rebelmiltary integration and civil war termination", Journal of Peace Research, Vol. 15, No. 3, 2008, p 365.

في حالة المجتمعات التي تشهد انهيارا تاما للسلطة، وبزوغ هذه التنظيمات ككيان بديل عن الدولة يضطلع بمهام الأمن، وتوفير الخدمات للسكان المحليين[28].

أما المعضلة الأخرى، فتتمثل في تراجع رغبة بعض التنظيمات المسلحة في التخلي عن أسلحتها قبل إنجاز تسوية سياسية تحقق رضا هذه التنظيمات، وتستجيب لمطالبها، ونتيجة لذلك، فقد تم تطوير صيغة جديدة (يطلق عليها الجيل الجديد) من أطروحة نزع التسلح وإعادة الدمج، تتسم بدرجة أكبر من المرونة، وتقدم حوافز اقتصادية وسياسية لإعادة الدمج في المجتمع كآلية لبناء الثقة بين الأطراف المتنازعة، وتنتهي ببعض أشكال نزع السلاح، أو حتى التحكم في الأسلحة، وذلك لحين تنفيذ الالتزامات المتبادلة المنصوص عليها في اتفاقيات السلام[29].

(*) **الشرعية المجتمعية عند دمج التنظيمات المسلحة**، إذ أن إنجاز برامج لدمج هذه التنظيمات يتطلب من جهة درجة من الشرعية المجتمعية، أي أن يتقبل المجتمع التعايش مع مجموعات مسلحة كانت ضالعة في أعمال عنف. ولا يمكن إغفال أن تشكيل هذه الشرعية في المنطقة العربية سيكون عملية معقدة قد تستلزم الدخول في

(28) JairoMunive and Finn Stepputt, "rethinking disarmament, demobilization and reintegration programs", stability: International journal of Security and Development, (1): 48, Ovt 2015, doi:

. http://www.dx.doi.org/10.5334/sta.go

(29) Hlene Maria Kyed and Mikael Gravers, "Integration and power – sharing: what are the future options for armed non-state actors in the Myanmar peace process?", stability: International journal of security and development, 4 (1): 57, 3, Dec 2015, doi: http://www.dx.doi.org/10.5334/sta.gt

وانظر أيضا: د. باسم رزق عدلي، "التعافي الداخلي.. المشروطيات وحدود الملائمة"، (ملحق اتجاهات نظرية)، السياسة الدولية، (القاهرة: مؤسسة الأهرام)، العدد 213، يوليو/تموز 2018، ص 13.

شراكة بين السلطة الشرعية والفاعلين المحليين لما يمثلونه من وسيط مهم يمكن أن يؤهل المجتمعات المحلية لقبول المسلحين مجددا كأفراد في الدولة. ومن جهة أخرى تبديد تخوفات المجموعات المسلحة بخصوص تقبل المجتمع لها.

ويرتبط بقضية الشرعية المجتمعية مسألة "العدالة" والتي تعد من القضايا الجدلية، نظرا لما تنطوي عليه من معضلات في السياق العربي الراهن، فالجرائم التي وقعت في أثناء الصراعات، وتصنف على أنها جرائم ضد الإنسانية متورطة فيها السلطة والميليشيات المتحالفة معها (كما في حالة سوريا)، فضلاً عن المجموعات المسلحة الأخرى، علاوة على أن الكثير من المجموعات المسلحة في الصراعات العربية لها حاضنتها القبلية، أو العرقية أو الطائفية، والتي تمنحها نوعا من الحصانة ضد الملاحقات القضائية، واستنادا إلى هذه المعطيات، من المرجح أن تظل مسألة العدالة من المسائل غير المحسومة، أو على أقل تقدير قد تتم الاستعاضة عنها بمبادرات التصالح وتعويض الضحايا وذويهم[30].

(*) **معضلة الدور الخارجي في إعادة دمج التنظيمات المسلحة:** فقد يسهم التدخل الإيجابي من أطراف خارجية في إنجاح اتفاقيات السلام فمن جهة، يمكن أن تقدم هذه الأطراف (دول أو منظمات) ضمانات لأطراف النزاع ولاسيما في مرحلة نزع التسلح، وتسريح العناصر المسلحة، والتأكد من عدم تراجع أي طرف عن التزاماته، ومن جهة أخرى، يمكن للأطراف الخارجية أن توفر التمويل اللازم لبرامج الدمج (في حالة الدول التي تواجه أزمات اقتصادية حادة)[31].

(30) محمد بسيوني عبد الحليم، "إدماج المسلحين بين النموذجين المدني والعسكري"، (ملحق اتجاهات نظرية)، السياسة الدولية، (القاهرة: مؤسسة الأهرام)، العدد 206، أكتوبر/تشرين الأول 2016، ص 22.

(31) Robert Muggh and Chris Odonnell, "next generation disarmament, demobilization and re-integration", stability: international journal of security and development, 4 (1): 30, May 2015,, doi: http://www.dxodoi.org/10.5334/sta.fs

ومن ثم تستدعي قضية الدور الخارجي في السياق العربي دلالتين رئيسيتين، الأولى: ضرورة تفعيل دور جامعة الدول العربية، كي تتم الاستعانة بها كوسيط في التسويات التي تتم بين السلطة والمسلحين، وترتبط الدلالة الأخرى بأدوار القوى الإقليمية بالمنطقة المنخرطة في الصراعات بشكل أو بآخر، فبعض هذه القوى لديها تحالفات مع مجموعات مسلحة، ومن ثم يمكن استثمار هذه التحالفات في التوصل إلى صيغ مرضية للتسوية السياسية، تقنع المجموعات المسلحة بالتخلي عن مسار العنف، والاندماج داخل المجتمع[32].

الاتجاه الثاني: سياسات ردع الفاعلين المسلحين من غير الدول بوضعهم على قواعد الإرهاب

يؤكد اتجاه في الأدبيات أن سياسات الردع يمكن توظيفها بفاعلية في مواجهة الفاعلين المسلحين من غير الدول وتهديدات الأمن غير التقليدي، حيث يستند الردع الموسع إلى استباق التهديدات، واستهداف القيادات والتنظيمات المركزية، والحواضن الآمنة، والدول الداعمة للفاعلين المسلحين من غير الدول، بالإضافة إلى الردع بالمنع الذي يركز على حرمان هؤلاء الفواعل من تحقيق أهدافهم، وتعزيز مناعة الدولة وقدرتها على التصدي للتهديدات[33]، وتوجيه ضربات عسكرية لبنيتهم التحتية ولمناطق السكان الموالين لهم، وقد اتبعت هذه السياسات إدارة الرئيس الأمريكي الأسبق جورج بوش خلال

(32) Alvaro De Soto and Graciana Del Castillo, "Obstacles to peace building", Foreign Policy, No. (94), Spring 1994, p 72.

(33) محمد عبد الله يونس، "طور جديد من الردع في مواجهة التهديدات غير التقليدية"، في سياسات الردع، السياسة الدولية، تحولات استراتيجية، (القاهرة: مؤسسة الأهرام)، العدد 213، يوليو/تموز 2018، ص 18.

عام 2001، ولم تكن سياسة فعالة، كما أن شن إسرائيل حرب يوليو/تموز 2006 لم يضعف حزب الله، بل أضعف الدولة اللبنانية[34].

ولكن الدول العربية تواجه سياقات إقليمية شديدة التعقيد تزيد من تحديات تطبيق الردع في مواجهة التهديدات غير التقليدية، خاصة تهديدات الفاعلين المسلحين، إذ تنتشر بؤر الصراعات الأهلية، وعدم الاستقرار الداخلي، والتوترات الحدودية على امتداد الإقليم وتقع على أطرافه قوى إقليمية، مثل إيران، وتركيا، وإسرائيل، تمكنت من اختراقه والتدخل العسكري في مناطق الصراعات به، فضلاً عن الحروب بالوكالة التي تتم إدارتها في سوريا بين القوى الدولية والإقليمية، وتتم الاستعانة في إطارها بالفاعلين المسلحين كوكلاء لهذه الأطراف الخارجية.

ويعني ذلك أن الحدود الفاصلة بين التهديدات التقليدية النابعة من تعارض المصالح بين الدول ونظيرتها غير التقليدية المرتبطة بأنشطة الفاعلين من غير الدول قد تعرضت للتآكل، بحيث تداخلت مصادر التهديد، وهو ما يرتبط بالوجود العسكري للقوى الدولية في بؤر الصراعات وفي القواعد العسكرية التي تنتشر على أطراف [35].

الاتجاه الثالث: تعزيز أزمة بقاء الفاعلين المسلحين

يقدم هذا الاتجاه تصورا مختلفا للتعامل مع هذا النوع من الفاعلين يستند إلى أن يكون في سياق أنهم قوى لها وزن ما في الداخل، ولهم نفوذ وسلطة يمارسونها في مناطق محددة من الدولة، وأحيانا لا تكون أبعاد هذا النفوذ واضحة في الظروف العادية،

(34) د. إيمان رجب، "الهوية المركبة أم المصلحة؟ محددات سلوك الفاعلين العنيفين من غير الدول في الشرق الأوسط"، كراسات استراتيجية، مركز الأهرام للدراسات السياسية والاستراتيجية، (القاهرة: مؤسسة الأهرام)، العدد 255، أغسطس/آب 2015، ص 45.

(35) Shmuel Bar, "Israeli experience in deterring terrorist organizations", Comparative Strategy, Vol. 26, October, 2007, p 10-15.

وقد تتكشف في أول مواجهة بينهم وبين الدولة، وبالتالي يكون التعامل معهم كمعطى موجود قادر على التكيف مع الظروف المحيطة، وله قدرة على الحفاظ على موارده المالية، بصورة مستقلة عن الدولة، حتى وأن كانت هناك عقوبات موقعة دوليا ضدهم. كما يكون التعامل معهم من منطلق، أن كلاً منهم فاعل رشيد له مصلحة محددة تؤثر على سلوكه، وهي تتمثل في حالة "حزب الله" على سبيل المثال في الحفاظ على الوضع الحالي، أي تمثيله في الحكومة وفق صيغة الثلث المعطل والاحتفاظ بسلاحه[36].

يتضح مما سبق أن هناك ثلاثة مداخل طرحت للتأثير في سلوك الفاعلين من غير الدول ومن بينهم الفاعلين العنيفين يتمثل الأول في السماح باستمرار انخراط الفاعل من خلال جناحه السياسي في النظام السياسي وفق سقف محدد لا يسمح له بالسيطرة على السلطة التنفيذية، ففي المدى القصير، يجعل انخراطه في التعامل معه سهلاً، حيث يضمن انكشاف مفاصل التنظيم وشبكة موارده، وتجنب المشاكل المترتبة على هذا الانخراط فيما يتعلق بتماسك الدولة ومستقبلها، يتوقف على قوة القوى السياسية الأخرى، وقوة مؤسسات الدولة.

وينصرف المدخل الثاني لاسيما في حالة الفاعل المهجن إلى التأثير بنصيبه في السلطة، وتمثيله في مؤسسات الدولة بهدف التأثير على سلوكه تجاه القضايا الخارجية التي لا تمثل مصدر تهديد حقيقي له، كما يعد التهديد باستبعاده من الحياة السياسية دافعا له ليكون مرنا تجاه قضايا التغيير الداخلي، ولكن تحقق ذلك يتطلب وجود دولة قوية، تستطيع أن تتبع سياسات تهدد نصيب الفاعل من السلطة في داخل الدولة التي ينشط فيها، فإن المساس بهذا النصيب هو المتغير الحاكم.

(36) Matthew Levitt, "financial setbacks for Hamas", policy watch, No 1436, The Washington institute for near east studies, dec-3, 2008.

ويتعلق المدخل الثالث، بتعزيز أزمة بقاء الفاعل، فالتأثير في سلوك الفاعل في هذه الحالة، يكون هدفه أن يقبل بتوازن القوى الجديد، ونظرا لأن الفاعل عادة لا يقبل بذلك كما سبقت الإشارة، فإن التأثير على سلوكه يكون من خلال اتباع سياسات تهدد مكونات الهوية المركبة التي يرتكز عليها سواء المادية، أو غير المادية.

خلاصة القول لازال مستقبل الميلشيات المسلحة في المنطقة العربية يعد معضلة يصعب التغلب عليها للوصول إلى تسوية سياسية سلمية للأزمات في عدد من الدول، ولعل التنظيمات والميلشيات المسلحة التي جاءت نتيجة لواقع مضطرب لتشكل بديلا أو مكملا لدور الأجهزة الأمنية والمؤسسات العسكرية النظامية قد تمكنت من فرض وجودها الذي يصعب التغاضي عنه أو إغفاله في حال سكوت المدافع، وعلى الرغم من تصاعد الأصوات التي تنادي بانتهاء دور بعض هذه التنظيمات التي تشكل بعضها في الأساس لمحاربة التنظيمات الإرهابية مثل داعش، إلا أن هذا الطرح يعد بعيدا عن الواقع الذي يجعل هذه التنظيمات جزءاً لا يتجزأ من الحل الشامل، وتطرح هنا خيارات عدة تدخل جميعها في إطار إمكانية إدماج هذه التنظيمات في الأجهزة النظامية، أو اندماجها معا لتشكل قوة واحدة، أو تحولها للعمل السياسي، أو ردعهم بوضعهم على قائمة الإرهاب.

الأكراد
والأمن القومي الإقليمي

نيبال عزالدين

مدرس العلوم السياسية بجامعة مصر- القاهرة

الأكراد قبائل مسلمة لها لغتها الخاصة وهي الكيرمانجى، أغلبهم يتبعون المذهب السني، عدا مجموعة شيعية تسكن شمال العراق على الحدود التركية، ويطلق على مكان تواجدهم إقليم كردستان. تعد لغتهم خليطا من اللهجات الهندية والأوروبية القريبة إلى الفارسية، لم يتفق على أصلهم، إذ يعتقد أنهم منتمون إلى الجنس الآري، ويرى آخرون أنهم منتمون للجنس الهندي الأوروبي وأقرب للعنصر الفارسي منه عن العنصر التركي والعربي، وقد سكنت تلك القبائل المناطق الجبلية منذ أربعة آلاف سنة، ويمتهنون حرف الزراعة والرعي[1].

توزيع الأكراد

لا توجد فكرة حاسمة عن أصل الشعب الكردي ومنشئه وكل ما يعتمد عليه من آثار قديمة خاصة بكردستان لا تعطي فكرة دقيقة عن نشأتهم. فظهرت أبحاث علمية غير دقيقة في تحديد هذا الموضوع، حاولت إلغاء الكردي وإنكار أصله وتشويهه[2].

(1) هوكر طاهر توفيق، مرجع سابق ذكره، ص 19

(2) أحمد تاج الدين، الأكراد تاريخ شعب وقضية وطن، (القاهرة: الدار الثقافية للنشر ،2001م)،ص11.

يبلغ عدد الأكراد جميعا نحو 30 مليون نسمة، يسكنون الأماكن الجبلية الممتدة بين شمال العراق وشمال شرقي سوريا، وفي جنوب تركيا، وشمال غرب إيران، وفي دول أخرى مختلفة.

أولاً: توزيع الأكراد في العراق

يرتكز الأكراد في الجزء الشمالي من البلاد أربيل، وكركوك، ودهوك، والسلمانية، ويشكلون إقليم كردستان مع غيرهم من الأكراد في تركيا، وسوريا، وإيران، وأجزاء من أرمينيا، الذي تبلغ مساحته نحو 500000 ك.م2، بينما يشغل أكراد العراق منه نحو 400000ك.م2[3]. وتقدر نسبة الأكراد في العراق بنحو 15,2% من مجموع سكان العراق، والتي تساوي 5,4 مليون نسمة[4].

ثانيا: توزيع الأكراد في تركيا

يرتكز أكراد تركيا في 11 مقاطعة في جنوب شرق البلاد ويستحوذ أكراد تركيا على مساحة 194 ألف ك.م2 من مساحة إقليم كردستان[5]، يشكلون ثاني أكبر مجموعة قومية بعد الأتراك، إذ يقدر عددهم ما بين 16 و 18 مليون نسمة، بذلك يشكل أكراد تركيا أكبر تعداد سكاني كردي بين مناطق تواجدهم[6].

ثالثا: توزيع الأكراد في سوريا

(3) محمد خالد سرحان، " الأوضاع السياسية لأكراد العراق في ضوء الاحتلال الأمريكي 2003-2011م"، رسالة ماجستير منشورة، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، جامعة الأزهر، غزة، 2013م، ص 2

(4) راجي يوسف محمود، "أثر الاحتلال الأمريكي للعراق في إشكاليات العنصر البشري المشترك بين العراق وتركيا "، رسالة دكتوراه غير منشورة، كلية الاقتصاد والعلوم السياسية، جامعة القاهرة، 2015م ،ص243.

(5) عقيل محفوظ، " دراسة بحثية: تركيا والأكراد: كيف تتعامل تركيا مع المسألة الكردية ؟ "، المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات، الدوحة، 2012 م، ص9.

(6) راجي يوسف محمود، مرجع سابق ذكره، ص223.

تشكل الأقلية الكردية 12% من مجمل سكان سوريا، حيث يقدر عددها بمليوني نسمة، يعيش معظمهم في شمال شرق البلاد وخاصة في مدينة الحسكة والقامشلي وديريك، بالإضافة إلى وجودهم بأعداد أقل في مناطق أخرى من سوريا، مثل مناطق عفرين وعين العرب بمحافظة حلب، وتعتبر أكبر أقلية من مكونات الأقليات العديدة في سوريا ولقد كانت الأزمة السورية سببا أساسيا للتعرف إلى هذه " الأقلية المنسية " أو " الأقلية المكتشفة حديثا " وفق بعض التصنيفات[7].

فلسفة الدور الكردي المؤثر في الأمن القومي الإقليمي.

يندر أن تخلو دولة من دول العالم من أقليات عرقية أو طوائف وأديان مختلفة، وقد بدأ التفاعل التاريخي بين الأقليات في الوطن العربي بعد الحرب العالمية الأولى وانهيار الإمبراطورية العثمانية، ونتيجة للتدخل الاستعماري، ونشوء الدولة القطرية، وسيطرة حكومات صارمة، تفاقمت مشكلات الأكراد[8]، يبدو إذا أن ثمة علاقة قوية بين وجود الأقليات والاستقرار السياسي في مناطق تواجدها[9].

أهداف السياسة الخارجية الكردية[10]

(7) محمد عبدو علي، الوجود الكردي في شمال سوريا: منطقة جبل الأكراد (عفرين)، المركز الكردي للدراسات ،2016م، تاريخ النشر 25 /2016/11م، تاريخ الدخول 2017/2/20م، على الرابط: http://nlka.net/index.php/2014-07-10-22-08-10/445-2016-11-25-11-41-22

(8) مصلح خضر، " الدور السياسي للأقليات في الشرق الأوسط "، (الأردن: الأكاديميون للنشر، 2014، ط1)، ص5.

(9) السيد عبد المنعم، " حرب الخليج الثانية والتكامل الوطني في العراق: الأكراد دراسة حالة 1988-1996 " رسالة ماجستير منشورة، (القاهرة: معهد البحوث والدراسات العربية، 2001)، ص18.

(10) رضا هلال، " الأكراد بين الفيدرالية والانفصال "، موقع السياسة الدولية، القاهرة، بدون تاريخ نشر، تاريخ الدخول: 2017/2/26م، للمزيد : http://www.siyassa.org.eg/Newscontent/3/111/9825

عقب استقلال العراق وسوريا في منتصف القرن العشرين، طرح الأكراد مطالب تتعلق بالنظام السياسي والمجتمع الخارجي تهدف إلى المشاركة وتأكيد هويتهم، ونظرا لاستبداد نظم الحكم القائمة في تلك الدول، تزايدت نوعية المطالب الخاصة بالحفاظ على اللغة والدين والعادات والتقاليد، مقارنة مع مطالب الانفصال. ويمكن تصنيف المطالب على النحو الآتي:

1- مطالب سياسية واقتصادية، وتضم الآتي:

- مطلب الانفصال : لإقامة كيان سياسي جديد مستقل عن كيان الدولة العراقية، وهو ما رفضته الدولة العراقية إبان صدام حسين، واكتفت بمنح الأكراد بعض المزايا المتعلقة بالحقوق الثقافية.
- طلب الاستقلال الإداري: اتسمت أغلب مطالب الأكراد في سوريا والعراق خلال عقد الثمانينيات من القرن العشرين، بالاعتراف بخصوصية هذه الجماعة في الدولتين، كأن تحصل على استقلال إداري، أو حكم فيدرالي ذاتي، أو إدراجها ضمن الأقاليم الخاصة في الدولة لأجل الحصول على مخصصات مالية واقتصادية، أو الاعتراف بقيمة الجماعة، وتميزها في المجتمع. ولا تزال هذه المطالب هي الحد المتفق عليه بين الجماعات الكردية في الدولتين.
- مطلب المناصب العامة : طالب الأكراد بتخصيص عدد من الوظائف والمواقع القيادية في المؤسسات الحكومية الرسمية من أجل السيطرة على جهاز الخدمة المدنية، والوظائف الرئيسة في الدولة.

2- **مطالب ثقافية واجتماعية:** نادت بالحفاظ على هويتها الثقافية والاجتماعية في العراق وسوريا ضد محاولات طمس هويتها المستقلة فطالبت بوضع رسمي للغة الكردية، واحترام عاداتها وتقاليدها. وتطورت هذه المطالب إلى حد إنشاء ميليشيا عسكرية خاصة، وحيازتها للأسلحة، وهيمنتها على إدارة الموارد الاقتصادية

الخاصة بها، ما رفضه الرئيس العراقي صدام حسين، وعدها مقدمة لتمرد الأكراد، وانفصالهم عن الأراضي العراقية، واستخدم القوة ضدهم.

الدور الكردي المؤثر في الأمن القومي الإقليمي.

طبيعة الدور الكردي

أسباب خطورة الأقليات تتلخص في ثلاثة محاور رئيسة هي: دور النظم السياسية، والتطور التكنولوجي، ومطالب الأقليات. وتعد مطالب الأقليات أخطرهم والتي تنقسم إلى: المطالب ذاتها، والأهداف المستخدمة لتحقيقها[11].

حسب تقرير صادر عن معهد السلام، فإن نهاية الثمانينات وبداية التسعينات من القرن المنصرم تعد سنوات التوتر العرقية إذ أنها تشكل بداية لحقبة النزاعات العرقية، التي بدأت في الاتحاد السوفيتي وانتقلت إلى جمهورية يوغسلافيا ومنهما إلى بقية مناطق العالم.

تواجد الأكراد بين دول العراق، وسوريا، وتركيا، أثر بشكل كبير على مجرى العلاقات بينهم، فنجد أن العلاقات التركية –العراقية مثلاً، بدأت تخالطها الأزمات بظهور بنمو الدور الكردي، والعلاقات التركية – السورية زاد الأكراد فيها الخلافات اشتعالاً وذلك على النحو الآتي[12]:

–1العلاقات العراقية –التركية : سريعا ما ظهرت الأزمات بين البلدين على إثر بيان مارس العراقي 1970م، بإصدار حكم قضائي يمنح الأكراد حكما ذاتيا، في الوقت الذي ظلت سياسات تركيا تجاه الأكراد على حالها. كما شكلت فترة الثمانينات فترة توتر حاد بين البلدين، وبداية للتدخل المسلح التركي تجاه العراق على إثر اتفاقية 17 أكتوبر 1984م.

(11) فايز عبد الله عساف، مرجع سابق ذكره، ص68.
(12) ويفى خيرة، مرجع سابق ذكره، ص135:147.

-2العلاقات السورية -التركية : الخلافات بين تركيا وسوريا هي السمة الأبرز للعلاقات بينهم، قديما كان الخلاف الحدودي حول مدينة الأسكندرونة، واشتد هذا الخلاف في منتصف السبعينات، حول مياه نهر الفرات، فعقدت اتفاقيات بين البلدين شهدت وجود العراق كطرف في بعض من تلك الاتفاقيات، وساعدت تلك الاتفاقيات في تهدئة حدة الخلافات، أما عن الأكراد في سوريا وتركيا، فقد استخدموا كورقة ضغط بين البلدين، فمثلاً تقربت سوريا من حزب العمال الكردستاني للضغط على تركيا.

واحتدت الخلافات بعد الانقلاب الثالث في تركيا، والمتهم فيه سوريا بعد تقاربها من التنظيم الكردي التركي، واستمرت تركيا في توجيه الاتهامات لسوريا بدعمها العمل المسلح للأكراد في تركيا رغم عقد بروتوكول أمني بينهما في 1986م. وتفاقمت الخلافات أكثر بعد أي محاولة لربط مشكلة المياه بحل مشكلة الأقليات.

محركات الدور الكردي [13]

1- ضعف الشرعية السياسية للنظم العربية: وظفت الأقلية الكردية – لصالحها – عاملي فشل النظم السياسية العربية في حفظ شرعيتها، وغياب الشرعية السياسية عن معظمها، مما أدى في الأخير إلى زعزعة الاستقرار السياسي للدولة الوطنية العربية، إذ أصبحت تلك النظم مخيرة بين بديلين، أولهما : سلوك تسلطي ضد التنوع العرقي أو المذهبي أو الديني أو العشائري، يخلق نوعا من العنف والصراع، والآخر : سلوك ديمقراطي يخدم هذا التنوع على حساب الأغلبية، ويضع النظام السياسي في مواجهة ضد بقية الشعب.

(13) سامى الخزندار، " أسباب ومحركات الصراعات الداخلية العربية "، موقع الجزيرة، 2004/10/3م، تاريخ الدخول: 2016/11/20م، للمزيد :
http://www.aljazeera.net/specialfiles/pages/0f3A3346-A14E-48BD-9D9A-7063E2408465

2- العلاقة التعاقدية الباهتة : عدم وضوح العلاقة التعاقدية بين الدولة والأقليات المختلفة، إما من خلال معاهدات أو دستور أو حتى آليات فعالة تلزم كل طرف بتطبيق بنود هذه العلاقة التعاقدية، وقد تكون العلاقة التعاقدية واضحة ببنودها والتزاماتها إلا أن بعض المستجدات تحول دون الالتزام بها. فرغم وجود علاقة تعاقدية بين النظام العراقي والكيان الكردي تمثل في حكم ذاتي، إلا أن التداعيات التي أوجدتها حرب الخليج الثانية حالت دون الالتزام بها.

3- النخبة السياسية والثقافية: لعبت نخب الأقليات دورا أساسيا في صياغة الرؤى السياسية والثقافية والدينية لدى تلك الأقليات وأعاقت أحيانا عمليات الاندماج السياسي والاجتماعي ضمن الدولة العربية، الأمر الذي مهد للصراعات في بعض المجتمعات العربية.

4- اضطراب الأمن الإقليمي والصراعات العربية – العربية : حالة الخلاف بين تركيا وإيران حول أكراد العراق.

5- إرضاء مصلحة الأطراف الخارجية : بإزاحة وتصعيد نظم سياسية معينة. مثل : توظيف الأقلية الكردية لخدمة المصلحة الأمريكية أثناء غزو العراق في 2003.

تطور الدور الكردي

بدأ الدور الكردي من العراق بنهاية حرب الخليج الثانية ،وبالغزو الأمريكي للعراق 2003 م، الذي قلب الموازين داخل العراق وبدل مكانة أكرادها، وكذا أكراد المنطقة، خاصة في تركيا التي أصبح أمنها الداخلي مرتبطا بالتطور شمال العراق، فقد كان خوف تركيا نابعا من ربطها ضرب العراق بالمسألة الكردية، ما دفعها للتراجع عن المشاركة في ضرب العراق[14].

أولاً : أكراد العراق

(14) ويفى خيرة، المرجع السابق، ص 165.

المحطة الأولى: فترة الاحتلال الأمريكي لدولة العراق 2003-2011

انتهجت الولايات المتحدة الأمريكية سياستين تجاه الأكراد[15]: أولهما بناء معارضة في الداخل لدعمها في أي مواجهة ضد النظام العراقي، حيث مثلث منطقة كردستان العراق هي منطقة التقدم والاختراق للقوات الأمريكية، وثانيهما إنشاء معارضة مسلحة من الأكراد تساهم من خلال المشاركة في العمليات العسكرية ضد النظام العراقي، فمنذ الغزو الأمريكي للعراق، تحولت قوات البيشمركة إلى جيش كبير، استخدم 600 مقاتل منهم لحماية رئيسي الجمهورية والبرلمان[16].

ويعد الاحتلال الأمريكي للعراق بداية التقسيم الفعلي لدولة العراق، بتعيين " بول بريمر "حاكما مدنيا أمريكيا في العراق[17]، وتحقق للأكراد مكاسب عديدة، بتمكنهم من إضافة المادة[18] من قانون إدارة الدولة، وسيطرتهم مع الشيعة على النسبة الأكبر من أعضاء لجنة صياغة الدستور، كما طالب الأكراد بنظام حكم برلماني، كما طالبوا باتحاد فيدرالي ديمقراطي تعددي، وتقسيم السلطة بين الحكومة الاتحادية وحكومات الأقاليم،

(15) محمد خالد سرحان، " الأوضاع السياسية لأكراد العراق في ضوء الاحتلال الأمريكي (2003-2011)، ("رسالة ماجستير منشورة "، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، جامعة الأزهر، غزة، 2013، ص 61، 60

(16) " لماذا يستهدف نظام المالكي الأكراد، " الجزيرة نت"، برنامج حواري: الاتجاه المعاكس، بتاريخ 2012/12/17، تاريخ الدخول: 2017/2/5، للمزيد:
http://www.aljazeera.net/programs/opposite-direction/2012/12/17/

(17) ..... وقرارات بريمر هي: حل جهازي الشرطة والجيش، وجميع أجهزة الدولة الأمنية السابقة. تأسيس مجلس حكم انتقالي يضم 75 عضوا من مختلف شرائح الشعب العراقي، وكان للأكراد ثقل كبير في ذلك المجلس لما أظهروه من ولاء للولايات المتحدة الأمريكية . إصدار قانون لإدارة شؤون العراق، سمي بقانون إدارة الدولة وأجبر أعضاء المجلس الانتقالي بالتوقيع عليه.

(18) أنور بيرقدار، " المادة 140 من الدستور العراقي حلقة خطيرة ضمن مخطط تقسيم العراق، "عراقيون "، بدون تاريخ نشر، تاريخ الدخول: 20177/2/2 م، للمزيد:
http ://www.Iraqiyoon.com/SiirEdeb/makale/Bayraktar_madde140.html

وغيرها من المطالب التي عبر عنها البرنامج الانتخابي للتحالف الكردستاني المشارك في الانتخابات العراقية[19].

المحطة الثانية: وضع الأكراد بعد عام 2011

أعلن الرئيس الأمريكي باراك أوباما أن بلاده ستمضي في سحب قواتها من العراق بنهاية اليوم الأخير من 2011، على إثر الاتفاقية الأمنية الأمريكية – العراقية الموقعة في ديسمبر 2008 م[20].

أدى الانسحاب الأمريكي من العراق إلى إضعاف السلطة المركزية في العراق، وعليه فقد لجأت الأحزاب الكردية إلى تصعيد الموقف إلى حد المواجهة أو التهديد بالانفصال، إضافة إلى التغييرات السياسية الجذرية التي تشهدها المنطقة[21]. كما شهدت فترة الاحتلال الأمريكي للعراق، نوعا من التحالف بين الأكراد والشيعة، وعلى الرغم من الاختلاف المذهبي إلا أن الطابع العلماني للقادة وتوافق المصالح، كان سببا في التحالف بينهم[22]. لكن سرعان ما تحول التحالف الكردي الشيعي إلى عداء، تزامنا مع قيام الاحتجاجات الشعبية في المناطق السنية أواخر 2012م ومطلع 2013م ضد سياسات رئيس الوزراء العراقي "نور المالكي"، وفشل "المالكي" في السيطرة عليها. إذا يرجع الخلاف بين المالكي والأكراد إلى تنامي قوة البيشمركة، بما هدد وحدة العراق وإمكانية استقلال أقاليم كردستان، وأيضا لسيطرة الأكراد على النفط في الشمال وتصديره إلى

(19) محمد خالد سرحان، مرجع سابق، ص76-74.

(20) " أوباما يعلن انسحاب القوات الأمريكية من العراق بحلول نهاية العام، "بي بي سي، بتاريخ :2016/10/15، تاريخ /الدخول: 2017/2/3م، للمزيد:
http://www.bbc.com/arabic/middleeast/2011/10/111021_obama_iraq_withdrawal.shtml

(21) سعد ناجي جواد ،" مكانة ودور أكراد العراق بعد الانسحاب الأمريكي، " مركز الجزيرة للدراسات، بتاريخ: 2011/12/17، تاريخ الدخول: 2017/11/15، للمزيد:
http://wwwstudies.aljazeera.net/ar/reports/2011/12/201112171342420456 2.html

(22) أحمد عبد الحافظ فواز ،" التحدي الكردي للهياكل الإقليمية بعد الربيع العربي ،" السياسة الدولية، بدون تاريخ نشر، تاريخ الدخول: 2017/11/11م، للمزيد :http://www.siyassa.org.eg/NewsQ/3209.aspx

تركيا، فعلى الرغم من لجوء حكومة بغداد لإغلاق الأنابيب الرئيسية لتصدير النفط لتركيا، إلا أنها لجأت لتصديره عن طريق الشاحنات[23].

وجدير بالذكر أن "المالكي" قد لجأ إلي التقارب مع السنة ليظهر نفسه مدافعا عن الحقوق العربية، ومعارضا لانفصال الأكراد عن العراق، في حين سعى " البرزاني " للحشد الداخلي لمقاومة هيمنة "المالكي"[24]. وبعد تخلي إيران عن "المالكي" وكذلك الولايات المتحدة التي لم تعد تهتم بالشأن العراقي، وتفضل النظر إليه وكأنه شيء من الماضي[25]. لاقت الحكومة العراقية الجديدة بقيادة "العبادي"، ترحابا ممزوجا بحذر من قبل الأكراد، فالأكراد يعلقون آمالهم على الحكومة الحالية لإخراج البلاد من الأزمات التي تلاحق الدولة منذ الاحتلال الأمريكي عام 2003، إضافة تطلعهم إلى احترام المطالب الكردية في الدستور العراقي، وأيضا العمل على تصحيح أخطاء " نور المالكي " عن طريق القطع مع سياسات بغداد السابقة تجاه أربيل[26]. وفي إبريل 2017م، قامت محافظة كركوك برفع علم إقليم كردستان على المؤسسات الحكومية في المحافظة، وهو ما استنكره "العبادي"، ونادى بضرورة المحافظة على وحدة كركوك واحترام الدستور، وعدم اتخاذ قرارات فردية[27]. بين كل هذه الظروف والمعطيات، تبقى لقيادة إقليم

(23) الإيكونيميست (ترجمة عوض خيري)، " أكراد العراق يتجهون إلى الاستقلال التام، " الإمارات اليوم، بتاريخ: 2013/5/2، تاريخ الدخول: 2017/12/1، للمزيد :
http://www.emaratalyoum.com/politics/reports-and-translation

(24) أحمد عبد الحافظ، مرجع سبق ذكره .

(25) حارث حسن، حكومة العبادي: " ترميم البيت الداخلي وتوسيع الشراكة الخارجية، " عراق 2020 " بدون تاريخ الدخول: 2017/12/1م، للمزيد:
http:/ iraq2020.org/print_top.php?id_top=197&p=topics&parm=id_top

(26) ناظم الكاكئي، " الأكراد والعبادي ... تأييد وحذر وشروط "، الجزيرة نت، بتاريخ 2014/8/16، تاريخ الدخول: 2017/12/2، للمزيد:
http: //www.aljazeera.net/news/reportsandinterviews/2014/8/15/

(27) " العبادي يطالب كركوك بالتراجع عن رفع علم كردستان، " الجزيرة نت، بتاريخ: 2017/4/5، تاريخ الدخول: 2017/4/7 م، للمزيد: http://www.aljazeera.net/news/arabic/5/4/2017

كردستان اليد العليا في العراق، لكن هناك بعض المحددات الداخلية والخارجية التي تعوق حرية تصرف السلطة المركزية. وعلي الرغم من تهديد القيادات الكردية بالانفصال على أسس حق تقرير المصير، إلا أن الدول الإقليمية المجاورة ترفضه خشية من أن تنتقل تلك التجربة إلى أكرادهم.

ثانياً : أكراد تركيا

المرحلة الأولى : الأكراد في عهد حزب العدالة والتنمية :

شكل عام 2002م بداية مرحلة جديدة في تاريخ تركيا الحديث، لصعود تيار سياسي جديد على الساحة التركية، حيث تمكن حزب العدالة والتنمية بقيادة " رجب طيب أردوغان" من السيطرة على مقاليد الحكم في البلاد حتى الآن، وكانت الرؤية التي تبناها الحزب تجاه القضية الكردية مخالفة لما سبقها من رؤى، وهي سياسة الحوار[28]. وقد انتهج الحزب في بداية حكمه سياسة التأني في طرح أي مبادرة سياسية خاصة بالقضية الكردية، إذ ركز اهتماماته في سنواته الأولى على تحقيق تنمية اقتصادية، واستقرار سياسي في البلاد[29]. وقد ارتكزت سياسة حزب "العدالة والتنمية" تجاه القضية الكردية على العديد من المبادئ منها[30] :

- أن نهضة تركيا وتقدمها مرهونان بحل القضية الكردية، التي تستنزف ثروتها البشرية وتفتح عليها أبواب التدخل الخارجي.
- الاعتراف بالمظلومية التاريخية للأكراد في تركيا .

(28) إيتيان محجوبيان، " ما الحل المناسب للقضية الكردية في تركيا ؟، " تركيا بوست، بتاريخ: 2016/1/30، تاريخ الدخول: 2017/12/12، للمزيد: http://www.turkey-post.net./p-105680/

(29) سعيد الحاج، " عملية السلام مع أكراد تركيا أمام مفترق طرق "، تركيا برس، بتاريخ: 2016/1/19، تاريخ الدخول: 2017/11/30، للمزيد: http://www.turkpress.co/node/17611

(30) سعيد الحاج، مرجع سابق .

- اعتبار المسألة الكردية شأنا داخليا وليست قضية إقليمية، ولذلك تفضل الحكومة استخدام مصطلح الحل أو التسوية وليس السلام.
- حل القضية الكردية سياسيا ضمن استراتيجية متكاملة وليس من خلال رؤية أمنية عسكرية.
- على حزب العمال الكردستاني أن يبادر بإلقاء السلاح وترك العمل العسكري.
- على الدولة أن تعمل على الاعتراف بالحقوق السياسية والاجتماعية والثقافية للأكراد .

ومن ناحية أخرى، تمكن الأكراد من تحقيق نجاحات كبيرة في الانتخابات التشريعية التي خاضتها تركيا في عام 2007م، وحصلوا على 88 مقعدا عن طريق قائمة حزب العدالة والتنمية، وعلى 74 مقعدا في الترشيح الفردي المستقل، كما قام " أردوغان " بإدماجهم ضمن العملية السياسية وسمح ببث بعض القنوات التليفزيونية والإذاعية باللغة الكردية، مع رفض فكرة أي حكم ذاتي أو جعل اللغة الكردية لغة ثانية، مبررا ذلك بأن " الحضارة التركية لا مجال فيها للعرقية"[31].

المرحلة الثانية : المسألة الكردية في تركيا بعد عام 2011

شهدت العلاقة بين الأكراد وتركيا عقب 2011م اضطرابا وعدم استقرار المقاتلين مع تعثر النظام السوري حيث أصبح التخوف التركي الأبرز هو التعزيز المحتمل لقدرات المقاتلين الأكراد في حزب العمال الكردستاني، وفي هذا السياق ينبعث قلق تركيا من إمكانية قيام النظام السوري بدعم حزب العمال الكردستاني، كشكل من أشكال الانتقام من تركيا وذلك بإعادة فتح قواعد له في سوريا وشن هجمات منها على تركيا[32].

(31) زينب ماهر السيد، " العلاقات التركية –العراقية: دراسة لحالة الأكراد، دراسة بحثية منشورة، المركز الديمقراطي العربي للدراسات الاستراتيجية والسياسية والاقتصادية، بدون تاريخ نشر، تاريخ الدخول: 2017/12/1، للمزيد: http://democraticac.de/?p=1802

(32) زينب ماهر السيد، مرجع سابق .

تم عقد مفاوضات أوسلو بين الطرفين للتعرف على مطالب كل طرف، قبل قطع حزب العمال الكردستاني الهدنة مع الدولة وشن هجوم على أهداف عسكرية تركية، وبالمثل ردت الدولة بمجموعة عمليات عسكرية، وبهذا العنف المتبادل انتهت – فشلت مفاوضات أوسلو. وفي وقت لاحق وافقت الدولة التركية على التفاوض لأسباب عدة منها :

أ- **أسباب داخلية:** [33]

1) مشروع 2023 حيث يهدف إلى إحداث نهضة اقتصادية في تركيا ويتطلب ذلك حل المسألة الكردية.
2) رغبة أردوغان في تغيير نظام الحكم من نظام برلماني إلى نظام رئاسي، وهذا يتطلب تأييد حزب السلام والديمقراطية الكردي، الذي يمثله 77 نائبا في البرلمان.

ب- **أسباب خارجية:** [34]

1) تداعيات مشهد التغيير في العالم العربي فيما يسمى "بثورات الربيع العربي"، وبالتالي إعادة تفكير حزب العمال الكردستاني فيما يتعلق باعتماده الكفاح المسلح نهجا للضغط على الدولة التركية.
2) تداعيات الانتفاضة السورية : حيث انسحب الجيش السوري النظامي 2012م من المناطق التي تقطنها الأغلبية الكردية في المنطقة الشمالية من سوريا المحاذية لتركيا، وخوف تركيا من قيام إقليم كردي على حدودها مع سوريا.

---

(33) معمر فيصل خولي، " المسألة الكردية في تركيا: من الإنكار إلى الاعتراف، " مركز الروابط للبحوث والدراسات الاستراتيجية، بتاريخ: 2014/7/20، تاريخ الدخول (2017/12/2):
http://rawabetcenter .com/archives/106:

(34) كرم سعيد، " أردوغان و الأكراد ... أسباب ومعوقات التسوية، " المستقبل للدراسات والأبحاث المتقدمة، بتاريخ: 18 /2015/3، تاريخ الدخول: 2017/12/6 للمزيد:
http://futureuae.com/ar/Mainpage/Item/743

3) التنافس مع إيران بشأن سوريا حيث قطعت تركيا علاقتها مع النظام السوري ودعمت المعارضة السورية، بالمقابل وقفت إيران إلى جانب النظام السوري وقدمت له الدعم المادي واللوجستي.
4) التحالف مع مسعود بارزاني لمواجهة المالكي : إذ تنظر تركيا للحكومة العراقية على أنها حكومة تابعة لإيران، ومعادية لها .

وفي سبتمبر 2013 م، أعلنت الحكومة التركية عن قيامها بعدة إجراءات منها : السماح بالتعليم باللغات غير التركية، التي من بينها اللغة الكردية، وضمان حق الدعاية الحزبية باللغات غير التركية لتمكين الأحزاب السياسية من الوصول إلى الناخبين، كما أعلن " أردوغان " زيادة العقوبات فيما يتعلق بجرائم الكراهية والتمييز من سنة إلى ثلاث سنوات.

وبعد مفاوضات السلام الداخلي وإعلان الرئيس التركي أنه لا يوجد في تركيا ما يسمى بالمشكلة الكردية حيث أعلن حزب العمال الكردستاني في يوليو 2015، إنهاء الهدنة وعاد إلى تصعيد عمليات استهدفت الجيش وقوات الأمن التركية[35].

ثالثاً : أكراد سوريا

تعد المسألة الكردية في سوريا من أبرز أشكال التحديات الحالية والمستقبلية التي تواجه الدولة والمجتمع السوري، باعتبارها مشكلة تتشابك فيها العوامل التاريخية والديموجرافية، إضافة إلى التفاعلات الدولية والإقليمية المحيطة، حيث تحمل هذه المسألة في طياتها أبعادا عديدة، تتمثل في قوى سياسية أو حزبية تستغل واقع الانتفاضة السورية ومسارها، مبلورة رؤى تقسيمية، تتجاهل حالة الاندماج الوطني والثقافي[36].

(35) سعيد عبد الرزاق، " الأكراد ... مشكلة تركيا المستعصية "، جريدة الشرق الأوسط، بتاريخ: 2016/9/3م، تاريخ الدخول: 2017/12/2م، للمزيد: http://aawsat.com/home/article/729506

(36) فريق باحثين، " مسألة أكراد سوريا –التاريخ –الأسطورة، " المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات، بيروت، 2013 م .

وضع أكراد سوريا خلال عام 2011

في أكتوبر 2011م، جرى اغتيال القائد الكردي "تمو " على يد مجموعة من الملثمين، يعتقد أنهم منتمون لأحد أجهزة النظام، وأثناء تشييع جنازته، قامت قوات الأمن بإطلاق النار على المشيعين وقتلت خمسة أنفار منهم، دفعت هذه الحادثة بعض الأكراد للمشاركة في الانتفاضة الشعبية ضد النظام السوري. وبعد اندلاع الانتفاضة في سوريا، انقسم الأكراد بين مؤيد لها أو غير متعاطف معها، خوفا من رد فعل النظام، في حين بادر الرئيس " بشار الأسد " بفتح الحوار معهم. وعقب اشتعال الانتفاضة السورية وتحديدا في السابع من أبريل 2011، أصدر " بشار الأسد " مرسوما يقضي بمنح الجنسية السورية للأجانب، وهو ما فسره بعض المحللين بأنه محاولة لتحييد الأكراد عن المشاركة في الانتفاضة السورية، فرد رئيس الكتلة الكردية في المجلس الوطني السوري " عبد الباسط سردا " قائلاً : " إن الموقف الكردي كان منذ البداية مع الانتفاضة السورية، لأنهم تضرروا كثيرا من هذا النظام وعانوا من اضطهاد مزدوج في سوريا، كما حرموا من الحقوق وتعرضوا لمختلف المشاريع التمييزية" .

ويواجه الأكراد في سوريا عدة تحديات داخلية وأخرى خارجية، تتمثل في الخلافات القائمة بين مختلف الأحزاب والتيارات السياسية الكردية، ورفض تركيا إقامة كيان كردي مستقل في شمال سوريا[37].

إذا لابد من الإشارة لدور تركيا كطرف أساسي في الصراع الجاري في سوريا، وموقفها العدائي من النظام، ودعمها للمعارضة حيث تراقب تركيا الأحداث في محافظة الحسكة، وعلى طول الحدود التحركات العسكرية لحزب الاتحاد الديمقراطي الكردستاني، وسعيه لتشكيل حكومة محلية، فأقامت وحدات عسكرية في المناطق التركية المقابلة للقامشلي وعامودا وعرن عرب.

(37) مروان سليمان، " التحديات التي يواجهها الكرد في سوريا، " المركز الإعلامي لحزب يكتى الكردي في سوريا، يكتى مرديا، بتاريخ: 2015/2/6، تاريخ الدخول: 2017/12/11 للمزيد: http://ara.yekiti-media.org

توجه أكراد العراق إلى صناديق الاقتراع للاختيار بين إعلان الاستقلال والبقاء ضمن العراق في إطار استفتاء غير رسمي جرى في يناير 2005. وفي حين لم يسفر التصويت بالإجماع تقريبا عن أي خطوات انفصالية فعلية، إلا أنه منح المفاوضين الأكراد يدا قوية في بغداد لتأمين حقوق وصلاحيات أصبحت محفوظة لهم في الدستور العراقي.

وبعد فوز حزب "مسعود البارزاني" رئيس إقليم كردستان بالانتخابات البرلمانية أعلن عن إجراء استفتاء حول الانفصال عن دولة العراق وذلك خلال عام 2017. وقد واجه إجراء استفتاء الانفصال معارضة شديدة في الداخل الكردي، حيث تعرض الإجماع الحزبي في كردستان بشأن الاستفتاء إلى ضربة كبيرة، مع دعوة البارزاني إلى اجتماع لتحديد موعده وذلك عندما قاطعته الحركة العالمنية التي تتمتع بشعبية كبيرة في الإقليم، وأخرى إسلامية، تعد من مراكز النفوذ السياسي التقليدية في الأوساط الكردية، حيث أعلنت حركة التغيير والجماعة الإسلامية مقاطعتهما له. ويملك هذان الحزبان 30 مقعدا في برلمان الإقليم المكون من 111 مقعدا، في حين يملكان 10 مقاعد في البرلمان الاتحادي المكون من 325 نائبا.

وبوصفها القوة البرلمانية الثانية في البرلمان الكردي، بعد كتلة الحزب الديمقراطي الكردستاني، حصلت حركة التغيير على منصب رئيس برلمان الإقليم، لكن الخلافات مع البارزاني عطلت البرلمان وأدت إلى منع رئيسه من الوصول إلى مقر انعقاد جلساته في أربيل، العاصمة السياسية للإقليم.

ولم تثن مقاطعة التغيير والجماعة الإسلامية، البارزاني عن عقد اجتماع مع الأحزاب الكردية لبحث موعد الاستفتاء. واتفق المجتمعون على الخامس والعشرين من سبتمبر من عام 2017 موعدا له، ولكنهم اتفقوا أيضا على إجراء الانتخابات البرلمانية والانتخابات الرئاسية في السادس من نوفمبر المقبل، واتفق المجتمعون على ضرورة

العمل على تفعيل البرلمان وحل الخلافات السياسية. لكن حركة التغيير رأت أن الاستفتاء الذي يخطط البارزاني لإجرائه هو " مشروع حزبي وغير قانوني" .

وجاءت الانتقادات الأشد لحزب "البارزاني" بشأن الاستفتاء من شريكه الأكبر في الإقليم ، وهو حزب الاتحاد الوطني الكردستاني بزعامة رئيس العراق السابق جلال الطالباني، وذلك من خلال انتقاد الطالباني اتصال البارزاني برئيس الوزراء العراقي حيدر العبادي بعيد الإعلان عن موعد الاستفتاء بكردستان، " ليؤكد له على وحدة العراق "، كما صرحت النائبة آلاء الطالباني، رئيسة كتلة الاتحاد الوطني في البرلمان الاتحادي، أن البارزاني " يمارس سياسة التمويه والاستغفال للشعب الكردي في مسألة الاستفتاء بالإقليم" .

كما عارض الاستفتاء كل من ائتلاف متحدون بزعامة أسامة النجيفي والجبهة التركمانية بزعامة حسن توران اللذين يتشاركان في رفضهما ربط مصير مدينة كركوك التي يسكنها خليط متنوع من الأعراق والغنية بالنفط بمصير إقليم كردستان، وكذلك الأحزاب السنية الأخرى التي يصطلح على تسمية أعضائها ب " سنة المالكي "، بسبب علاقتهم الوثيقة بزعيم ائتلاف دولة القانون رئيس الوزراء السابق نوري المالكي، فأعلنت رفضا صريحا لاستفتاء الاستقلال، معتبرة إياه مقدمة لتقسيم العراق.

الجدل الإقليمي والدولي حول الاستفتاء

أثار الاستفتاء على استقلال إقليم كردستان عن العراق العديد من ردود الأفعال المتباينة على الصعيدين الإقليمي والدولي.

أ- على الصعيد الإقليمي

بالنسبة للجانب الإيراني: تعد طهران هي المعارض الرئيسي للانفصال، اعتقادا أن قيام دولة كردية مستقلة على حدودها قد يضعف العراق بقيادة الشيعة، ويزيد من وضع المعارضة الكردية في إيران، ويصبح فرصة للأنشطة الأمريكية والإسرائيلية ضد

الجمهورية الإسلامية، غير أنه على غرار بغداد، قد تكون طهران أكثر تقبلاً لإجراء استفتاء يستثني الأراضي المتنازع عليها، ومن شأن هذا الاستثناء أن يقلل من أعذار الميليشيات الشيعية لاتخاذ إجراءات ضد حكومة إقليم كردستان.

ولذلك فمع إجراء الاستفتاء الكردي اتخذت إيران عدة قرارات أبرزها، في يوم الاثنين الموافق 2 أكتوبر /تشرين الأول 2017، تم نقل 12 دبابة إيرانية إلى نقطة بارفيز خان الحدودية بين إيران وإقليم كردستان العراق. وزعمت طهران أن عرض القوة هو جزء من التدريبات العسكرية المشتركة التي تجري بين القوات العسكرية الإيرانية والعراقية، إلا أنه في واقع الأمر كان بمثابة تحذير مفتوح لحكومة إقليم كردستان بعد أن أجرت استفتاء يوم 25 سبتمبر للمطالبة بالاستقلال عن العراق، كما اتخذت أيضا في 30 سبتمبر / أيلول قرارا بوقف الرحلات الجوية من إيران إلى المطارين الرئيسيين في كردستان العراق، كما التقى المسؤولون الإيرانيون نظراءهم الأتراك والعراقيين على ما يقال باتخاذ بعض التدابير المشتركة مثل العقوبات التجارية وزيادة التعاون العسكري ضد الكردية في شمال العراق[38].

بالنسبة للجانب التركي تصاعدت مؤخرا حدة الخطابات التركية الرافضة للطموحات القومية الكردية، ومن خلل هذه المعارضة أدرك الأكراد أن الرئيس رجب طيب أردوغان وغيره من القادة الأتراك اتخذوا هذا الموقف عموما من أجل كسب الأصوات المناهضة للقومية الكردية خلال استفتائهم الدستوري، وتتمتع أنقرة وحكومة إقليم كردستان بعلاقات وطيدة في مجالات الاقتصاد والطاقة والأمن تجعل حصول الأكراد على الحكم الذاتي أقل تهديدا.

إلا أنه مع إعلان الاستفتاء الكردي أعربت تركيا عن إدانتها بصوت عال وواضح، حيث من المتوقع أيضا أن يكون هذا الاستفتاء نقطة انطلاق لمحاولة أكثر طموحا لإنشاء دولة كردية أكبر بالانضمام إلى الأكراد من تركيا وإيران وسوريا، وهو ما أظهر

(38) المرجع السابق ذكره .

المخاوف التركية خوفا من أن يحرض هذا الاستفتاء على الانفصالية الكردية داخل حدودها. وقد كلف البرلمان التركي بنشر قوات على طول الحدود العراقية حيث يشكل الاستفتاء الكردي العراقي تهديدا مباشرا لمصالح تركيا الأمنية الوطنية[39].

ب- على الصعيد الدولي

بالنسبة للجانب الأمريكي : جدد وزير الخارجية الأمريكي تيلرسون موقف بلاده بعدم تأييد الاستفتاء في إقليم كردستان حول الانفصال، وذلك في اتصال هاتفي مع رئيس الوزراء العراقي حيدر العبادي، ذلك في الوقت الذي أصر فيه رئيس الإقليم الكردي في العراق مسعود بارزاني على إجراء الاستفتاء، وذلك من خلال إعلانه أنه لن يعترف ولا يؤيد أي تحرك إلى تقسيم العراق.

أما الدول الغربية ضمن الاتحاد الأوروبي فقد أبدت نوعا من التخوف من هذا الاستفتاء ، إلا أنها لم تتخذ موقفا حازما أسوة بكل من إيران وتركيا اللذين أعلنا رفضهما خطوة الاستفتاء، بل اعتبرتاه نوعا من التصعيد الكردي الذي سيواجه بقوة.

وبالنسبة للجانب الروسي : قال وزير الخارجية الروسي سيرغي لافروف إن موسكو تأمل في أن تأخذ أربيل في الحسبان كل العواقب المحتملة لنتائج استفتاء الاستقلال لدى ترجمته إلى أرض الواقع.

وأكد على أنه تعبير عن تطلعات الشعب الكردي، وأنه يحظى بدعم أغلب سكان الإقليم، وتابع نأمل أن يؤخذ في الحساب عند اتخاذ القرارات النهائية ما يترتب على هذه الخطوة من نتائج سياسية، وجيوسياسية، وديموغرافية واقتصادية، من مبدأ أن المسألة الكردية تتجاوز حدود العراق الحالية، وتؤثر في أوضاع عدد من الدول الجوار، وللمسألة الكردية دور كبير ومكانة بارزة في إطار عملية تسوية الأزمات القائمة في المنطقة حاليا.

(39) المرجع السابق ذكره .

ويبدو جليا أن أغلب المواقف ومن ضمنها مواقف الدول الكبرى، هي مواقف مترددة بين الحين والآخر، وحتى إدارة الرئيس الأمريكي السابق أوباما كانت مترددة في الموضوع الكردي كما هو الوضع الآن مع إدارة الرئيس ترامب، فنرى أن للأمريكان علاقات جيدة مع الكرد ويحاولون خلق تحالفات مع المجموعات الكردية ويقومون بدعمها في مرحلة معينة، وعندما ضغط الموقف التركي بالرفض للاستفتاء أوضح الجانب الأمريكي أنه سوف يسحب الأسلحة من الأكراد، ثم يدعي الجانب الأمريكي مرة أخرى أن الاستفتاء الكردي لا يستند على أسس دستورية إلا إذا كان هناك توافق مع الحكومة العراقية. ومن ثم يتضح بأن الاستفتاء لن يؤدي إلى الاستقلال، على الرغم من حملة اللوبي الأمريكي والأوروبي، حيث أخفقت حكومة إقليم كردستان في كسب الدعم الرسمي للاستفتاء أو للانفصال الكردي من جانب الفرقاء المحليين والإقليميين والدوليين الأساسيين، قد تؤكد الحكومات والمؤسسات حق الأكراد في تقرير المصير، شأنهم في ذلك شأن جميع شعوب العالم، ولا تنكر بالمساهمات المهمة التي قدمتها البشمركة الكردية في المعركة ضد تنظيم الدولة الإسلامية، لكنها تبقى متمسكة بوحدة الأراضي العراقية وسيادة الدولة، حتى يستمر الدعم المقدم من واشنطن للقوات البيشمركية كما جاء في قرارات الكونجرس الأمريكي.

رؤية مستقبلية

لا مراء أن وجود الأقليات غير العربية في بلدان الوطن العربي ومن بينها الأقلية الكردية كانت محركا رئيسيا للعديد من الصراعات في تلك البلدان، كونها حقيقة اجتماعية تتصل بظواهر سياسية عديدة منها، الأمن والاستقرار السياسي.

الأقلية الكردية منذ تبنيها فكرة حق كل شعب في تقرير مصيره أواخر التاسع عشر، كانت حريصة على إدماج تلك الفكرة في أطر تعاملاتها مع العالم الخارجي أو بالأحرى مع النظم العربية القائمة، مما جعل عملية انخراطها في الواقع العربي عملية عسيرة، خاصة بعد أن أصبح المحور الأمني محورا رئيسيا في العلاقة بينهم. وتحددت قوة

ارتباطها بتلك الفكرة وفق مجموعة عوامل ذاتية تتعلق بطبيعة النظام السياسي القائم، وأخرى موضوعية تنصرف إلى التطورات الإقليمية والعالمية الحادثة.

ومع اندلاع الانتفاضات والثورات الشعبية في العديد من البلدان العربية، تعززت فرص الأكراد في تبني وتحقيق الفكرة على أرض الواقع أكثر من أي وقت مضى، فبدا للأكراد في الآونة الأخيرة دور مؤثر في الأمن القومي والاستقرار السياسي العربي، على نحو الصراع الميداني ضد تنظيم الدولة الإسلامية فيما يسمى "بتنظيم داعش" في الداخل السوري والعراقي، أو التحالف مع قوى دولية وإقليمية طامعة، أو حتى بالصراع الداخلي على الزعامة الكردية، وما قد ينبني على كل ذلك من ارتفاع في مستويات ومساحات الصراع في المنطقة، ويحفظ في الأخير فرص الصراع قائمة.

وعليه فإنه من غير المرجح أن يؤدي استفتاء أحادي يفتقر إلى الدعم الداخلي العراقي، إلى تغيير الوضع القائم في العراق، حتى لو حصلت حكومة إقليم كردستان على تصويت بنعم على الاستفتاء في الأراضي المتنازع عليها، ستبقى السلطة مفروضة بحكم الأمر الواقع من دون اعتراف رسمي أو دعم مالي متزايد من بغداد نفسها. كما أن غياب التسوية عن طريق التفاوض بين حكومة إقليم كردستان وبغداد، بموافقة من البرلمان العراقي، سيجعل مطالب حكومة إقليم كردستان في ما يتعلق بالسيطرة على الصادرات والإيرادات النفطية معرضا للقيود القانونية هذا فضلاً عن أن الاستفتاء لا يغير الجغرافيا السياسية، فسيبقى إقليم كردستان محاصرا بالأراضي من دون منفذ إلى البحر، وسوف يظل رهن النوايا التركية في الجزء الأكبر من صادراته النفطية، ومن ثم سيتضح بأنه ليس من المجدي دعم استفتاء كردي في هذه المرحلة، بل ينبغي الإبقاء على تقديم الدعم لحكومة إقليم كردستان باشتراط أن تكون جزءا لا يتجزأ من الدولة العراقية وتمرير الدعم إليها عن طريق بغداد.

وعلى الجانب الآخر، فإن قضايا الأقليات كانت ولا زالت نقطة حساسة في غير صالح النظم العربية، إذ توظفها القوى الخارجية والإقليمية لتحقيق أهدافها في إضعاف تلك النظم، كاستغلال إيران لأكراد العراق لإضعاف النظام العراقي، واستغلال الولايات

المتحدة الأمريكية لأكراد العراق لتمكين الغزو الأمريكي للعراق 2003. واليوم باتت الخيارات العربية في أضيق الحدود، لا تسمح بتغافل القضية أو مواجهتها بالقوة كما كان سابقا، لذا ضروري بالنسبة للنظم العربية أن تبحث عن حلول واقعية بعيدة عن صراع الأيديولوجيات خصوصا في الوقت الراهن .

مـع ذوبـان الـجـلـيـد
صراع بارد بين القوى الكبرى في القطب الشمالي

حسني عبد الحافظ

باحث وكاتب مصري

شـهدت السـنوات القليلـة الماضـية، صراعـا بـاردا، بـين القـوى الكُبـرى، فـي منطقـة القطـب الشـمالي، وقـد تصـاعد هذا الصـراع، مـع ذوبـان قِمم الجليد، نتيجـة تفـاقم ظـاهرة الاحترار العالمي، واكتشاف المزيد من الثروات الطبيعية، وكمِّيات ضـخمة من المصـادر المُتنوِّعـة للطاقـة، إلـى جانـب البدء فـي شـق طريـق تجـاري جديد، يـربط الشـرق بـالغرب. والحقيقـة أن الصـراع لـم يعد قاصـرا علـى الدِول التـي لهـا إطـلالات مُباشـرة علـى القطـب الشـمالي، بـل دخلـت فيـه دول أُخـرى، تبحـث عـن مصـالح لهـا فـي هـذه المنطقـة، ذات الطبيعة الإستراتيجية الهامة، والتي تتكشف أهميتها يومًا بعد آخر.

فماذا عن منطقة القطب الشمالي..؟ وما هي دوافع وأبعاد الصراع القائم بين الدول الكبرى، في هذه المنطقة الإستراتيجية من العالم..؟

نظرة في جُغرافية المنطقة

بـادئ ذي بـدء، فـإن منطقـة القطـب الشـمالي، مـن المنظـور الجُغرافـي، هـي أعلـى منطقة بـالكُرة الأرضـية، علـى محـور دورانهـا، وفـي القلـب منهـا المُحيط المُتجمِّد الشـمالي،

الذي يشغل مُعظم مساحة الدائرة القطبية الشمالية، التي تقع على تماس مع خمس دول[1]، من ثلاث قارات، هي:

- النرويج، والدانمارك، من قارة أوروبا .
- روسيا، من قارة آسيا .
- كندا، والولايات المتحدة الأمريكية، من قارة أمريكا الشمالية.

وعبر مضيق بهرنغ، يتواصل القطب الشمالي بالمحيط الهادي، كما يتصَّل مع المحيط الأطلنطي، عبر بحر الشمال، في أوروبا.. وتاريخيا، بدأ تمدد بعض جماعات الإسكيمو[2] . مُنذ أواخر القرن الثامن عشر . في مناطق من سيبريا، إلى أن وصلوا حتى أقصاها، على المحيط الهادي، من ناحية الشرق، ومن ثم عبر بعضهم مضيق بهرنغ، ووصلوا إلى ألاسكا، في أمريكا الشمالية، واستعمروها.. مع ضرورة الإشارة، إلى أن ألاسكا، هي ولاية أمريكية، حيث اشترتها حكومة الولايات المتحدة الأمريكية، من القيصر الروسي، في العام 1867م[3]، بمبلغ سبعة ملايين ومائتي ألف دولار..!!

ذوبان القمم.. وكاسحات الجليد

وكانت مناطق عديدة، في القطب الشمالي، قد تعرَّضت خِلال السنوات القليلة الماضية،

---

(1) بوزيان، عقيد ركن ناجي: إستراتيجية الصراع على القطب الشمالي . دورية الدفاع الوطني اللبناني . ص 50 . فصلية مُحكِمة . العدد الثامن والتسعون . تشرين الأوَّل 2016م.

(2)الخوند، مسعود: الموسوعة التاريخية الجغرافية . المجلد الثامن . ص 130. الناشر دار رواد النهضة . بيروت 1994م.. والخطيب، أحمد شفيق: المنطقتان القطبيتان . ص20 . الناشر مكتبة لبنان . الطبعة الأولى . بيروت1999م

(3) موسوعة ويكيبديا العربية، على الرابط:

https://ar.wikipedia.org/wiki/%D8%A3%D9%84%D8%A7%D8%B3%D9%83%D8%A7

إلى ذوبان قِمم الجليد فيها، على خلفيَّة تفاقم ظاهرة الاحترار العالمي، التي ضربت الغُلاف الجوي، على نحو غير مسبوق عبر التاريخ. حيث تُشير الوقائع، إلى أن القطب الشمالي، فَقَد خِلال العقود الثلاثة الماضية فقط، أكثر من نِصف مساحته، المُغطَّاة بالجليد، وأن ثمة أجزاء عديدة، مازالت تتراجع على نحو مُتسارع، بعد اختفاء قِممها، بل وقد ظهرت ممرَّات مائية أكثر قابلية للاستمرار، في ظِل ارتفاع درجات الحرارة[4]، حيث سُجِّل أعلاها بنحو 5 درجات مئوية، خلال شهر سبتمبر، وأصبح أكثر من 2.5 مليون كيلو متر مربع، من المحيط المتجمد الشمالي، مفتوحا، ومُعرضا لحرارة الشمس، في أغلب أوقات فصل الصيف.. وكان تقرير، صادر عن لجنة الأمم المتحدة للمناخ، قد أورد: " أن المُحيط القُطبي الشمالي، سيُصبح قابلاً للملاحة، في شهر سبتمبر، من كُل عام، بحُلول مُنتصف القرن الحالي، وسيختفي الجليد تماما، مع نهاية القرن، وِفقا لمُعطيات الرصد والتصوير، التي تُقدِّمها الأقمار الاصطناعية"[5].

وعلى خلفيَّة هذا الاستنزاف المُستمِر لطبقات الجليد، بدأ ما يُمكن أن نُسميه "حرب كاسحات الجليد"، حيث تتنافس الدِول المُحيطة بالقطب الشمالي، في تصنيع كاسحات جليدية، ظهر منها بالفِعل ما يُدار بالطاقة النووية، وذلك من أجل الوصول إلى مكامن الثروات الطبيعة، والحصول على أكبر قدر منها.. وكانت روسيا، قد أعلنت مؤخرًا، عن بناء 11 كاسحة جليد جديدة، سوف تُضاف إلى أسطولها الحالي من كاسحات الجليد، والذي يضم نحو 40 كاسحة، في مُقدِّمتها كاسحة الجليد المُسماة "روسيا"، والتي تعمل بالطاقة النووية[6]، ومن جانبه أعلن الناطق باسم الحكومة الكندية، أن بلاده لديها خِطَّة،

(4)ويد، روزالين: الجليد الحياة في البرد القارس . ترجمة/عبد الرحيم، جمال . ص 57 . الناشر وزارة الثقافة . الطبعة الأولى . الرياض1435هـ/2014م.

(5)اغلستون، سيمون (وآخرون): التقرير العالمي لحصر غازات الاحتباس الحراري وتغيير المناخ . وثائق الهيئة الحكومية الدولية المعنية بتغير المناخ(IPCC).

(6) نقلاً عن موقع/ https://arabic.rt.com/videoclub/1021723

لإنفاق 3.8 مليار دولار، لبناء ثماني كاسحات جليد حربية، كما أن " لدينا دراسة لإقامة ميناء بحري تُجاري، بالقُرب من جزيرة هانز"، التي تقع على الممر الشمالي الغربي للقطب. وفي واشنطن، أُعلِن أن الولايات المتحدة الأمريكية، بحاجة إلى مزيد من كاسحات الثلوج، وبحسب غير واحد من خُبراء التسليح ، فإن عمل كاسحات الجليد بالطاقة النووية، يزيد من استمراريتها في العمل، دون حاجتها للتزوُّد بالوقود، كما أنها أكثر قُدرة من الكاسحات التقليدية، على إنتاج قوَّة الدفع، اللازمة لشق الجليد الذي يصل سماكته إلى عشرة أقدام، لفترة طويلة من الزمن، وفي الوقت الحالي تمتلك الولايات المتحدة الأمريكية اثنين فقط من كاسحات الجليد، أكثرها نشاطا كاسحة الجليد "بولار ستار"[7]، المملوكة لخفر السواحل.

ولم تكن الصين غائبة عن المشهد التنافسي، حيث أعلنت إرسال واحدة من أكبر كاسحات الجليد في العالم، وتُدعى "سيوإيلون"، أو التنين الجليدي، والتي كانت قد صُنعت في أوكرانيا، إبان الحِقبة السوفيتية، وذلك من أجل أن يكون لها موطئ قدم، في هذه المنطقة الباردة، التي تزداد سُخونة، على وقع الصراعات المُتصاعدة.

ثروات هائلة

وحتى عقود قليلة خلت، لم يكن أحد من أهل السياسة والاقتصاد، يهتم كثيرا بهذه المنطقة النائية من العالم، والتي يصعب استيطانها للظروف البيئية والمناخية القاسية، وكان الأمر قاصرا فقط على إرسال البعثات العِلميَّة الاستكشافية، بين الحين والآخر، وكان يُعَد لهذه البعثات، كما لو كانت ذاهبة لاكتشاف كوكب آخر..!! إلاَّ أن اكتشاف بعض المكامن للثروات الهائلة، التي يحتويها القطب الشمالي، أفضى إلى اهتمام عالمي كبير، خاصة من قِبل القوى الكُبرى، وفي مُقدِّمتها الدِول الخمس المُطلَّة عليه.

(7) نقلاً عن موقع/ https://ara.reuters.com/article/internetNews/idARAKBN0LH0

وفي نِقاط مُحددة، يُمكن إبراز أهم الثروات، التي يُقدَّر وجودها في القطب الشمالي ، باحتياطيات مُعتبرة :

أوَّلا: النفط : كان تقرير صادر عن دائرة المسح الجيولوجي الأمريكية، في العام 2000م، قد أشار إلى أن الاحتياطات النفطية، في القطب الشمالي، تُقدَّر بنحو 15% ، من إجمالي الاحتياطات العالمية، إلاَّ أن تقارير صدرت بعد ذلك، أشارت إلى أن الاحتياطات النفطية القطبية، أكثر من هذه النِسبة، حيث ورد في تقرير صادر عام 2015م، شارك بإعداده فريق عِلمي، من جامعة ستانفورد الأمريكية، أن النِسبة تزيد عن الـ 20%، وبحسب تقديرات شِل، فإن "مياه القطب الشمالي، تتوفر على إمكانيات كبيرة من النفط، وأن أحواض القطب الشمالي مُجتمِعة، يُمكن أن توفِّر نحو 25%، من مصادر طاقة العالم".

ثانيـًا: الغاز الطبيعي: بحسب تقديرات إدارة معلومات الطاقة الأمريكية، فإن نحو 30%، من الغاز الطبيعي المُتبقِّي على الأرض، يكمن في القطب الشمالي[8].. وحتى نهاية العام 2013م، كان المُعلَن من اكتشافات حقول النفط والغاز الطبيعي معًا، على النحو التالي :

- 43 حقلا، مُكتَشفا من قِبل روسيا.
- 11 حقلا، مُكتَشفا من قِبل الولايات المتحدة الأمريكية.
- 6 حقول، مُكتَشفة من قِبل كندا .
- حقل واحد، مُكتَشف من قِبل النرويج.

ثالثا: ثروات معدنية مُتنوِّعة: اكتُشف بعض مكامنها، في عِدة مناطق من الجرف القاري، وتشتمل على احتياطات مُعتَبرة من النيكل، والكوبالت، والنحاس،

(8)عبدالعزيز، أيمن: ثروات القطب الشمالي.. وبوادر مواجهة جديدة بين أمريكا وروسيا . صحيفة الأهرام القاهرية . الثلاثاء 15من صفر 1438 هـ . 15نوفمبر 2016 السنة 141 العدد 47461.

والقصدير، إلى جانب تقديرات مُتفاوتة من معادن نفيسة، مثل الذهب، والماس، والبلاتين.

وكانت روسيا، قد أعلنت أن المناطق التابعة لها، "تؤمِّن حاليا نِسبة 11% من الدخل القومي الروسي، وتمثل نحو 22% من إجمالي الصادرات الروسية، وأن المُستخرَج من هذه المناطق، نحو 96% من البلاتين الروسي، ونحو 90% من النيكل والكوبالت، ونحو 60% من النحاس الروسي"[9]، وهذه الأرقام تُفضي إلى مدى أهمية القطب الشمالي، كمخزن كبير للمعادن.

رابعا: ثروة سمكية : حيث إن البُحيرات القطبية، بها أنواع عديدة من الأسماك، التي تُمثل ثروة كبيرة غير مُستغلة، لوجود الجليد[10]، ومع تغيُّر الأحوال الجوية، وذوبان قِمم الجليد، وارتفاع درجات الحرارة . كما أسلفنا . ستُهاجر أنواع جديدة من الأسماك، ومن ثم تزداد أعدادها بشكل غير مسبوق، خاصة في المناطق الدولية المفتوحة.

طريق التجارة الدولية في القطب الشمالي

واستِغلالاً للمُتغيِّرات، التي طرأت على منطقة القطب الشمالي، بدأ تشغيل خط ملاحي بحري جديد، للتجارة بين الشرق والغرب[11]، والذي تتقلَّص فيه المسافة بشكل كبير، حيث يُقدَّر طوله بنحو 3 آلاف ميل، من كوريا الجنوبية، مرورا بالموانئ الشمالية الشرقية للصين، ثم مرورا بساحل روسيا الشمالي، وصولاً إلى أوروبا، وتقِل التكلفة بنحو

(9) نقلاً عن موقع RT الروسي / https://arabic.rt.com/business/870699

(10) رياض، محمد (وآخر): الجغرافيا الاقتصادية وجغرافيا الإنتاج الحيوي . ص 97 . الناشر مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة . القاهرة 2012م.. والخطيب: سابق . ص15 .

(11) نقلاً عن موقع/ http://www.bbc.com/arabic/45281637

30% (مُقارنة بالطريق الملاحي عبر قناة السويس)، ويقِل الوقت إلى 13 يوما (مُقارنة برِحلة شحن من ميناء بوسان الصيني، إلى ميناء روتردام الهولندي، عبر قناة السويس).كما أنه يُعد مَعبرا بين المُحيطين الهادي والأطلنطي، يتواصل فيه الشحن دوليا، بين ثلاث قارات (آسيا، وأوروبا، وأمريكا الشمالية).

وكان العام 2007م، قد شهد التحرُر من مُعظم الجليد، للدِرب الشمالي الغربي، الذي يمر بالتخوم الشمالية، لأرض بافين، ثم بمضايق لانكستر، وبارو، وفاينكاوتملفيل، ثم ببحر بوفورت، ومضيق بهرنغ، والمُحيط الهادي.. جدير بالإشارة، فإن العام 2009م، وتحديدًا في شهر سبتمبر، عَبَر هذا الطريق الملاحي 5 سُفن تُجارية، منها سفينتا شحن ألمانيتان، قفَز العدد إلى 71 سفينة في العام 2013م، وكانت الصين قد أرسلت في الثامن من أغسطس عام 2013م، سفينة تُجارية، حُمولتها 19 ألف طن، من ميناء دليان، عبرت الطريق الشمالي، إلى أن وصلت ميناء روتردام ..وكانت سُفن نرويجية، قد بدأت في استخدام طريق الشمال، لنقل شُحنات غاز مُسال، إلى كوريا الجنوبية، منها الناقلة العِملاقة كريستوف دو مارجري، التي تتميَّز بقُدرتها على كسح الجليد ذاتيًا، من دون الحاجة إلى مُعدَّات إضافية، وبحسب الشركة المالكة، فإن رحلة نقل الغاز المُسال، استغرقت 19 يوما فقط، للوصول إلى كوريا الجنوبية.. وفي سبتمبر من عام 2016م، أعلنت كريستال كروز[12]، عن أوَّل رِحلة سياحية لها، عبر طريق الشمال القطبي، وذلك بانطلاق سفينتها الكبيرة والفاخرة، "كريستال سنبرتي"، التي تزيد حمولتها عن ألف راكب.

وبتعدُد وتنوُّع الرحلات، المارة عبر طريق الشمال الملاحي، بدأ البعض يطرح سؤالاً مفاده: هل ثمة تداعيات وتأثيرات مُحتملة على طريق قناة السويس..؟! للإجابة عن هذا السؤال، نُشير إلى أن هناك عوامل بعينها، من شأنها تحديد مدى قُدرة الطريق الجديد، على مُنافسة قناة السويس، يُمكن إيجازها في النقاط التالية:

(12) نقلاً عن موقع https://www.motorshow.me/news-details/6641/

أوّلاً: كثافة العبور: حيث إنه على أرض الواقع، ما تزال أعداد السُفن المارة بالطريق القطبي قليلة . بل قليلة جدًا . قياسًا بالسُفن التي تمر بقناة السويس[13]، خُذ مثالاً: في العام 2011م، مر بالطريق القطبي 34 سفينة، بينما مر بقناة السويس أكثر من 18 ألف سفينة، مِثال آخر: في العام 2013م، مرَّ بالطريق القطبي 71 سفينة، بينما ظلَّ عدد السفن المارة عبر قناة السويس، بنفس المُعدَّل تقريبًا.

ثانيا: الظروف المناخية: حيث إن الطريق القطبي . حتى الآن على الأقل . مازال يُعد طريقًا موسميًا، وتحديدًا خِلال شهري أغسطس وسبتمبر، بينما يصعب عبوره باقي العام، حيث يتطلَّب الأمر وجود كاسحة جليد، مُرافقة للسُفن العابرة، وذلك لإزالة الكُتل الجليدية.

ثالثا: الجدوى الاقتصادية: حيث إنه إذا تعطلَّت سفينة شحن في الجليد، فإنها ستكون بحاجة إلى المدد، الذي يتمثل في استدعاء كاسحة جليد، يصل مبلغ تأجيرها إلى نحو 400 ألف دولار، ناهيك عن نفقات التأمين المُرتفعة.

رابعا: الصراع الدولي: حيث إن الصراعات المُتأججة، للهيمنة على القطب الشمالي، لا شك أنها تؤثر على مُعدَّلات عبور السفن.

وفي ضوء هذه العوامل والمؤثرات، فإن المُقارنة حول التنافسية بين طريق الشمال القطبي من جهة، ومعابر الملاحة البحرية الدولية التقليدية، مثل قناة السويس وقناة بنما من جهة أُخرى، تُصبح غير واردة –على الأقل في الوقت الحالي– وإن كانت المُنافسة واردة في المُستقبل، حيث أورد تقرير لجنة الأمم المتحدة للمناخ، أن إمكانية إدامة العبور، في طريق القطب الشمالي، رُبما تتحقق مع انتصاف القرن الحالي، في ظل الذوبان المُستمر للقمم والكُتل الجليدية.

(13) دراسة للكاتب (حسني عبد الحافظ): مبادرة الحزام والطريق.. نحو نظام عالمي جديد.

صِراع مُتصاعد

ولأهميَّته الاقتصادية والإستراتيجية، فإن القطب الشمالي، يشهد صِراعا، تتصاعد وتيرته، بين القوى الكُبرى، التي تسعى كُل منها إلى الحصول على نصيبها من ثرواته، وإذا كانت الدِول الخمس، المُطلَّة عليه بشكل مُباشر، هي التي تقع في صدارة مشهد الصراع، إلاَّ أن دولا أُخرى، بدأت تدخل على الخط، مُبرِرة ذلك بأن القانون الدولي يسمح لها بالبحث عن مصالحها في المياه المفتوحة.. وفيما يلي مواقف الدول المُتصارعة، والتي تبحث عن مصالح لها، في القطب الشمالي:

الموقف الروسي، وعسكرة القطب الشمالي

تُعد روسيا، بحُكم موقعها، وامتداد حدودها الشمالية، المُتاخمة للقطب الشمالي، على مسافة أكثر من ثلاثة آلاف ميل، اللاعب الأكبر في هذه المنطقة، وتسعى إلى تحقيق أكبر قَدَر من الاستفادة، بتوسيع أنشطتها المُتنوِّعة، حيث ترى فيها مُستقبلاً واعدا.. يقول ألكسندر جولتس، الخبير في الشؤون الإستراتيجية: إن المنطقة القطبية، تبدو مِثل المُعجزة، ومكان ينطلق منه ازدهار الأجيال الروسية القادمة، وهي ليست منطقة مصالح اقتصادية كبيرة فحسب، بل وجُزء رئيس من أجزاء القوَّة الدفاعية".

ويمكن اعتبار لحظة رفع العلم الروسي، على إحدى مناطق الدائرة القطبية، خلال العام 2007م، البداية الحقيقية لإشعال فتيل النزاع بين القوى الكُبرى[14]، في القطب الشمالي، حيث زادت حِدَّة التصريحات، والتصريحات المُضادة، ووصلت الأمور إلى سباق لعسكرة المنطقة.

وكانت روسيا قد شرعت ببناء المزيد من القواعد العسكرية، إلى جانب تجديد وتوسعة القائم منها بالفِعل، مع تشكيل وحدات عسكرية دائمة جديدة، مِثل مركز القيادة

(14)عن موقع / http://www.anntv.tv/new/showsubject.aspx?id=116696

الإستراتيجية المُشتركة في القطب الشمالي، القريب من مدينة سيفبرومورسك، الواقعة في أقصى حدود روسيا، من ناحية الشمال الغربي.. وفي العام 2015م، بدأت وحدات من القوَّات الجوية، والبحرية الروسية، العمل تحت إدارة هذا المركز، إلى جانب إقامة شبكة من رادارات الإنذار المُبكِّر، في أقصى المنطقة الشمالية[15]، وتم نشر صواريخ مُضادة للطائرات، من طراز تريومف S400، بالقُرب من أرخبيل نوفايازيمليا، وكذا بطَّاريات من راجمات الصواريخ، والقذائف المُضادة للطائرات (بانتسير S1).

وبدأ الروس العمل في تجديد مطار تيمب Temp العسكري، ونقل طائرات مروحية من طرازي M8 و M26..وإلى جانب أسطولها الأكبر في العالم، من كاسحات الجليد، والذي يعمل منه حاليا – بالطاقة النووية – سبع كاسحات، فإن روسيا في سبيلها لبناء 11 كاسحة جليد جديدة، منها 8 كاسحات نووية، خِلال العِقدين القادمين، لتعزيز وجودها، وسيطرتها على المناطق القطبية، التي ترى أحقيتها بها.. وبحسب قائد سلاح البحرية، الأميرال فيكتور تشيركوف، فإن قيادة روسيا، عازمة بقوَّة على الاستمرار في تواجدها بالقطب الشمالي، للحِفاظ على مصالحها الإستراتيجية[16]، وأن ثمة قمرين صناعيين، أُطلِقا بالفِعل، بهدف رصد كُل صغيرة وكبيرة، وأي مُتغيِّرات تطرأ في القطب الشمالي.

ويُشير غير واحد من خُبراء الإستراتيجية، إلى أن التجهيزات العسكرية الروسية، في القطب الشمالي، تُعد بمثابة " تشكيل جيش مُتكامل، يمتلك مُقوِّمات العمل، في هذه المنطقة الاستثنائية . من حيث البيئة والمناخ . مدعوم من أسطول الشمال الروسي، حيث تترابط وحدات من القوَّات الإلكترونية، وصواريخ الدفاع الجوي المُحدَّثة".

---

(15)عن موقع / https://www.spa.gov.sa/viewstory.php?newsid=1173284

(16) الخوري، لور: لا تزعجوا روسيا في القطب الشمالي . صحيفة الأخبار اللبنانية الاثنين29 كانون الأول 2014م.

موقف الولايات المتحدة الأمريكية

برغم شرائها لمنطقة ألاسكا، المُتاخمة للقُطب الشمالي، في العام 1867م، إلاَّ أن الولايات المتحدة الأمريكية، لم تكن تهتم كثيرا بالقطب الشمالي، على مدى عقود طويلة خلت، ولكن تصاعُد الاكتشافات المُهمَّة، جعل الحكومة الأمريكية، تتجه لبناء استراتيجية مُتكاملة، دبلوماسيا واقتصاديا وعسكريا، وإعادة رسم الخرائط، لتحديد الأماكن التي يُمكن أن تستحوذ عليها في القطب الشمالي، للاستفادة من مواردها، خاصة بعد توقُّعات بارتفاع الطلب الأمريكي، على الغاز الطبيعي المُسال، كمصدر رئيس لتوليد الكهرباء.

وكانت وزارة الخارجية الأمريكية، قد علَّقت بشكل رسمي، على واقعة رفع العلم الروسي، على إحدى النتوءات الصخرية، في قاع المحيط المتجمد الشمالي، عام 2007م، بأنه بمثابة استفزاز واضح، يرقى إلى حالة إعلان الحرب، في المنطقة القطبية، وكان السيد توم كيسي، المُتحدِّث باسم الخارجية – آنذاك – قد صرَّح بأن بلاده لم تقف صامتة، إزاء الأنشطة التوسُّعية الروسية، في القطب الشمالي. ومن جانبها، سارعت وزارة الدفاع الأمريكية بإرسال كاسحة الجليد "هيلي"[17]، بهدف رسم خريطة لقاع المحيط، وكان برفقة الكاسحة، سفينة أبحاث، على متنها 20 عالمًا. وفي وقت لاحق، أرسَل معهد "وودز هول" الأمريكي للأبحاث العلمية، بعثة مُماثلة، للعمل في المنطقة، وقد ازداد اهتمام الأمريكان بالقطب الشمالي، مُنذ ولاية باراك أوباما، لحُكم البلاد، وفي مايو 2014م، كشف الرئيس الأمريكي، عن الإستراتيجية الجديدة، المُتعلقة بالقطب الشمالي، حُدِدت أهدافها في 13 صفحة، والتي يُمكن اختصارها في عِبارة واحدة : " العمل من أجل حماية البيئة الهشَّة، وإبقائها خالية من الصراعات، وفي ذات الوقت التصدِّي لخِطط العسكرة والهيمنة، التي تسعى إليها دول أُخرى، وفي مُقدِّمتها روسيا".

(17)عن موقع / https://arabic.sputniknews.com/world

وبحسب كُل من هيزر جرينلي، وديفيد بارات، فإن الولايات المتحدة الأمريكية، تعتبر نفسها "دولة قطب شمالي، وهو مُصطلح صار يستخدِمه صُنَّاع القرار، لتسليط الضوء على مدى أهمية المصالح الوطنية الجوهرية في المنطقة، والاعتراف الأساسي والمُهم بأن ألاسكا، والأراضي المُرتبطة بها، فوق الدائرة القطبية الشمالية، هي في الواقع جُزء من الولايات المتحدة. ويُضيف جيسون تاما، الخبير الأمريكي في الشؤون الجيوسياسية، "إن الولايات المتحدة، لديها تُراث مصالح، موثّق جدًا في القطب الشمالي، ومن الضروري سُرعة الارتقاء إلى مستوى القيادة الاستباقية، وزيادة الاستثمارات في هذه المنطقة، ذات المُستقبل الواعد".. وكانت وزارة الدفاع الأمريكية، دفعت بنحو 27 ألف جُندي، للتمركُز في شمال ألاسكا، ولتأكيد أهمية القطب الشمالي للولايات المتحدة.

الموقف الكندي

مُنذ العام 2002م، بدأت الحكومة الكندية، بتصعيد مطالبها، التي تتضمَّن "أحقِّيتها في السيادة على القطب الشمالي"، وقدَّمت هذه المطالب لهيئة الأمم المتحدة، وبعد عقد من الزمن، وتحديدا في يناير 2013م، تقدَّمت إلى لجنة الأمم المتحدة، المُختصَّة بترسيم الحدود الدولية، للنظر مُجددًا في القضية، وقد اشتمل الطلب الجديد على "ضم منطقة مساحتها نحو 1.2 مليون كيلو متر مربع، تتضمَّن أجزاء من القطب الشمالي، إلى أراضيها"، وبالتزامن مع هذه المُطالبات، صعَّدت الحكومة الكندية من لهجة تصريحاتها، تجاه مُحاولات الهيمنة، من الأطراف الأخرى، حيث قال ستيفن هاربر، رئيس وزراء كندا السابق : إنه في ظِل هذا النزاع، لن تقف كندا مكتوفة الأيدي، حيث "إننا لدينا العديد من الخيارات، عندما يتعلَّق الأمر بدفاعنا عن حقوقنا السيادية، في القارة القطبية الشمالية"[18].

(18) بوزيان: سابق . ص52.

وكان الجيش الكندي، قد نفَّذ أوَّل تجاربه، على نظام اتصالات جديد، يُدعى "الشبح الثلجي"، الذي يُعد جُزءًا رئيسًا في إستراتيجية كندية، تستهدف الهيمنة على أكبر مِساحة من القطب الشمالي، في نهاية المطاف، وقد بلغت تكاليف هذا النظام نحو 600 مليون دولار، وهو مُصمم للمُساعدة على توفير اتصالات عالية الجودة، حتى في فصل الشتاء القطبي، ويستهدف سُرعة الاستجابة للقوات الكندية، في حالات الطوارئ.

موقف الدانمارك

وتتقدَّم الدانمارك، التي تُسيطر فِعليا على جزيرة جرينلند، بين أكثر اللاعبين تأثيرا في منطقة القطب الشمالي، وبخاصة بالقُرب من الجرف القاري، المُتاخم للجزيرة. وللإسراع في مساعيها، الرامية لفرض سيطرتها على أجزاء من القطب الشمالي، تقدَّمت الدانمارك، في ديسمبر 2014م، بطلب إلى لجنة الأمم المتحدة للحدود والجرف القاري (UNCLCS)، لتأكيد أحقَّيتها بأراضي شمال جرينلند، وكذا في القطب الشمالي، بل ذهب بعض المسؤولين في الحكومة الدانماركية، إلى ما هو أبعد من ذلك، حيث أكّدوا أن ثمة "دلائل عِلميَّة ودراسات وأبحاث أُجريت حول طبيعة المنطقة، تُفضي جميعها إلى أن القطب الشمالي، إنما هو بالأساس كان جُزءا تابعا لجزيرة جرينلند[19]..وحول جزيرة هانس، تتجدد الخلافات بين الدانمارك وكندا بشكل دوري، حيث تدَّعي كُل من الدولتين الأحقيَّة بالجزيرة، فبعد أن رفعت كندا عَلمِها على الجزيرة، وإلى جانبه وضَعت "زُجاجة ويسكي"، جاء الوزير الدانماركي المُكلَّف بشؤون جرينلند، إلى الجزيرة ذاتها، بعد نحو أسبوع فقط، وأزال العَلم الكندي، وترك مكانه "زُجاجة نبيذ"، ولوحة كبيرة، مُدوَّن عليها "الدانمارك تُرحِّب بكم"..!!

(19) الجابري، محمد: موسوعة دول العالم . ص53. الناشر مجموعة النيل العربية . الطبعة الأولى . القاهرة 2000م . والخوند: سابق . ص 130.

موقف النرويج

ولكون حدودها الشمالية، مُتاخمة للمنطقة القطبية، الغنيَّة بالثروات الطبيعية، فإن النرويج تبحث هي الأُخرى، عن امتدادات واسعة، فيما وراء حدودها. وفي ظِل تنامي العسكرة القطبية، بدأت النرويج هي أيضا في تحديث قواعدها الشمالية، وتنفيذ العديد من التدريبات العسكرية، التي تُشارك فيها القوات البحرية والجوية. وتحت شعار "التعاون الدفاعي المُشترك في القطب الشمالي"، قامت كُل من النرويج والدانمارك وأيسلندا والسويد وفنلندا، بتشكيل تحالف مُصغَّر، يستهدف التعامل مع القضايا المُتنامية في المنطقة القطبية الشمالية.

وفي مارس 2013م، أعلنت الحكومة النرويجية، تخصيص مليار دولار، من الميزانية العامة للدولة، لأجل زيادة القُدرات الدفاعية في المنطقة الشمالية، إلى جانب رصد اعتمادات مالية أُخرى، لاكتشاف المناطق البكر، المتاخمة لحدودها، وبناء 5 فرقاطات بحرية جديدة، قادرة على العمل في بيئة القطب الشمالي، وصِفت بأنها الأحدث من نوعها.. وفي مارس 2015م، أُجريت مُناورات للفايكنغ النرويجي[20]، وصِفت بأنها الأكبر في تاريخ هذه القوَّة العسكرية، التي تشكَّلت حديثا.. وردا على التهديدات الروسية لها، أعلنت الحكومة النرويجية، أنها وافقت على تمركُز كتيبة أمريكية، من مُشاة البحرية، في أقصى شمال أراضيها، خلال العام القادم.

مواقف دولية (من خارج دول الطوق)

وفي سبيل البحث عن مصالح لها، تسعى العديد من الدِول، من خارج دِول الطوق، المُحيطة بشكل مُباشر مع القطب الشمالي، ومنها دول تُعتبر من المنظور

(20) نسبة إلى المغامرين من قبائل الفايكنج، الذين اشتهروا بمغامراتهم وحروبهم البحرية، خلال الفترة من800إلى1050م

الجغرافي "مُتداخلة في المنطقة"، وهي كُل من فنلندا، والسويد، وأيسلندا، إضافة إلى دِول ليس لها أي امتدادات أو تداخلات جُغرافية في المنطقة، ولكنها ترى بأن القطب الشمالي، صار يُمثل لها موقعا مُهما في منظومة مصالحها الحيوية، على المُستوى الدولي، وهي كُل من اليابان، والصين، وكوريا الشمالية، وبلدان أوروبا الغربية، وغيرها من البلدان المُتقدِّمة صناعيا واقتصاديا.

الصين مثلاً، والتي تُعد أكبر دولة مُستهلِكة للطاقة في العالم، تسعى للحصول على نصيب من الاحتياطي الكبير للنفط والغاز الطبيعي، في القطب الشمالي، وعلى أرض الواقع، بدأت شركات صينية المُشاركة في عمليات التنقيب عن الطاقة بالمنطقة. وكانت الصين، قد نجحت مؤخَّرا – بدعم روسي – من الحصول على وضعيَّة "الدولة المُراقب"، في مجلس القطب الشمالي، الذي سنأتي على ذِكره لاحقًا، وذلك بعد حملة دُبلوماسية، دامت 4 سنوات، وفي تصريح، يؤكِّد على أن الصين ذاهبة لوضع قدم لها في القطب الشمالي، قال ين زهو، وهو أحد الأميرالات الكِبار في الجيش الصيني: "إن الصين تحترم جدا حقوق السيادة لكُل بلد، ضِمن الحدود الرسمية المُعترف بها دوليًا، ولكن منطقة القطب الشمالي، ليست كُلَّها ضِمن الحدود الإقليمية للبلدان الشاطئية لهذا المُحيط، فهي مِلك للإنسانية جمعاء، ولا يُمكن لأي أُمَّة الادعاء بالسيادة على أجزاء خارج حدودها الإقليمية"، وأضاف زهو: "وبما أن عدد سُكَّان الصين، يشكِّل خُمس سُكان العالم، لذلك تطالب الصين بخُمس الثروات الطبيعية، في منطقة القطب الشمالي، خارج الحدود الإقليمية للبلدان الشاطئية"[21]..وكانت الصين، قد أطلقت في العام2013م، ما يُعرَف بـ"إستراتيجية الحزام والطوق"، سعيًا لإقامة شراكات إستراتيجية، مع دِول من شأنها ضمان وصول بضائعها إلى الأسواق الكُبرى في العالم، عبر طريق الشمال الواعد . بحسب وصف غير واحد من خُبراء النقل البحري . وفي القطب الشمالي، تنشط حاليًا

(21) بوزيان: سابق . ص55.

أكبر كاسحة جليد في العالم، والتي توصف بأنها " الكاسحة غير النووية الأكثر تطوُّرًا "، وهي مِلك للصين. وفي مُذكِّرة بحثيَّة لمعهد أبحاث السلام الدولي، في ستوكهولم، ورد: إن الصين، تضع نفسها في موضع، يؤهِّلها للكسب من مسارات السُفن المُحتَملة، في المنطقة القطبية، وكذا من موارد المنطقة غير المُستغلَّة، مع ذوبان الغِطاء الجليدي. واليابان هي الأُخرى، دخلت على الخط، حيث أعلنت حكومتها، أنها سوف تنضَم إلى جولة المُباحثات، التي تجرى بشأن "وضع قواعد دولية جديدة، تُجنِّب الخِلاف الدائر، بشأن استغلال الموارد الطبيعية، في القطب الشمالي". وكان مسئول في الحكومة، قد صرَّح قائلاً: "إن تطوير القطب الشمالي، قد يؤدِّي إلى نزاعات، وعلى اليابان أن تكون حاضرة، وتنخرط في المُناقشات، لتعزيز الحوار مع روسيا، والدِول الأُخرى، المُطلَّة على القطب الشمالي بالتوازي".. جدير بالإشارة، أن الجهود الدبلوماسية اليابانية، أثمرت عن دخول اليابان، كدولة مُراقبة، في مجلس القطب الشمالي، بدءا من عام 2013م، وذلك بعد أربع سنوات من تقديم طلبها.

وكانت كُل من حُكومات أيسلندا، والسويد، وفنلندا، قد أعلنت أن لها الحق في الاستفادة من الموارد الكامنة في المحيط المتجمد الشمالي، وتدعمها في ذلك الولايات المتحدة الأمريكية، بل وأقامت معها شراكات دفاعية. ومن الدِول الأخرى، التي تسعى للتواجد في القطب الشمالي، الهند التي تُعوَّل . في الوقت الحاضر . على شركات التنقيب لديها، للعمل مع نظيراتها الروسية، في استكشاف واستغلال حقول جديدة، وكان هذا مِحور مُحادثات جرت بين فلاديمير بوتين، أثناء لِقائه مع نظيره الهندي، في دلهي، ديسمبر 2014م. وكانت سنغافورا، قد عرَضت خدماتها، لبناء مِنصَّات مائية عائمة، في القطب الشمالي، سواء لأغراض التنقيب، أو غيرها.. في حين لم تُبد أي من البلدان العربية، اهتمامًا – حتى الآن على الأقل – بهذه المنطقة.

مجلس القطب الشمالي

وفـي مُحاولـة منهـا، لإضـفاء طـابع الإقليميـة، علـى المنطقـة القطبيـة الشـمالية، وبمُبادرة من فنلندا، قامت الدِول الخمس، التي تُطِل مُباشرة على القطب الشمالي (روسيا، والولايـات المتحـدة الأمريكيـة، وكنـدا، والـدانمارك، والنـرويج)، إضـافة إلـى الـدِول الـثلاث المُتدَاخِلـة معهـا، وهـي السـويد، وفنلنـدا، وأيسـلندا، بإنشـاء مـا يُعـرف بـ "مجلـس القطـب الشمالي"[22]، والذي يضم أيضـًا مجموعات من السُكَّان الأصليين، في القطب الشمالي، تحت مُسمى "المُشاركون الدائمون".

وكانت العاصمة الكندية، قد شهدت في العام 1996م، التوقيع على اتفاقية إنشاء المجلس، الـذي يتَّخـذ مـن العاصـمة النرويجيـة، مقـرًا رئيسـًا لأمانتـه.. وبحسـب اللائحـة الداخلية، فإن رئاسة المجلس، تتجدد دوريـًا، كُل عامين، ويُمارس نشاطه كمُنتدى للتعاون فـي القضـايا الإقليميـة التنمويـة والبيئيـة، ومُنذ تأسيسـه، وحتـى الآن، قبل المجلس12 دولـة أُخرى بصفة "عضو مُراقب"، هي: بريطانيا، وفرنسا، وألمانيا، وهولندا، وبولندا، وإسبانيا، والصين، وإيطاليا، وكوريا الجنوبية، والهند، واليابان، وسنغافورة.

وإذا كانـت الـدول الثمـاني، المؤسِّسـة للمجلـس، هـي فقـط مـن تتمتَّـع بالعضـوية الكاملـة، فـإن الـدول التـي حصـلت علـى "عضـوية المُراقـب"، وكـذا التـي مازالـت تسـعى للحصول على هذه العِضوَّية، تعتبر أهمية ذلك موازيـًا لأهمية الانضمام لعِضوية مجلس الأمن الدولي، إذ تُبدي الكثير من دول أوروبا، وآسيا، اهتمامـًا مُتزايدًا بالقطب الشمالي، وتسعى للدفاع عن مصالحها هناك.

القانون الدولي.. والقطب الشمالي

(22) بوزيان: سابق . ص51.

في إطار المُعاهدات والاتفاقيات الدولية، وما نصَّ عليه قانون البحار، المُتمثِّل في اتفاقية حقوق المِلكية في الجرف القاري[23]، الصادرة عن الأمم المتحدة عام 1982م، والتي دخلَت حيِّز التطبيق الفعلي، عام 1994م، بعد أن صادقت عليها 150 دولة، فإن لا أحد يمتلك القطب الشمالي، حيث إن الحدود الدولية البحرية، تمتد لمسافة 200 ميل بحري.. وعلى عاتقها، تأخذ لجنة الأمم المتحدة، المُختصَّة بترسيم الحدود الدولية، تفسير هذه المسافة، وترسيمها، أمَّا ما بعد الـ 200 ميل بحري، فقد أُثيرت حوله الكثير من النِزاعات الحدودية الدولية، ويبدو أن ما يحدث على أرض الواقع، في القطب الشمالي، سوف يُفضي إلى مزيد من التصعيد، في مواقف الدول، وتفسيرها لمبادئ قانون البحار، وِفقًا لرؤاها ومصالحها، خُذ مِثالاً: في العام 2001م، تقدَّمت روسيا بطلب للجنة الأمم المتحدة المُختصَّة بترسيم الحدود الدولية، وذلك لتوسيع مساحة الجرف القطبي، حيث إنها ترى أحقِّيتها بذلك، في إطار اتفاقية قانون البحار (UNCLOS)، إلاَّ أن الرد جاء برفض المُطالبة، لعدم كِفاية الأدلَّة، وبخرائط وأدلَّة جديدة، عاودت روسيا طلبها غير مرَّة، حتى أن طلبًا جديدًا لها، في ذات المسألة، مازال يُنظر إلى الآن.

وفي حوار معه، أشار د. إيريك بوسنر، أُستاذ القانون الدولي، بكُلِيَّة الحقوق، جامعة شيكاغو، إلى أن إقدام الروس على زرع عَلَمِهم، في منطقة نائية، بقاع المحيط المتجمد الشمالي، عام 2007م، يحمل رسالة رمزيَّة واضحة، أن روسيا تسعى للحصول على نصيب الأسد، في عملية اقتسام المحيط[24]، وهي تُعوِّل في ذلك ليس على القانون الدولي، ولكن في المقام الأول، من خلال فَرض قوَّتها، فهي تمتلك أكبر أسطول كاسحات جليد في العالم، ولديها أكبر قواعد عسكرية قطبية، وأضاف: إن مجموعة الـ

(23)أبو لقمة، د. الهادي مصطفى (وآخر): الجغرافيا البحرية . ص201. الناشر الدار الجماهيرية للنشر والتوزيع والإعلام . الطبعة الثانية . مصراتة (ليبيا) 1999م.

(24)وودارد، كولين: الصراع على القطب الشمالي.. أبعاد قانونية وتحديات دبلوماسية . صحيفة الاتحاد الإماراتية . 21أغسطس 2007م.

21 عالمـًا، الـذين يُشكِّلون مـا يُعـرَف بـ " لجنـة النظـر فـي المُنازعـات، المُتعلِّقـة بحـدود الجرف القاري"، والتـي تم إنشـاؤها استِنادًا إلـى بنـود مُعاهدة قـانون البحـار، ستكون مُثقلـة بالأعبـاء، خِـلال الشـهور القادمـة، علـى وقـع الطلبـات الكثيـرة المُقدَّمـة إليهـا، مـن الـدِول المُتنافسـة من أجل الحصـول علـى مسـاحات إضـافية، من المحيط.. مـع ضـرورة الإشـارة، أن بعض الطلبات، قد يمتد النظر فيها إلى 15 سنة، وأن اللجنـة الأُمميـة، غير مُخـوَّل لها البت في الطلبات الخاصة بالمواقع، التي تتم المُطالبة بأحقِّية مِلكيتها، من قِبل أكثر من دولة، وأن مِثل تلك النزاعات، يجب أن تُحَل بمعرفة بتلك الدول.

ومـن جانبـه، يقـول الخبيـر الروسـي د. فلاديميـر كوتليـار، أُسـتاذ الحقـوق، والمُتخصـص فـي القـانون البحـري الـدولي: الأمريكيـون يقلبـون الصـورة رأسـًا علـى عقـب، عِندما يتحدَّثون عن النشاط الروسي في المنطقة، "يجب أن نبدأ من أنه في تسعينيات القرن الماضي، انسحبت روسيا، من المنطقة القطبية الشمالية، وتخلَّت عن عدد كبير من المُعدَّات، ونِقاط المُراقبة الجوية، وقواعد الإمداد، بسبب نقص الأموال، في حين استمرَّت الولايات المتحدة، في تعزيز وجودها العسكري البحري في المنطقة، وعندما بدأنا رويدًا رويدًا، بإعادة ما فقدناه، ارتفع صراخهم، كُل هذا من أجل تحريك لجنة الاعتمادات العسكرية، في مجلس الشيوخ"..!!ويُضيف د. كوتليار: إن الولايات المتحدة ، لم توقِّع على اتفاقية القانون البحري، لذلك "يحِق لبقية الدول، عدم أخذ رأي واشنطن بالاعتبار، بشأن هذه المسألة، لأنه فقط الدول الموقِّعة على القانون البحري، يحق لها التصويت، والولايات المتحدة ليست من ضِمن هذه الدول[25].. وكان الخبير القانوني أناتونيكولود كين، رئيس رابطة قانون البحار الدولي، قد أشار إلى أن روسيا، رُبما ستتمكَّن . خِلال الأشـهر القادمـة مـن تقـديم أدِلَّـة جديـدة، تثبـت مـن خِلالهـا أن سِلسـلتي جبـال لومونوسفومنداليف، في القطب الشمالي، تتصلان بالجرف القاري السيبيري.. ويذهب د.

(25) تقرير منشور في صحيفة" نيزافيسيمايا غازيتا" الروسية (31.08.2015)، بعنوان: واشنطن تخشى من تعاظم قوة موسكو في القطب الشمالي.

هاو ليان شونج، أُستاذ العلاقات الدولية، بجامعة الأمم المتحدة، في طوكيو، إلى أن الدائرة القطبية الشمالية، تظل بموجب نصوص اتفاقية قانون البحار لعام 1984م، مِثلها في ذلك مِثل البحار المفتوحة، ومن ثم يحِق لأي من دِول العالم، حتى وإن لم تكن مُتشاطئة مع الدائرة القطبية، المُشاركة في ثروات هذه المنطقة.

خاتمة

مع ذوبان العديد من القِمم والكُتل الجليدية، وظهور المزيد من الثروات الطبيعية، يتصاعد الصِراع على القطب الشمالي.. إلاَّ أن ثمة حقيقة مؤلِمة، كان من المُفترض أن تكون في طليعة القضايا الكُبرى، التي تتعلَّق بإنقاذ القطب الشمالي، بل وسفينة الحياة قاطبة، ألا وهي كوكب الأرض، وهذه الحقيقة تتمثل في أن ذوبان الجليد، نتيجة الاحترار العالمي، يعني ببساطة مزيدا من الاضطرابات المناخية والبيئية، واختفاء جُزر ودِول بأكملها، نتيجة ارتفاع مُستوى مياه البحار، مما يؤدِّي إلى عمليَّات نزوح جماعي، فيما صار يَطلِق عليه العُلماء "ظاهرة اللاجئين البيئيين"، ناهيك عن انقراض العديد من الأنواع الحية، نتيجة فَقد موائلها.

ويرى غير واحد من عُلماء البيئة، أنه كان الأجدى للقوى المُتصارعة، على ثروات ناضبة، في هذه المنطقة العذراء من العالم، أن يتَّفقوا بإعلانها محمية طبيعية عالمية، لكي تنجو سفينة الأرض ـ بمن عليها ـ من خطر الغرق، بين صراع البحث عن "قضمة" من كعكة الثروات، وسيل الاحترار العالمي، الذي لن ينجو من وطأته أحد..!!

عـروض كتب

- الامم المتحدة والازمات العربية — عمـــــــاد الدين حلمي
- التنمية المستدامة العربية ورؤية للتكامل الإقليمي — صفـــــاء عبـــدالوهاب

الأمم المتحدة والأزمات العربية

تأليف: ميساء زهير سعيد المدهون

الناشر : دار الجندي للنشر والتوزيع - القدس- الطبعة الأولى 2018، 343صفحة

يتناول هذا الكتاب إدارة الأمم المتحدة للأزمات العربية التي نشأت بعد اندلاع الحراكات العربيـــة، وذلك ابتداء من عام 2011 وحتى عام 2015، مع التركيز على الأزمة السورية التي أخذت أبعادا إقليمية ودولية، ومن ثم الاستدلال والاستنباط لما سيكون عليه الحال في المستقبل.

فلم تشهد الدبلوماسية الدولية جهدا ملحوظا في الأزمات الدولية كافة كما شهدتها في الأزمة السورية، نظرا لتعقيداتها الكثيرة والمتلاحقة والتدخلات الإقليمية والدولية فيها، مما صعب المشكلة لإيجاد حلول مناسبة لها، وحتى تاريخه، لم تستطع الأمم المتحدة على كثرة مفوضيها ووسطائها الذين عينتهم لحل هذه الأزمة، مما جعل الدور الأممي قاصرا على إدارة الأزمة وليس حلها.

الكتاب يتناول حقبة زمنية غاية في الأهمية والخطورة، وهي فترة الحراكات العربية التي مضى على اندلاعها أعوام قليلة، وما تخللها من دور لهيئة الأمم المتحدة في إيجاد حلول لما ترتب عليها من خراب ودمار لكثير من الدول التي مرت بها تلك الحراكات وهي فترة غاية في الأهمية والخطورة وبحاجة إلى دراسة أو دراسات جادة ومعمقة في هذا الاتجاه.

وبالنسبة للكتاب فهو مقسم إلى ستة فصول، الأول والثاني منه يشير الكاتب فيهما إلى أن الحراكات العربية أدخلت منطقة الشرق الأوسط مرحلة تغيير نوعية وحتى اللحظة تعيش هذه المنطقة تفاعلات هذه الحراكات وارتدادها، صحيح أن صورة المشهد لم تتضح بعد على تعيينات محددة، سواء على الصعيد السياسي أم على الصعيد الجغرافي أو الديموغرافي، إلا أن المتابع لسير أحداث المنطقة العربية سيلاحظ مدى التداخل والتعقيد والالتباس الذي أحدثته تلك الحراكات مما خلق أزمات عدة فرضت تحديات جديدة أمام المجتمع الدولي المتمثل بهيئة الأمم المتحدة.

وهنا تتساءل الكاتبة، هل الأمم المتحدة في ظل التطورات الجديدة التي يشهدها المحيط الإقليمي نتيجة التحولات الراهنة قادرة على خوض فن إدارة الأزمات العربية؟

هل جاءت الأمم المتحدة لتؤكد مبادئها، أم لتتنازل عنها وتساوم عليها؟

ومن هنا تأتي تلك الدراسة لتبين ذلك من خلال محاولة تحليل وتفكيك مجموعة من المبادئ والمواقف والقرارات الصادرة عن الأمم المتحدة، وخصوصا مجلس الأمن بشأن الأزمات الراهنة في المنطقة العربية سواء في سوريا أو فلسطين أو العراق أو في ليبيا أو في اليمن للاعتماد عليها كخلفية علمية أساسية لتقييم وملامسة مدى فعالية دور الأمم المتحدة تجاه مجموعة من التحولات العميقة والتحديات الراهنة، وتقييم دورها في ظل تأثير المجتمع الدولي على قراراتها وتطبيق مبادئهـا، كما توضح الدور الذي لعبته كل من الجمعية العامة ومجلس حقوق الإنسان التابع للأمم المتحدة جنبا إلى جنب مع مجلس أمنها.

ثم تتحدث الكاتبة بعد ذلك عن نطاق تطبيق مبادئ الأمم المتحدة، حيث إن إدراج مبادئ القانون الدولي في الميثاق سجل مرحلة هامة في تطور الأمم المتحدة يمكن اعتبارها نقلة نوعية إذ استمدت هذه المبادئ قوة إلزامية إضافية، بعد تحويلها من قواعد عرفية إلى قواعد اتفاقية، وهو ما جعل مبادئ منع التدخل في الشؤون الداخلية، والمساواة

في السيادة ومنع استخدام القوة وحق تقرير المصير وحماية حقوق الإنسان مرجعية لهيئة الأمم المتحدة في حفظ السلام والأمن الدوليين.

وبالرغم من النص على مبدأ عدم التدخل في المواثيق المنشئة وقرارات المنظمات الدولية الإقليمية وأحكام محاكم القضاء الدولي، إلا أننا نجد أن هناك استثناءات على هذا المبدأ منها التدخل لحفظ السلام والأمن الدوليين وفقا للفصل السابع من الميثاق والتدخل في حالة الدفاع الشرعي والأمن الجماعي، والتي يكون فيها العمل مشروعا، ولا يمكن أن تكون هذه الاستثناءات أعمالا مشروعة إلا إذا اتصفت واحتكمت بالشرعية الدولية كما أن الأمم المتحدة عبر ميثاقها احترمت السيادة الوطنية التي كانت ويجب أن تبقى الدعامة الأولى للنظام الدولي الحديث والمعاصـــر، انسجاما مع البند الأول من المادة الثانية من الميثاق، مع التأكيد على البند الرابع منها على وجوب الالتزام بعدم استعمال القوة أو استخدامها ضد سلامة الأراضي والاستقرار السياسي لأية دولة، سوى من باب الإقرار الصريح بمحددات التحرك الدولي المشروع والمقبول خلال الفصل السابع.

أما الفصلان الثالث والرابع، فتتحدث الكاتبة بداية عن الأمم المتحدة وحفظ السلام في المنطقة العربية، حيث يشير إلى أن الأمم المتحدة قد شهدت تحولا نوعيا وكميا في القرارات الصادرة عن جميع أجهزة الأمم المتحدة تجاه العراق، نتيجة عوامل عدة أهمها تبدل البيئة السياسية الدولية ، وأصبحت الولايات المتحدة بحكم هذه البيئة، الصانع الأكبر لقرارات مجلس الأمن، والموظِف لها لأغراض تخدم مصالحها واستراتيجيتها الخاصة.

ثم جاء الاحتلال الأمريكي والبريطاني للعراق، والقضاء على النظام السياسي فيه ليشكل مرحلة أكثر خطورة في الانعطاف النوعي لتوجهات مجلس الأمن الذي لم يفوض الولايات المتحدة لشن الحرب على العراق عام 2003 لكنه رضخ كأمر واقع للاحتلال، أضفى عليه المشروعية، وكلف سلطات العراق بإدارة العراق.

هذا وقد فشلت الأمم المتحدة في حل الصراع الإسرائيلي الفلسطيني المزمع الذي نتج عن اغتصاب الأراضي الفلسطينية وطرد شعبها من دياره وتهجيره من وطنه، ورغم قراراته الداعمة لحقوق الشعب الفلسطيني من خلال عودته وتقرير مصيره وإقامة دولته المستقلة وفي المقدمة منها قرارا مجلس الأمن 242و238 وقرار الجمعية العامة رقم 194 القاضي بحق عودة اللاجئين، فإنها لم توضع موضع التنفيذ، كما فشل مجلس الأمن بإلزام إسرائيل من تنفيذ قراراته القاضية بإلزام إسرائيل الانسحاب إلى حدود ما قبل 5 يونيو 1967، كما عجزت الأمم المتحدة من تمكين الشعب الفلسطيني من فرض سيطرته على أقاليمه التي تخضع في الوقت الراهن للاحتلال الإسرائيلي وحفظ السلام والأمن الدوليين وإرجاعهما إلى نصابها على أساس الفصل السابع من الميثاق.

ثم تتناول الكاتبة موضوعا تحت عنوان دور الأمم المتحدة في إدارة أزمات دول الحراكات العربيــة، فهناك مثال في هذا الموضوع وهو الأزمة الليبية حيث تدخل العديد من الجهات والمنظمات الإقليمية الدولية بشكل كبير في الأزمة الليبية من أجل إيجاد حلول لتلك الأزمة . فنجحت بعض المقترحات ولم ينجح البعض الآخر، ولكن يمكن القول بأن تلك التدخلات لم تؤد إلى حل الأزمة الليبية، فسقوط نظام معمر القذافي لم يكن نهاية للأزمة وإنما إحدى محطاتها، وظلت الأزمة الليبية مستمرة ولم تفلح جهود المنظمات لا الدولية ولا الإقليمية في حلها، كما أن دور الأمم المتحدة في ليبيا يشهد تغيرات نوعية لا تراعي الواقع السياسي مما يدفع باتجاه انخفاض فرص الاستقرار واقتراب الفوضى.

وعلي صعيد آخر، لا يعزى فشل معالجة الأزمة اليمنية إلى جهود المبعوث الخاص للأمم المتحدة أو غيابها فقط، فالعديد من القضايا المحلية والإقليمية والدولية المتداخلة، ساهم في انهيار العملية السياسية، وإفشال جهود الأمم المتحدة، بما في ذلك الصراع السعودي –الإيراني، والصراع الإقليمي مع الإخوان المسلمين وضدهم.

أما الفصلان الأخيران الفصل الخامس والسادس، فتتحدث الكاتبة بداية عن الأزمة السورية في ضوء موقف جامعة الدول العربية والتدخلات الخارجية، حيث تدرج موقف الجامعة العربية من الوضع في سوريا على مدى الأزمة السياسية من عدم التدخل وإدانة العنف إلى قرار إيقاف مقعد سوريا بالجامعة العربية، إلى تسليم المقعد للمعارضة السورية وإغلاق باب أي وساطة يمكن أن تقوم بها الجامعة العربية في الأزمة.

وقد أصدرت بيانات الجامعة العربية على مدى الأزمة السورية خلال الفترة من 27 أغسطس 2011 حتى 21 مايو 2013، 25 قرارا ما بين قمة ووزاري أو على مستوى المندوبين الدائمين، ويعتبر القرار 7438 أحد أقوى قرارات الجامعة منذ تأسيسها عام 1945، وصدر ذلك القرار بسبب مماطلة النظام السوري وعدم التزامه بما ورد في خطة الجامعة العربية، والذي قرر بموجبه تعليق مشاركة وفود الحكومة السورية في اجتماعات مجلس الأمن وجميع المنظمات والأجهزة التابعة لها حين قيامها بالتنفيذ الكامل لتعهداتها التي وافقت عليها بموجب خطة العمل العربية، ودعا القرار المعارضة إلى توحيد صفوفها والاجتماع في مقر الجامعة للاتفاق على رؤية موحدة للمرحلة الانتقالية، واتخذت الجامعة القرار بموافقة 18 دولة في حين اعترضت لبنان واليمن على القرار وامتنع العراق عن التصويت، وكان لتعليق عضوية دولة في الجامعة العربية تداعيات واسعة في جميع أنحاء المنطقة، ومع ذلك فإن هذا التعليق لم يكن الأول من نوعه، فقد تم تعليق عضوية ليبيا أيضا في الجامعة في مارس 2011، ومع ذلك فإنه بالنظر إلى العلاقات المتوترة بين معمر القذافي والعالم العربي وتصور ليبيا كجزء من الاتحاد الأفريقي في المقام الأول، ظل قرار الجامعة تجاه ليبيا قرارا رمزيا إلى حد كبير، ولم يكن مفاجئا مثل قرار تعليق عضوية سوريا.

كما أوضحت الجامعة أنها سوف تتدخل في الشؤون الداخلية للدول الأعضاء عندما تطلب منها الشعوب ذلك حتى لو أن التدخل يناقض مصالح الأنظمة، كما شكل قرار

الجامعة العربية تطورا هاما في مسار الحراك السوري، لجهة تبني موقف عربي بأغلبية كبيرة للتعاطي مع تطورات الملف السوري.

ورغم ذلك فإن الجامعة العربية لم تنجح نجاحا كاملاً في صياغة موقف عربي موحد بشأن الأزمة السورية، فقد أدت العلاقة المعقدة بين الدول الأعضاء والجهات الخارجية التي لها مصالح متضاربة في سوريا إلى حرمان الجامعة من آليات صنع القرارات الفاعلة مما دفع بها إلى الإعلان عن انتهاء دورها وإحالة الملف السوري إلى الأمم المتحدة.

كما أن التدخلات الإقليمية والدولية والأزمة السورية أدت إلى تراجع أدوار الأطراف المحلية المنخرطة في هذه الأزمة، بما في ذلك النظام الحاكم نفسه، لحساب قوى خارجية أصبحت هي المتحكم الرئيسي في توجيه مسارها، وما تزال تعتقد أن بمقدورها فرض تسوية عسكرية اعتمادا على قواها الذاتية أو على الحليفة لها وأن هذه الأطراف ليست معنية بمعاناة الشعب السوري ولا تسعى لمصلحته.

ثم تخصص الكاتبة حديثها بعد ذلك عن دور الأمم المتحدة في إدارة الأزمة السورية من خلال تسليط الضوء على القرارات التي اتخذتها الأمم تجاه الأزمة السورية ، والمسار السياسي الذي انتهجته من خلال مبعوثيها إلى سوريا، والمبادرات التي قدمت.

هذا وقد تمكنت الأمم المتحدة من اتخاذ عدد من القرارات المهمة بشأن سوريا، و بالدرجة الأولى منع القرار الذي شرعن الاتفاقات المسجلة في بيان جنيف الصادر في 30 يونيو 2012 وقرارات حول تقديم المساعدات الإنسانية لسوريا، ونزع ترسانة الأسلحة الكيميائية السورية، وفي ديسمبر 2015 نجح مجلس الأمن في تبني اتفاقات مجموعة دعم سوريا حول إطلاق عملية سياسية في سوريا ووقف إطلاق النار.

وفى المقابل أخفقت الأمم المتحدة في المسار السياسي في معالجتها للأزمة السورية بسبب الخلاف داخل مجلس الأمن أساسا، وعوامل إقليمية من ناحية أخرى، إلى جانب

استخدام الفيتو الروسي الصيني المزدوج ضد القرارات التي تدين النظام السوري، ولا يزال مجلس الأمن منقسما حول سبل التعاطي مع الأزمة لحلها سياسيا بطريقة تحظى بإجماع الأعضاء، إلا أنه يوجد توافق في الآراء داخل مجلس الأمن حول المسار الإنساني من خلال ضرورة إيصال المساعدات الإنسانية للمهاجرين والمحاصرين والمجموعين داخل سوريا.

وفى النهاية يمكن أن نلخص الاستنتاجات التي خرجنا بها من هذا الكتاب في الآتي :-

- يتأثر دور الأمم المتحدة بتحولات وتقلبات المجتمع الدولي، وهو ما يجعل من هيئة الأمم المتحدة نظاما متحركا، يتطور وفق المصالح والحاجيات المتجددة للمجتمع الدولي.
- أن التطورات التي عرفتها المنظمات العربية نتيجة الحراكات الشعبية، تؤكد على وجود تغير جذري في مرتكز العلاقات الدولية الذي كان يقوم في السابق على التحالفات التقليدية المبنية على الصداقات الاستراتيجية التي جمعت الدول الغربية القوية ببعض النظم السياسية في المنطقة العربية.
- أن الحراكات العربية أعادت العلاقات التي تجمع بين الدول الغربية المؤثرة على قرارات الأمم المتحدة والعالم العربي، وعدم حصرها فقط في المصالح الاستراتيجية والاقتصادية القائمة على توازنات القوى في منطقة الشرق الأوسط.
- أن مواقف الأمم المتحدة كانت لصالح الشعوب العربية ومؤيدة لحراكاتهم، وقد تجسد ذلك من خلال تفاعلها الإيجابي مع الحراكات الشعبية وتجاوبها مع تطلعات الشعوب في التغيير الديمقراطي.
- استندت الأمم المتحدة إلى الفصل السادس من ميثاق الأمم المتحدة في إدارة الأزمات العربية في ليبيا واليمن وسوريا بعد تدويلها، ووضع الملفات أمام مجلس الأمن، وذلك رغم إرسال أكثر من لجنة للمراقبة وتقصي الحقائق ووضع مبادرات وتعيين مبعوثين دوليين لرعاية الحوارات لحل أزمات تلك الدول سلميا، مدعومة من جامعة الدول العربية.

- يعزى فشل المبعوثين الدوليين للأمم المتحدة رغم قدراتهم وخبراتهم ومعرفتهم بتفاصيل الأزمات كونهم يميلون إلى إدارة الأزمات بدلا من البحث عن حلول جادة وعادلة لها إلى جانب عدم استيعاب الأمم المتحدة لخصوصية تلك الدول.

وتوصي الدراسة بعدة أمور أهمها :-

- تغيير الأداء الإقليمي والدولي إزاء الأزمات العربية في سوريا واليمن وليبيا والبحث عن استراتيجية جديدة للتعامل مع أطراف الصراع دون استثناء ودون تدخلات إقليمية، كي لا يتكرر انسحاب الممثلين الدوليين من مهامهم أو تقديم استقالاتهم ؟.
- فرض احترام القانون الدولي بكل مبادئه من خلال تفعيل هيئة الأمم المتحدة ومنحها سلطة في مواجهة كل أطراف المجتمع الدولي بدون تمييز، ومنحها الإمكانات المادية والقانونية التي تمكنها من بلورة قراراتها ومبادراتها على أرض الواقع.
- لا يجب التعسف في استعمال حق الفيتو من أطراف إحدى الدول الأعضاء دائمة العضوية في مجلس الأمن، بل يجب الحد منه خاصة إذا ما تعلق الأمر باستصدار قرار لمنع انتهاكات جسيمة وواسعة النطاق ضد دولة ترتكبها في حق شعبها.
- يجب أن يخضع العمل بمبدأ مسؤولية الحماية في حال ارتكبت دولة من الدول انتهاكات جسيمة وواسعة النطاق لحقوق الإنسان، وصنفت كجرائم حرب، وجرائم ضد الإنسانية في مواجهة شعبها لإصدار قرارات من مجلس الأمن محددة النطاق جغرافيا وزمنيا يخول لها التدخل بصفة الجهة المخولة لذلك، خاصة إذا كان الوضع يهدد السلم والأمن الدوليين.

عمـــــاد الـــدين حلمـــي

الأمانة العامة لجامعة الدول العربية

كتـــــب

التنمية المستدامة العربية ورؤية للتكامل الإقليمي

تأليف: حامد أحمد الريفي

الناشر : دار التعليم الجامعي – الإسكندرية – مصر 2018، 367 صفحة

ونحن نعيش الآن في النصف الثاني من القرن الحادي والعشرين يبرز تساؤل هل يقدر الناس قيمة الفكر والعلم في الواقع العربي؟

الحقيقة أن العالم يعيش عصرا صناعيا جديدا يعتمد فيه على الفكر والعلم اللذين ينتجان المعلومات والاتصالات والتكنولوجيا المتقدمة، مما يؤدي إلى زيادة القدرة في اتخاذ القرارات السليمة لخدمة الإنسان، ويعد ذلك تأكيدا للغير في المفاهيم الإنسانية الحالية عن تلك التي كانت سائدة قديما حيث قامت الصناعة التقليدية معتمدة على الموارد الطبيعية.

والإنتاج الصناعي العالمي اليوم تغير شكله بصورة واضحة وتقريبا اختلفت السلعة التي تنتجها دولة واحـــدة، فتوزعت عمليات الإنتاج إلى إنتاج أجزاء من السلع، تتخصص كل دولة في جزء من أجزاء السلعة، كذلك تغيرت طبيعة المواد الولية، والقدرة على الاتصال ونقل المعلومات مع وجود النظام الاقتصادي العالمي الجديد، وما يميزه من سيطرة الشركات متعددة الجنسيات والعولمة والتنمية المستدامة في ظل وجود التكتلات العالمية التي تتشكل وحدويا في مختلف المجالات مثل " دول الاتحاد الأوروبي " أو " الآسيان " اتحاد دول أمريكا الشمالية وغيرها.

والكتاب الذي أتشرف بتقديمه مقسم إلى بابين، الباب الأول منه يتحدث الكاتب فيه عن معضلات التنمية المستدامة في الدول العربية، حيث تعاني دول الوطن العربي من

الكثير من المشكلات في شتى المجالات، شأنها في ذلك شأن الدول النامية الأخرى مما أدى إلى وجود عوائق وعقبات كثيرة تمثل حجر عثرة أمام انطلاق عملية التنمية المستدامة إلى آفاق التنفيذ الرحبة وتمنع تحقيقها على الوجه الأكمل، ويمكن تحديد تلك العوائق والعقبات في بعض عناصر منها-:

العنصر البشري العربي :

عدم وجود تكتل اقتصادي عربي يقف أمام التكتلات الاقتصادية العالمية الكبرى مثل دول الاتحاد الأوروبي وغيرها، حيث إن وجود مثل هذا التكتل يؤدي إلى نجاح فكرة التنمية المستدامة التي لا تستطيع دولة واحدة منفردة القيام بها، وهو يكفل اتساع المدى الجغرافي للبيئة العربية بما يقلل من التدخلات الخارجية.

معاناة الدول العربية المستمرة من النزاعات والاختلافات وعدم الاستقرار السياسي وعدم الاتفاق على كثير من القضايا السياسية فضلا عن حالة الاضطرابات والاحتجاجات التي انتشرت في العديد من الدول العربية.

أما فيما يخص العنصر الطبيعي العربي، فتوجد عوائق للتنمية المستدامة داخل العنصر الطبيعي العربي مثل ندرة الموارد المائية مثل الأمطار حيث إن أغلب مساحات الدول العربية مناطق صحراوية شديدة الجفاف بسبب ندرة الأمطار، وأيضا الأنهار مثل النيل في مصر والسودان، ودجلة والفرات في العراق وسوريا، وجوبا وشبيلى في الصومال و نهر السنغال جنوب موريتانيا، هذه الأنهار توجد منابعها خارج حدود تلك الدول العربيــة، مما يجعل لدول المنبع ميزة استراتيجية في مواجهة الدول العربية بالإضافة إلى اتساع ظواهر التصحر ويعود ذلك إلى عوامل عديدة مما أدى إلى تناقص المساحات المزروعة من الأرض (الصغيرة أصلا) يضاف إلى ذلك أن نحو 90% من مساحة الدول العربية مناطق صحراوية جافة.

هذا بالإضافة إلى نقص مصادر الطاقة المتجددة في كثير من الدول العربية لارتفاع تكلفتها والتكنولوجيا المطلوبة لها متقدمة، لذا لا زال الاعتماد على مصادر الطاقة التقليدية قائما.

ثم يناقش الكاتب موضوعًا تحت عنوان " نحو استراتيجية تنموية مستدامة عربيا "، حيث يقول إنه عندما طور الاقتصاديون مفهوم التنمية الاقتصادية إلى مفهوم أوسع وأشمل وأعم وهو مفهوم التنمية المستدامة زادت لديهم الآمال في قدرتهم على مواجهة المشاكل الاقتصادية الآنية والآجلة من خلال قدرتهم على حفظ ثروة الاقتصاد القومي على مر الأيام، وما يبعث الأمل فينا ويحيي الرجاء أن هناك أمثلة ناجحة لعل أكثرها نجاحا هو التكتل الإقليمي لدول الخليج العربي ، وإن كان دوره يكاد يقتصر على الجانب الأمني ومؤخرا تم إقامة سوق مشتركة بينهم وهذه خطوة عظيمة ومطلوبة ونتمنى أن تتسع لتشمل كل دول الوطن العربي وتحقق المصلحة العربية.

ومن الأمور الحيوية أيضا اللازمة لتهيئة الظروف لإحداث التنمية المستدامة العمل على توسيع القاعدة التكنولوجية العربية باستخدام أحدث ما توصل إليه الفكر الإنساني من مخترعات، ومما يخدم أهداف التنمية المستدامة وتحقيقها حيث أفادت بعض الدراسات الأمريكية أن التقدم التكنولوجي ساهم بحوالي 90% من الزيادة في معدل النمو الاقتصادي خلال عقد الخمسينات من القرن الماضي مثلا.

لذا فيجب تشجيع البحث والتطوير العلميين وزيادة الإنفاق عليهما بسخاء، حتى لو خصص لهما 5% من قيمة الناتج الإجمالي العربي، وربطهما باحتياجات سوق العمل، والاستفادة من تجارب وخبرات ما توصل إليه علماؤنا في الخارج، وأيضا في الداخل وإعطاؤهم فرصة المشاركة في قيادة التنمية المستدامة وتحقيق النهوض العلمي في دول الوطن العربي في شتى المجالات.

ثم يتحدث الكاتب بعد ذلك عن التغيرات المطلوبة للتنمية المستدامة العربية، فأولا لا يتناسب حجم ما تحققه دول الوطن العربي من نواتج التنمية المختلفة مع ما يمتلكه من

موارد وإمكانات طبيعية وبشرية ،والتي تستطيع لو أحسن استغلالها واستخدامها أن تنهض وبقوة بدول الوطن العربي، إلا أننا نلاحظ العكس من خلال تواضع ما يشترك به الوطن العربي اقتصاديا على المستوى العالمي، ففي عام 1999 بلغ إجمالي الناتج القومي العربي كله، وبالأسعار الجارية وقتها حوالى 531,2 مليار دولار تمثل نحو 2% من الناتج العالمي، في حين أن نسبة سكان الوطن العربي في ذلك العام تمثل نحو 4,6 % من عدد سكان العالم، وهذا يوضح الوزن الاقتصادي العربي الضئيل عالميا ولو قورن بدولة إسبانيا في ذلك العام نجد أنها حققت 595,5 مليار دولار بما يعادل 2,2% من إجمالي ناتج العالم في حين أن عدد سكانها يقلون 1% من إجمالي سكان العالم.

وفى عام 2012 وصل حجم الناتج العربي نحو 236 مليار دولار تعادل 2,2% من إجمالي الناتج العالمي، في حين زاد عدد السكان العرب على 6%، فمن المعروف أن هناك تناسبا عكسيا ما بين الثروة والسكان في الوطن العربي لكن بصورة كلية بلغ متوسط دخل الفرد عام 2012 نحو 6731دولار هذا الرقم يمثل سدس ما يحصل عليه الفرد في المتوسط من دخل الدول المتقدمة.

أما بالنسبة للمستوى التكنولوجي فإن غالبية دول الوطن العربي مستواها متواضع بالنسبة لدول العالم الأخرى، مما يستدعي ضرورة تحديد الأسباب والظروف التي أدت إلى تراجع المستوى التكنولوجي العربي عن مثيله في دول العالم.

وعلى كل فمن خلال استعراض التحديات التي تواجه الدول العربية، وضح أن المسئولية تضامنية بين الحكومات والشعوب لتغيير السياسات و المفاهيم للحفاظ على الوجود البشري نفسه بإيجاد حلول عملية وواقعية لكافة المشكلات البيئية والتنموية، مع ربط الحاضر بالمستقبل وذلك بضمان صيانة الموارد كوديعة تسلم للأجيال القادمة كاملة.

وهناك نقطة هامة يشير إليها الكاتب وهي تزايد أعداد السكان الحالية مع نقص في الموارد الطبيعية فاحتمال أن تزيد تلك الأعداد عن مليارين في عام 2030 مع احتمالية

تفاقم المشكلات البيئية، مع تغيرات مناخية تسبب أضرارًا بالغة مع تزايد نسب التلوث في الهواء والماء والتربة وغير ذلك من الأسباب التي تفرض على صانعي القرار العربي مراعاة ذلك واتخاذ التدابير والإجراءات الكفيلة لمجابهة البعد الاستراتيجي للأمن القومي العربي في المستقبل.

أما بالنسبة للباب الثاني فيتحدث عن الآفاق الجديدة للتنمية المستدامة العربية فبداية يتحدث الكاتب عن مصادر جديدة للطاقة المستدامة فمن المعروف أن الطاقة تميز على النحو التالي، طاقة حية ذاتية في الكائن الحى، والجانب الآخر عبارة عن طاقة مشتقة من مصادر متعددة وتقسم إلى-:

- مصادر تقليدية وأهمها البترول والفحم وهذه المصادر ينتج عنها انبعاثات ملوثة وتؤدى زيادتها إلى الإخلال بتوازن البيئة الطبيعي.
- مصادر جديدة ومتجددة (الطاقة الشمسية – قوة الرياح – اندفاع المياه – حرارة الأرض... إلخ)، وهذه المصادر لا يترتب على استخدامها أية أضرار بيئية وبالتالي تتفق مع أهداف التنمية المستدامة، ويرجع السبب في عدم شيوع استخدامها حاليا لارتفاع تكاليف إنتاجها في الوقت الراهن، ولكن لا بديل أمامنا في ظل تنامي النشاط الإنساني الذي يهدد بنفاد مصادر الطاقة التقليدية (الفحم– البترول– الغاز الطبيعي– الأخشاب) إلى المضي قدما في مشروعات البحث والتطوير الخاصة بهذا النوع من الطاقة المستدامة.

هذا وتضع الدول العربية أولوية لهذا المشروعات في برامج الطاقة الوطنية، خاصة وأن الدول العربية تتوافر فيها كل المقومات الطبيعية لإقامة تلك المشروعات وأن العقبة لا زالت محصورة في ضخامة التكاليف والتكنولوجية المتطورة التي تحتاجها هذه المشروعات، ولقد تقدمت تقنية الطاقة المستدامة وبدأت تظهر هذه المشروعات إلى الوجود في الدول العربية مثل الإمارات ومصر والسعودية والكويت والأردن وغيرها من الدول.

هذا بالإضافة أيضا إلى الطاقة النووية فمن المتوقع في المستقبل القريب المنظور أن يزداد اعتماد العالم على المحطات التي تعمل بالطاقة النووية لتوليد الكهرباء عاما بعد عام، وقد خطت مصر خطوة كبيرة في ذلك عن طريق مشروع الضبعة والذي بدأ العمل فيه أوائل عام 2016 لإنشاء عدد من المحطات النووية لتوليد الكهرباء من أجل سداد احتياجات مصر من الكهرباء حتى عام 2050.

وعلى كل يرى الكاتب أن المستقبل سيكون واعدا بالنسبة للعرب من حيث امتلاكهم لمصادر الطاقة المتجددة وبكميات وفيرة تضيف إلى رصيد الثروات العربية موارد طاقة مستدامة تزيد من القدرات الاقتصادية العربية وتدفع بها خطوات إلى التقدم.

ثم ينتقل الكاتب بحديثه إلى التكامل الاقتصادي العربي بين الحقائق والبدائل والممكن، حيث يقول إنه تمشيا مع فكرته المعروفة في الكتاب وهي الدعوة لامتلاك إرادة التغيير والتجديد، فلا يمل عن الحديث عن ضرورة التكامل العربي الاقتصادي حتى يصبح واقعا يخفق أبعاده الاستراتيجية المتعددة، والدخول في مجال العولمة، والنظام الاقتصادي العالمي الجديد، والتجارة الحرة، بخطى ثابتة ناجحة، كما أن التكامل العربي الاقتصادي يمثل الركيزة الأساسية القادرة على انتشال العرب من حالة التدهور إلى التقدم.

فالتكامل يأتي من عملية متدرجة من التشاور إلى التقارب والتنسيق والوحدة فالاندماج، وواضح أيضا أن المتحكم الأساسي في مسار التكامل يظل دائما القرار السياسي، لذا فعند الحديث عن التكامل الاقتصادي العربي لابد من الرجوع إلى جامعة الدول العربية، المتهم البريء من إخفاقات التكامل الاقتصادي العربي.

وهنا يتساءل الكاتب : لماذا فشلت جامعة الدول العربية في تحقيق الوحدة العربية رغم مرور سبعة عقود على إنشائها ؟

وهنا ينبه على أعمال اللجنة التحضيرية للمؤتمر العام العربي التي أقرت بروتوكول الإسكندرية عام 1944 حيث شهدت جدالا بين دعاة التنظيم الإقليمي الدولي، ودعاة

التنسيق والتعاون، على غرار " عصبة الأمم المتحدة " من ناحية، ودعاة القومية السياسية من ناحية أخرى، وقد أسفرت محصلة هذا الجدال على اعتماد ميثاق جامعة الدول العربية 1945 منهج – المنظمة الدولية الإقليمية، هكذا نشأت الجامعة على أساس العلاقات الدولية العربية والسعي إلى تطويرها.

ومعنى ذلك أن ميثاق جامعة الدول العربية لا ينص صراحة على مسئوليتها ودورها في تحقيق الوحدة الشاملة، بل إن الميثاق ينص صراحة ووضوح على احترام استقلال الدول العربية وسيادتها.

فيبدو كذلك من الوهلة الأولى أن ميثاق جامعة الدول العربية هو المسئول عن تعطيل إتمام الوحدة العربيـــة، ولكن الحقيقة غير ذلك حيث يستند إلى رأي د. مجدي حماد في كتابه جامعة الدول العربية مدخل إلى المستقبل، حيث يقول لقد صيغ الميثاق الأصلي بطريقة شديدة المرونة تسمح بكل شيء ولا تعوق العمل العربي المشترك في أي اتجاه، ولا تضيق النصوص بأي طموح عربي.

ومعنى ما سبق أن ميثاق الجامعة أيضا بريء من تعطيل العمل العربي المشترك بل العكس من ذلك فهو مناسب وملائم لمسيرته من خلال الفترة الحالية ولا يحتاج إلى تعديل.

وما ينبغي التأكيد عليه منذ البداية أن التكتل الاقتصادي العربي والوحدة العربية من الأمور السياسية البحتة، وقد أثبتت الأحداث أهمية وجود إرادة سياسية تملك القرار السليم والرغبة الصادقة في إتمام التكامل الاقتصادي العربي.

أما عن الواقع وبعد مضي أكثر من سبعة عقود على بلورة النظام الإقليمي العربي، وجعل لسان حاله يتمحور فيما يصدر عن الجامعة العربية من قرارات ومعاهدات (من خلال مؤتمراتها واجتماعاتها) واتفاقيات، والتي لم تحقق الحد الأدنى من طموحات وآمال الشعوب العربية، وكذلك النظم السياسية العربية، فأكثر قراراتها على حسب قول الكاتب

عاطفية متسرعة، وغالبية مؤتمراتها تصدر توصيات وقرارات لا تنفذ، معنى ما سبق أن النظام الإقليمي العربي في أزمة.

ويرى الكاتب هنا أننا لابد من البحث عن أسباب هذه الأزمة، وبعدها نحدد أفضل الطرق والأساليب التي تعالج تلك الأزمة، وهناك دراسات وأبحاث جادة تعمل في هذا الاتجاه فنجد أن هناك ثلاث مدارس فكرية رئيسية تتبنى تفسير أزمة النظام العربي على المستوى الظاهري والمستوى الهيكلي وهم باختصار :-

المدرسة الأولى : ترى أن الخلافات العربية المستمرة هي المسئولة عما حدث، وأنها السبب الرئيسي أمام أزمة النظام العربي، حيث أدت هذه الخلافات إلى تمزيق النظام الإقليمي العربي إلى عدة محاور وكيانات متناصرة، ومتنافسة وبصورة شبه دائمة.

المدرسة الثانية : يمكن بلورة أفكارها في تفسير أزمة النظام العربي في محور العجز العربي وعدم قدرة الدول العربية على تنفيذ ما اتفقت عليه فعلا، دليلها في ذلك كثرة القرارات التي تم اتخاذها بالفعل، ولكن في أرض الواقع لم تنفذ أغلبيتها، ولعل السبب في ذلك يعود إلى فشل الإدارات السياسية الدبلوماسية في إيجاد حلول وسط تزيل أسباب الخلافات، هذا بالإضافة إلى غياب الشفافية لدى بعض الأنظمة في إعلان مواقفها صراحة، وأمام معارضة الإجماع العربي، تلجأ تلك الأنظمة إلى مسايرة الحدث الذي تتوافق معه فعليا لأسباب قطرية أو قومية.

بالإضافة إلى عدم وجود آليات فعالة لمتابعة تنفيذ قرارات الجامعة العربية وإلزام الدول الأعضاء تنفيذ القرارات والالتزام بالتوصيات وقد تم اتخاذ بعض الإجراءات الإصلاحية (منها تعديل ميثاق الجامعة العربية – ومشروع بروتوكول ضوابط العمل العربي المشترك) بما يزيد من فعاليات آليات التنفيذ، بل بتوقيع عقوبة تجميد العضوية أيضا.

المدرسة الثالثة : يرى أعضاء هذه المدرسة أن السبب الرئيسي أمام عجز النظام العربي عن تنفيذ قراراته يعود إلى انخفاض مستوى الالتزام السياسي الحقيقي بالعمل العربي المشترك من قبل الغالبية من الدول، وبموضوعية شديدة ترى تلك المدرسة أن استدامة النظام الإقليمي العربي يرتبط أشد الارتباط بوجود إرادة سياسية واعية ترغب في استمراريته خاصة وأنه يعبر عن إقليم مهم من أقاليم العالم الكبرى والذي ينفرد عنها بوجود أخطار تهدد وجوده وبقاءه، حيث تتقاطع خطوط السياسات والأطماع والمصالح الدولية والإقليمية على أرضه بغية السيطرة على الموارد الطبيعية والبشرية .

وأخيرا فهناك إجابة منطقية عما سيكتبه التاريخ عن واقعنا العربي الحالي وما يعانيه من مشاكل وقضايا في شتى المجالات (السياسية – الاقتصادية – الثقافية – الاجتماعية – البيئية) فالتصور أنه سيستخدم ألفاظا وتعبيرات وتشبيهات صعبة وقاسية لوصف تلك الفترة الضائعة من حياة الشعوب العربية، وإن ظهرت بعض بوادر التغير في أداء الحكومات نحو الأفضل ولكنه لم يصل إلى الدرجة المطلوبة التي ترضي طموحات ورغبات الشعوب العربية.

فالعالم من حولنا يزداد تقدما في كل لحظة ويبتعد عنا، هذا الوضع أوجد أزمة كبيرة للدول العربية عند الإعداد والتخطيط للمستقبل، حيث حدثت أمور لم تكن مألوفة من قبل وفى كل المناحي، لتضيف أعباء جديدة إلى جانب ما تعانيه الدول العربية من مشكلات وقضايا، فإما تكون هناك وحدة عربية شاملة أو البديل هو تعاون وتنسيق عربي، يجعل الباب مفتوحا لإتمام التكامل، أو ترك المسئولية للعولمة لكي تتولى إتمام التكامل العربي الاقتصادي.

صفـــــاء عبدالوهــاب

باحثة فلسطينية

مجلة " شـــؤون عربيـــة "

مجلة فصلية

تصدر عن الأمانة العامة لجامعة الدول العربية

رئيس التحرير – السفير / سعيد رفعت

تغطي المجلة الموضوعات والقضايا العربية – غير القطرية – في كافة المجالات السياسية والثقافية والاقتصادية والاجتماعية والعسكرية والإعلامية، وترحب بمشاركة المفكرين والمثقفين العرب فيها حسب القواعد التالية:

- تنشر المجلة أبحاثاً ودراسات من المدارس الفكرية المختلفة، ويكون معيار النشر هو الموضوعية والمستوى العلمي، والدقة، ودرجة التوثيق.
- يتراوح حجم الدراسة بين 4000 و 6000 كلمة. ويشترط أن تكون موثقة علمياً، وأن تشتمل الإشارات المرجعية على: اسم المؤلف، عنوان الكتاب، دار النشر، مكان وسنة النشر، رقم الصفحة.
- كما ترحب المجلة بالمشاركة في أبوابها الأخرى (مقالات حول أهم القضايا العربية والأحداث السياسية الجارية في العالم العربي فيما لا يزيد عن 2500 كلمة – تقارير عن الندوات والمؤتمرات التي تعقد في الوطن العربي أو في دول أخرى حول موضوعات تخص الوطن العربي، عرض ونقد الكتب التي لم يمض على صدورها أكثر من عامين فيما لا يزيد عن 1500 كلمة).
- يشترط أن تكون الدراسات مطبوعة على الكمبيوتر، ومرفقة بتعريف بحياة الكاتب الفكرية، على أن تُرسل إلى المجلة على قرص خاص أو بالإنترنت.
- تحتفظ المجلة لنفسها بحق إجراء تغييرات في النص، بما يتلاءم مع أسلوبها في النشر.
- تلتزم المجلة بتقويم أية مساهمة تصل إليها، وإعلام الكاتب بذلك في خلال شهرين من تاريخ استلامها، والمساهمات التي تعتذر المجلة عن نشرها لا ترد إلى الكاتب.
- تصبح الدراسة التي أجيز نشرها ملكاً للمجلة ويؤول إليها حق النشر. ويحق للكاتب إعادة نشر الدراسة في كتاب فقط مع الإشارة إلى المصدر الأصلي للنشر.

المراسلات :رئيس تحرير مجلة " شؤون عربية " – جامعة الدول العربية – الأمانة العامة

ميدان التحرير – القاهرة – الرقم البريدي : 11642

هاتف : 23781911 – 23580375 / فاكس: 27514196

البريد الإلكتروني: shounarabiyya@yahoo.com shoun.arabiyya@las.int

shoun.arabiyya@gmail.com

رقم الترميز: م09/دوري 01(2019)/02/ ع.177(0147)

ISSN 1687 - 2452